تفسير القرآن الكريم
بين القدامى
والمحدثين

- من قال فى كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ ..

"حديث – أخرجه أبو داود والترمذى اللفظ لأبى داود – عن جندب سنن أبى داود فى كتاب العلم – باب الكلام فى كتاب الله بغير علم ج3 ص33 .

- أى أرض تقلنى، وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله برأيى أو بما لا أعلم .

أبو بكر الصديق .

- ثلاثة كتب لا أصل لها: التفسير والمغازى والملاحم .

الإمام أحمد بن حنبل .

- ليس المهم الآن تفسير القرآن ولكن تثوير القرآن لأن فى هذا إعادته إلى رسالته الأولى: إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

جمال البنا .

لم نتعرض فى هذا الكتاب لدعوى النسخ إلا لصفحات معدودة لإعطاء القارئ فكرة عامة. أما تفصيل القول فيه فسيكون موضوعاً لكتاب بعنوان "تفنيد دعوى النسخ" يصدر فى هذه السلسلة إن شاء الله ...

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

فى رجب من عــام 1402 هجرية – مــايو 1982 أصــدرت كتــاب "الأصــلان العظيمان – الكتاب والسُنة" حاملاً "رؤية جديدة" لهـذين المنبعين العظيمين للإسـلام. ورأى الذين أطلعوا عليه أنه يمثل فعلاً رؤية جديدة. فقد كـان ختـام مرحلة طويلة من التفكير، وتضمن اجتهادات تختلف عن الفكر الشائع والمقرر .

مع هذا، فإن عشرين سنة مضت منذ صدوره جعلت الرؤية التى كانت جديــدة – قديمة بالنسبة لما انتهى إليه الفكَر والاجتهاد طوال عشرين عامـاً بحيث حـدث تطـوير جذرى لما كانت عليه الرؤية فى تلك الفترة السابقة

ولما كانت نسخ "الأصلان العظيمان" قد نفـدت من وقت طويـل، وألح عـدد من الأصـدقاء على إعـادة طبعه رأيت أن أحقق مطلبهم بطريقة جديـدة تلك هى أن أطبع كل باب من أبوابه الهامة على حدة كما صدرت، وأضيف إليها ما تطور إليه الفكر خلال العشرين عاماً وهما يكملان بعضهما – فلا يفهم التطوير ما لم يفهم الأساس الذى قام عليه هذا التطوير.

وبـدأنا بالفصـول الثلاثة الأولى الـتى تشـغل الصـفحات من 113 إلى 128 دون تقيد حــرفى وهى عن "تفســير القــرآن بين القــدامى والمحــدثين" وكــانت تشــغل الصــفحات من 43 إلى 128 وكـان يقف فيه عند التفسـير العصـرى الـذى تقـدم به الدكتور مصطفى محمود وأوردنا مقالات الدكتورة أبنه الشاطئ التى نقدته فيها .

فأضـفنا إليه ما جـاء فى الجـزء الأول من كتـاب "نحو فقه جديـد" (وهـذا الجـزء معظمه عن القرآن الكريم). وكذلك إضافات مما جاء فى كتاب "تثوير القرآن" .

كما زيـدت إضـافات لم تقيد فى أى كتـاب من كتبنـا، وكأنها كـانت تنتظر هـذه الطبعة فأدرجناها ...

بهذه الإضافات زادت هذه الفصول الثلاثة من كتاب "الأصـلان العظيمـان" قرابة ضعف الأصل. وأصبح يضع القارئ مع آخر ما أصدرناه عن تفسير القرآن .

* * *

لقد صورنا موقف العلماء قدامى ومحدثين من القـرآن الكـريم وسُـنة الرسـول فى مقدمة "الأصلان العظيمان" فقلنا :

ما أكــثر الكتب والمجلــدات الــتى صــدرت عن الكتــاب والسُنة .

أجيـال بعد أجيـال وأعمـار تلو أعمـار طـوال أربعة عشر قرنا متوالية وعلى امتداد أربعة أركـان الأرض. والعلمـاء – من أعمـاق أفريقيا إلى مشـارف سـيبريا يعكفـون على كلام الله وحـديث رسـوله يحتسـبون عند الله ما يلقـون من مشـقة وما يضـحون به من عمر وما يكابـدون من سـير وترحـال بحثـاً عن مرجع أو تثبتـاً من حـديث... أو سـماعا من شـيخ ويعتصـرون أذهانهم فى شرح غامضه وتيسير عسيره.. وما أن يظن واحد منهم أنه أشفى على الغاية أو قارب النهاية حـتى يتبـدى أفق جديد لفقيه يبــدأ حيث انتهى الأول ثم يتكـــرر الأمر معه كما تكرر مع من سبقه .

كل هــذا والكتــاب المجيد والسُــنة المطهــرة كبحــرين طـامين لا يلحقهما نقص ولا يمسـهما لغـوب ينفسـحان لكل بحار ويرزقـان كل صـياد ويعطيـان كل واحد حسب جهـده ولا يخيبان أمل آمل أو عمل عامل] .

هذه العاطفة المتجذرة فى قلوب المسلمين نحو القرآن الكـريم لا تـزال قويـة، متجـددة، لم تشـحب شـعلتها ولا انكسف نورهـا، **ولكن الجديد أن هـذه العاطفة المشبوبة امتدت من القـرآن إلى تفاسـير القـرآن. وهو تطـور وإن كـان يبدو طبيعيا، إلا أنه فى حقيقة الحـال يمثل نوعـاً من الانـزلاق والتحـول من الأصـيل إلى الوكيـل. وقد كـانت ثمـرة مطالعـاتى للتفاسـير عـبر خمسـين عامـاً مخيبـة، بل رأيت فيها شـيئاً من التطفل على القـرآن بل والجناية عليه** لأن التفسـير لابد وأن يتضـمن نفَسـاً من مـزاج، وثقافـة، واتجاهـات المفسـر. ما من ذلك بـد، ولا عنه مفـر، لأنه طبيعة الأشـياء ومن هنا يـأتى الخطر لأن المفسر كائنـاً ما كـان ليس ملاكـا، ولا هو معصـوم من الضـعف البشـرى والقصـور الإنسانى، دع عنك الاغراض حتى وإن لم نفترضه ضرورة، وما يدفع التزيد الكـاتب إلى الإضـافة. إن القـرآن الكـريم أطلق أوصـافا عامة لم يشأ أن يحـددها لأنه يريد لها أن تتجاوب مع التطورات، ومع النفسيات وما تتطـور إليه العصـور دون أن يكـون فى ذلك قسر أو تطويع، ولكن المفسرين يخصصون هذه المعانى العامة بما سبق إلى أذهـانهم أو ما وجـدوه تحت أيـديهم من شـعر منحـول أو حـديث موضـوع أو اقتبـاس من أهل الكتاب. فإذا قال القرآن ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. قـالوا اليهـود والنصـارى. وإذا قال ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾. قالوا النساء والصبيان وإذا قـال ﴿لَهْـوَ الْحَـدِيثِ﴾.

قالوا الغنا، وإذا قال ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُـرِهِنَّ عَلَى جُيُـوبِهِنَّ﴾. يـروون عن ابن عبـاس صـفة تغطى الرأس ولا تظهر إلا عينا واحدة وإذا قال ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ﴾. قـالوا آدم، وإذا قال ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾. يضـيفون فى شـرحهم "لا" وهـذا كله حجر على المعنى القرآنى وقـول بغـير علم دع عنك النسخ الـذى جعل المفسـرين جـزارين يمسكون بسـكين ويـذبحون الآيـات أو ينحونها جانبا كـأن لم تكن. حـتى وهى تقـرأ من المصحف، ولم اقـرأ كتابا من الكتب الـتى وضـعها المستشـرقون المغرضـون إلا وأجد ذكـراً لآية السـيف الـتى نسـخت قرابة مائة آية من آيـات الصـفح والسـماح والحريـة. يستشـهدون بها على "وحشـية الإسـلام"، والروايـات العديـدة المزعومة عن آيـات لم تثبت وسور ناقصة مما يثير الشك فى قداسة القرآن ويوحى إنها من "اللغو" الذى قام به أعداء الإسلام منذ ظهور الإسلام وأشار إليه القـرآن، ولكنه جـاز على الـرواة الـذين هم أسرى الإسناد .

ومما يثـير العجب ويبعث على الانـدهاش ما يـورده المفسـرون من تعدد المعـانى والشـروح للكلمة الواحـدة تعـدداً يصل إلى درجة التعـارض دون تردد أو شـعور بـالحرج بحيث يعجز أى واحد يريد أن يسـتخلص حكما أمام هذا التيه من المعـانى والتفسـيرات.. فالآية ﴿وَقَـرْنَ فِي بُيُـوتِكُنَّ﴾. اختلف فى تفسيرها المفسرون كما يقول الطبرى فمنهم من قرأ "وقَرن" بفتح القاف بمعنى أقررن فى بيوتكن من القرار ومنهم من قرأ و"قِرن" بكسر القاف فـالمعنى تكن أكـثر وقاراً وسكينة "من الوقار" .

ثم قال الطبرى "وهذه القراءة "الثانية" أولى عندنا من الصواب" .

وهذا المعنى الذى رجحه الطبرى يقلب تصورات دعـاة الحجـاب والاحتبـاس فى البيوت رأساً على عقب .

ويقول بعض المفسرين فى آية ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِـدَةً﴾. أن الأمة كـانت ضالة ويذهب آخرون إلى عكس ذلك .

والخلاف فى سـورة الوضـوء {6 من سـورة المائـدة}.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّـلاةِ فَاغْسِـلُوا وُجُـوهَكُمْ وَأَيْـدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِـقِ وَامْسَـحُوا بِرُءُوسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَـاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَـى أَوْ عَلَى سَـفَرٍ أَوْ جَـاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَـعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَـحُوا بِوُجُـوهِكُمْ وَأَيْـدِيكُمْ مِنْـهُ مَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَـرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيـدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾. فـالخلاف فى ضـبط "أرجلكم" وهل هى بالكسر عطفـاً على ما سـبقها مباشـرة وهى "بروسـكم" أو هى عطف على "وجـوهكم" وفى هـذه الحالة تكـون بـالرفع. فيجب الغسل فى حين يكفى فى الحالة الأولى المسح على الأرجل. وقد ذهب الجمهـور إلى غسل الأقـدام إعمـالاً للسُـنة ولأن نظافة القـدمين لا يكفى فيها المسـح، ونحن مع الجمهور فى أن تطهير الرجل يكون بالغسـل، وليس بالمسح إلا أننا يجب أن نلحظ أن غسل القدمين قد لا يكون ميسراً للكثير من الناس من الرجـال والنسـاء من المرضى

والمتقدمين فى السـن. وفى المسح ما يجـزئ وفى الآية ما يسـمح به وإن ظل الأصل هو الغسل .

وكذلك الخلاف فى الوقف فى الآية {7 من سورة آل عمران}.. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَـابِ﴾. هل يوجد وقف بعد جمله "وما يعلم تأويله إلا اللـــه" بمعـــنى أن الراســـخين فى العلم لا يشتركون مع الله تعالى فى فهم المتشـابهات. وإنما يقولـون آمنا به كل من عند ربنـا. أما إذا أريد اعتبار السـياق متصـلاً دون وقف بعد كلمة اللـه. فإنه يعـنى أن الراسـخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابهات، وفى هذه الحالة كما فى آية الوضــوء لا نميل لما ذهب إليه الجمهـور ونـرى أن الراسـخين فى العلم لا يعلمـون المتشـابهات، وقد يـدل على ذلك أداة الاستثناء إلا الله .

وفى بعض الحـالات يعمـدون إلى الآية الصـريحة فيقلبونها عن معناها انسـياقا لـروح العصر المغلق الـذى كـان يحكمهم. فالآية ﴿لا إِكْـرَاهَ فِي الـدِّينِ﴾. يقولـون هـذا خصوص من عمـوم بمعـنى أن الآية لا تنطبق إلا على غـير المسـلمين الـذين يـدفعون الجزية فهؤلاء لا يجـوز إكـراههم على الإسـلام والآية صـريحة وواضـحة كالشـمس عن عموم حرية العقيـدة لأن من مقتضى أصـول الأشـياء وبـديهياتها أنه لا يمكن "التحكم" فى ضمائر الناس وفرض العقائد عليهم قسراً .

وحتى فى الآيات التى تتعلق بالصلاة، فإن الاختلاف فى فهم الآيات لا يكاد يفلت كلمة من هذه الآيات. فمثلاً {الآية 14 من سورة هود}.. ﴿وَأَقِمْ الصَّـلاةَ طَـرَفِي النَّهَـارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْـلِ إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُـذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِـكَ ذِكْـرَى لِلـذَّاكِرِينَ﴾. فقد اختلف المفسـرون فى المقصـود بطـرفى النهـار فقـال فريق الفجر طـرف ومنهم من قـال الظهر طرف ومنهم من قال الفجر والظهر طرف بينما ذهب فريق آخر إلى أن الظهر والعصر طـرف. ومنهم من قـال العصر وحـده طـرف ومنهم من قـال المغـرب وحـده طرف .

وأما عن زلف الليل فمنهم من قـال المغـرب والعشـاء ومنهم من قـال العشـاء فقط ومنهم من أضـاف الوتـر إلى المغــرب والعشــاء ومنهم من أضــاف الفجـر إلى المغـرب والعشاء .

﴿أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَـانَ مَشْهُودًا﴾عن دلوك الشـمس إلى غسق الليل {فى الآية 78 من سـورة الإسـراء} فقد قـال البعض دلـوك الشـمس الظهر ومنهم من قـال المغـرب ومنهم من قـال الظهر والعصر. وعن غسق الليل قيل العشاء وقيل المغرب والعشاء[1] .

---

1 **(1) أنظر هذه الحالات وكثير غيرها فى كتاب "إشكاليات الخطاب الدينى للـدكتور محمد السعيد" الصفحات 119 وما بعدها .**

وأضـيف إلى الناسخ والمنسـوخ، وأسـباب الـنزول وغيرها من "علـوم القـرآن" "علم" آخر هو القـراءات الـتى لم تقف عند اختلاف كتابة أو نطق بعض الكلمـات لأن لهجة قريش لم تكن لهجة العرب كافـة.. وهى جزئية كـان لابد وأن يـذهب بها التطـور كأن تقرأ ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَـذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً ﴾. {142 النساء}.. بفتح "كسالى" وهى لغة تميم وأسد أو ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾. {36 المؤمنـون}.. بكسر التـائين، وهى لغة تميم وأسد ومثل ﴿وَزِنُـوا بِالْقِسْـطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْـرٌ وَأَحْسَـنُ تَـأْوِيلاً﴾. {35 الإسـراء}.. فقد قـرأ البعض بكسر القـاف والبعض الآخر بفتحها ومثل "حتى يقول الرسول" بفتح اللام وضمها أو "لا بيع فيــه، ولا خلة، ولا شفاعة" برفع الأسماء الثلاثة أو فتحها، نقـول إن الأمر لم يقف عند هـذا، فقد تعدى إلى إضافة أو حذف كلمات كما فى سـورة الليل ﴿وَاللَّيْـلِ إِذَا يَغْشَـى. والنهـار إذا تجلى والـذَّكَرَ وَالأنْثَى﴾. وقيل أن أبا الـدرداء كـان يقرأها كـذلك "أى بـدون وما خلـق" وأراد أحد الأسلاف أن يلتمس له العذر فقال باحتمال نسـخها ولم يبلغ أبا الـدرداء هـذا النسخ فكان عذراً أقبح من الذنب، ومثل قراءة إبن مسعود فى سورة النســاء أن الله لا يظلم مثقال نملة، بدلاً من مثقال ذرة. ومثل ما قيل عن أن عبد الله بن عباس كان يقرأ فيما استمتعتم به (إلى أجل مسمى) فآتوهن أجورهن. وبهذا يمكن استحلال زواج المتعة .

وكما فى قراءة شنبوذ فى سورة الكهـف، وكـأن يأخذ كل سـفينة صـالحة غصـبا ومثل قراءة الكوفيين فتثبتوا فى سورتى النساء والحجرات بدلاً من فتبينوا .

* * *

إن هذه الإشارات العابرة التى اتسعت لها هذه المقدمة، وما سـيلى فى فصـول الكتاب جعلنا ندعو إلى **صرف النظر عن الاحتجاج بالتفاسير ونـرى أنها جنت جناية عظمى على القـــرآن لأنها صـــرفت النـــاس عن مطالعة النص أو الاســـتماع إليه وما يجديه ذلك من هدايـــة، ومن تـــأثير فى النفس ومن تفاعل مع الإرادة تحول كل هذا إلى مرويات ركيكة عديــدة لا حصر لها لا يجمعها جامع، بل يضرب بعضها بعضها .**

إنـنى عنـدما وجهت الأنظـار إلى ضـرورة الشـائعة من مؤتفكـات وإسـرائيليات وأحاديث عدم الالتزام بالتفاسير بـدءً من تفسـير بن عبـاس حـتى تفسـير سـيد قطب، تعرضت لموجة شـديدة من النقد والهجـوم، لأن هـذه التفاسـير أصـبح لها قداسة فى النفـوس مسـتمرة من تغلغلها بـالقرآن، ومن ناحية أخـرى فـإننى وأن كنت قد عالجنا هذه القضـية فى كتبنا الأخـيرة، فـإن ذلك كـان متفرقـاً، ومع مواضـيع أخـرى. ومن هنا كانت الحاجة شديدة لهـذا الكتـاب الـذى يضع حجتنا كاملة أمـام القـراء ويشـرح وجهة نظرنا وما فيها من موضوعية وأعلم هذه الكلمات. قد لا تكون الآن إلا كمـاء نـزل على صفوان ثم انزلق عليه ولم يترك أثراً، ولكن التجربة علينا أن اسـتمرار سـقوط الميـاه يفتت الصخر، وهذا أول الغيث، ولن تقدم الحقيقة سمعيا ونصيراً، ومع أنها رحلة شاقة طويلة شائكة فلابد من البدء، وقد بدأناها. ونحن نعلم حق العلم أنها لن تتم فى حياتنا.

وأننا لن نرى ثمرها لأن دورنا هو غـرس البـذرة، وليس حـرص الثمـرة. ولهـذا فنحن لا نتعجل الأمور ومثل هذه القضية تحتاج إلى زمن طويل فنحن لا نسـتعجل، ولا نسـتكثر، ولكن نعمل دون كلـل، ولكل شـىء مسـتقر وحسـبنا أنا فتحنا الطريق ولا يخالجنا فى النتيجة التى قـررها القرآن ﴿فَأَمَّا الزَّبَـدُ فَيَـذْهَبُ جُفَـاءً وَأَمَّا مَا يَنفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ .

ولو كان الأمر بيدى لقلت لقومى – كما قال هود ..

﴿وَمَا أُرِيــدُ أَنْ أُخَـالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَــاكُمْ عَنْـهُ إِنْ أُرِيــدُ إِلا الإِصْـلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. {88 هود} ..

القاهرة في: رمضان 1424 هـ/**أكتـوبر 2003 م**

جمال البنا

تمهيد
بين يدى القرآن الكريم

رأينا أن من الخير قبل أن نبدأ الحديث عن تفسير القـرآن الكـريم أن نقـدم بين يـدى هـذا الموضـوع تعريفـاً لبعض خصـائص القــرآن بما فى ذلك الــرد على بعض التسـاؤلات مثل لمـاذا أنـزل القـرآن بالعربية وما هى خصـائص الصـياغة القرآنية وسر الإعجاز الخ... حتى يتهيأ القارئ نفسيا وفكريا لتفهم ما سيلى عن التفسير ..

(1)

لماذا أنزل القرآن باللغة العربية ؟

لما كـان القـرآن هو معجـزة الإسـلام الـذى أحله الله محل المعجـزات القديمة للأديان السابقة وردّ على العرب الذين طالبوا بمثل هذه المعجزات ﴿وَقَـالُوا لَـوْلا أُنْـزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**(50)** أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْــكَ الْكِتَــابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِــكَ لَرَحْمَــةً وَذِكْــرَى لِقَــوْمٍ يُؤْمِنُــونَ﴾. {51 العنكبوت} ..

فهذه الآية الأخيرة جعلت فى القرآن الكفاية من المعجـزات وفسـرت ذلك بـأن فيه الرحمة والذكرى ويمكن حتى للذين لا يؤمنون بالمعجزات الاحتجاج بها، لأن مثــول الرحمة والذكرى بين الناس هو أكبر معجزة .

ومع أن الإســلام أنــزل للنــاس جميعا إلا أنه كــان لابد أن يتوجه أولا إلى قــوم معيــنين وأن يــنزل القــرآن بلغة معينــة. وقد اصـطفى الله العــرب والعربية لأن هــذا الاصطفاء كان يتفق مع ما أراده الله للإسلام من أن يكون آخر الأديـان وأشـملها إذ أن مثل هذا الدين الـذى لن يـأتى بعـده دين ولن تـأتى معه معجـزة كـان لابد أن يكـون ذا معجزة دائمة خالدة باقية مع الناس – ما بقوا، كذلك أن تكون هذه المعجزة متفقة مع ما سـتبلغه البشـرية من رشد وما سـتكون عليه من رقى بفضل العلم والمعرفة بوجه خاص، كان لابد إذن أن تكون معجـزة آخر الأديـان وأبقاها "كتابـا" يعيش مع النـاس ما عاشـوا... ويتفق مع مسـتواهم الفكـرى بحيث كلما تقـدموا وجـدوا أن هـذا الكتـاب لا يتخلف عنهم بل هو آونة معهم وآونة أخرى أمامهم بحيث يأخـذون منه ما يفهمـون وما يتفق معهم ويجدون فيه ما قد لا يفهمونه تماما لأن فهمه من حظ أجيـال تـأتى بعـدهم ويتوفر لهم علم أكثر وهـذا كله يسـتبعد أن تكـون معجـزة الإسـلام "حـدثا" مثل إحيـاء الموتى أو شفاء المرضى أو ضرب البحر بالعصا فينفلق كل فرق كالطود العظيم.. لأن هذه الأحداث العظام وإن أقنعت المعاصـرين لها فإنها تكـون غـير ذات معـنى للأجيـال التالية التى لم تعاصرها وتشهدها وإنما كانت هذه المعجـزات سـائغة لأن هـذه الأديـان كانت مرحلية.. أما بالنسبة للدين الأخير الدائم فكان لابد أن تكون معجزته – كما ذكرنا – كتابا يجد فيه كل جيل هدى ورحمة ومعرفة وحكمـة.. وفى شـرح هـذا المعـنى قـال

صاحب الوفا "فلو قال ملحد اليوم أى دليل على صــدق محمد وموسى فقيل له محمد شق له القمر وموسى شق له البحر لقال هذا محال. فجعل الله سـبحانه وتعـالى هـذا القرآن معجـزا لمحمد ليظهر دليل صـدقه بعد وفاته وجعله دليلا على صـدق الأنبيـاء إذ هو مصدق لهم ومخبر عن حالهم" .

فلما تعين هذا تعين بالتالى أن يتنزل هذا الكتاب على العرب.. وأن يكون بالعربية. لأن العرب لم يكن لهم ما يفخـرون به من حضـارة قديمة أو دولة عريقة كما كان الحال لدى المصرين القدماء أو من فنـون وآداب وفلسفة ومعرفة كما كان الحال لدى اليونـان. ولكن فخـرهم انحصر فى صـياغة الكلمة والتعبـير بها والوصـول بـذلك إلى درجة من البلاغة تكـون محل الفخر بحيث تعلق على أستار الكعبة.. فكـان نـزول كتـاب يصل من البلاغة إلى درجة تفوق كل ما وصـلوا إليـه.. وتجـاوز كل ما بلغـوه هو ما يحملهم على الإيمــان به ويكــون بالنســبة لهم أعظم المعجــزات، وفى الوقت نفسه يتفق ما أشرنا إليه من أن معجزة آخر الأديـان كـان لابد أن تكون كتاباً .

وهذا هو سر نزول القرآن بالعربية ...

(2)

خصائص الصياغة القرآنية

تتسم الصياغة القرآنية بعناصر معينة يمكن إجمالها فى :

1. الإيقاع الموسيقى للنظم القرآنى .
2. التصوير الفنى .
3. الصياغة الأسلوبية الفريدة .
4. البعد عن التفاصيل والسرد الممل .
5. استخدام وسائل التأثير النفسية (السيكولوجية) .
6. وأخيراً إبراز القيم باعتبارها المرجعية فى الأعمال .

1. نحن نعنى بالإيقاع الموسيقى للنظم القـرآنى: أن الكلمـات والألفـاظ اختـيرت اختيارا خاصا بحيث يحقق التناغم الموسيقى مـدا وغنا وارتفاعا وانخفاضا فالكلمـات الثلاثة ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾. على سبيل المثال تضم الحركات الثلاث للكسر والفتح والضم مشـبعة وكأنها درجـات فى سـلم موسـيقى ويمكن أن توضع فى نوتة موســيقية طبقا "لتــون" كل كلمة وقد كــانت هــذه الحقيقة هى أصل نشــأة علم التجويد. الذى كان بدوره أصل التلحين فى الموسيقى العربية وكـان كبـار الملحـنين هم كبار القراء .

وقد يبدأ القرآن بعض سوره بكلمة تمثل بعض الحروف (ألف لام ميم) أو (طــاء سين ميم) وكأنها اسـتهلال موسـيقى لإثـارة الاهتمـام ولإحـداث الأثر الإيقـاعى لما فى

هذه الحـروف من مد وكسر فضلا عما فى هـذا الاسـتهلال من إبـداع لم يسـبق إليه أو يلحق بـه، وما يـوحى به من قسم بـالحروف وكأنها شـفرة "للكلمـة" المكتوبـة، أو المقروءة، وهى إحـدى الممـيزات الرئيسـية للإنسـان. كما يُجـرى القـرآن من التـأخير والتقديم الإعلال والإبدال، الحذف والإضافة ويطـوع فى الأسـاليب بما يجعل النحـويين حيارى يلهثون ولكنه يحقق الهـدف المطلـوب أعـنى أن تكـون الجملة القرآنية رسـالة تتجاوب مع "شفرة" أو "موجـة" محطة الاسـتقبال وهى الأذن الإنسـانية بحكم ما فيها من جرس وإيقاع وتنغيم .

وأهمية الجــرس الموســيقى لا تقف عند أنه أول ما يطــرق النفس عن طريق نافــذتها على عــالم الأصـوات ولكنها أيضــاً أشــمل عوامل التـأثير إذ يتـأثر به الجاهل والعالم الصغير والكبير والأعمى والبصـير وقد تخفى الحكمة فى المعـانى على من لم يرزق حظا من الذكاء وقد يـدق التصـوير الفـنى على من تضـعف عنـده حاسة التـذوق الفــنى ولكن قلما تــدق النغمة الحلـوة المثـيرة على أحد فـالنغم يــدفع إلى الــرقص البدائيين فى أفريقيا والمعاصرين فى أوربا وإن اختلف الأداء

يعين على هذا أن الأذن تتصل بمركز التوازن بالمخ، ولعل هذه الحقيقة هى التى جعلت القرآن يقدم السمع على البصر .

كما يجب الإشـارة إلى أن الإيقـاع الموسـيقى يسَّـر الاسـتمتاع بقـراءة القـرآن والتعبد بتلاوته وســهل حفظه والاستشــهاد به فى المناســبات والخطب والأحــاديث وتكوين الملكة الأسلوبية التى يتوفر لها الإيقاع والبلاغة .

فــإذا كـانت الصـياغة الموسـيقية قد وسـعت من التصـرف النحـوى ويسـرت الاستمتاع بقراءة القرآن وحفظه والاستشهاد به فلا يقل عن هـذا أهمية أنها كـانت فى أصل نشأة الموسيقى العربية. وعلم التجويد هو أساسا علم مُوسيقِىٌّ وإذا أريد لمعاهد الموسيقى والكونسرفتوار أن تتوصل إلى موسيقى عربية فإن أحد المكونات الرئيسية التى تكفل لها العرق العربى هو التجويد الـذى يجب أن يـدرس لطلاب وطالبـات هـذه المعاهد وبدون هذه المـادة يمكن أن يقحم فى عـالم الموسـيقى نمط غـريب تنبو عنه الأذن العربية ولا يكون من مبرر للأخذ به إلا مجرد التقليد. وليس فى هـذا الاقـتراح أى غرابة أو حتى تجديد. لأن كبار الموسيقيين المصـريين تتلمـذوا على أيـدى كبـار القـراء وكان هؤلاء القراء أنفسهم يجمعون بين قراءة القرآن وإنشاد المدائح ويقومون بتلحين الأغانى وقد تتلمذ المغنيـان البـارزان عبد الوهـاب وأم كلثـوم على أيـديهم وتـأثرت أم كلثــوم بوجه خـاص بأسـتاذها الأول الشـيخ أبو العلا تـأثرا كبـيرا، بل إن الأسـتاذ فتحى رضــوان روى أنه ســمع ســيدة إنجليزية كــانت مشــغولة بفن البالية وطــافت البلاد الإسـلامية بحثا عن موضـوعات للبالية من الـتراث الإسـلامى وهى تتلو سـورة النجم وتردد آياتها ورأسها تتمايل مع إيقاع الآيات وقال "وقد خيل إلى وأنا أسـمع هـذا اللفظ القرآنى المبين على لسان هذه الأعجمية التى لا تكاد تنطق القافات والعينات إلا بشق الأنفس أننى أسمع هذه السورة للمرة الأولى وحسبت أن هذه السيدة تصطنع النشوة

والبهجة الوجدانية لولا أن الانفعال بقى فترة غالبا عليها وهى تحاول أن تضبط شعورها وقد مدت يدها خلسة وفيها منديل صغير لتموه عبرة ترقرقت فى عيونها"[2] .

على أن حـديثنا عن الإيقـاع الموسـيقى للنظم القـرآنى يجب أن لا يلفتنا عن الطبيعة الفريدة لهذه الموسيقى وأنها تختلف عن مألوف الموسيقى فهى لم تصطحب أبدا بالآلات، ولا ينتظر أن يحدث شىء كهذا رغم أن المقرئين كانوا فى فترة معينة هم الملحـنين الموسـيقيين وإنما ارتبطت بالصـوت البشـرى لأن ذلك يسـتتبع عـادة إلمـام التالى أو القارئ بالصياغة العربية ومعـانى الألفـاظ بحيث يكـون "موصـلا" حسـنا للأثر القرآنى .

ويتـبين أثر الإيقـاع الموسـيقى وأهميته من أن القـرآن الكـريم يسـتخدم كلمة الاستماع ومشتقاتها لإحـداث الأثر المطلـوب وعمليا كـانت الخطـوة الأولى والرئيسـية فى هداية الرعيل الأول من المسـلمين هى الاسـتماع للقـرآن، لأنه ما إن يسـتمع أى واحد إلى القرآن حتى تملك الصياغة الموسـيقية الجذابة أذنيه ثم يـرقى به إلى سـماء "التصـوير الفـنى" الرائع أو المعـانى الرفيعة السـامية فيـؤدى التفاعل ما بين الإيقـاع والتصـوير والمعـنى إلى مثل ما صـوره القـرآن ﴿يَخِـرُّونَ لِلأَذْقَـانِ سُـجَّدًا﴾ ،﴿وَيَخِـرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾. أو بالطريقة التصويرية الرمزية للقرآن ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ .

وهذه الحقيقة تثـير قضـية سـنتحدث عنها بالتفصـيل فى موضـعها وحسبنا هنا مجرد الإشارة تلك هى أنه لما كان الأثر المطلوب يتم بمجرد الاسـتماع وما يحدثه ذلك من ومضه تضـىء جنبـات النفس أو شـرارة تشعلها بالإيمان. فإن "التفسير" وما أطنبوا فيه من "علـوم القـرآن" قد لا تكـون بالأهمية المظنونة بل إنه يمكن أن يـذهب بها فى متاهـات لا تخلو من لبس أو فضول أو تكلف أو غير ذلك من المزالق .

2. **ويحـرص القـرآن أن تأخذ آياته "تصـويراً فنيـاً فتسـاق الوقـائع والأحداث** والمشاهد والمعانى والتوجيهات فى معالجة فنية مع الاحتفاظ بموسيقية النظم بحيث تصبح كل مجموعة من الآيات لوحة فنية تنضح بـالألوان وتنبض بالحيـاة ومن العسـير الاستشـهاد بأمثلة على ذلك لتعـددها ولكثرتهـا، ولأنها تكـاد تكـون المعالجة الغالبة وقد يصور ذلك هذه الآيات .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَا اسْـمُهُ يُسَـبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ(36) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَـارَةٌ وَلا بَيْـعٌ عَنْ ذِكْـرِ اللَّهِ وَإِقَـامِ الصَّـلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَـاةِ يَخَـافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالأبْصَـارُ(37) لِيَجْـزِيَهُمْ اللَّهُ أَحْسَـنَ مَا

[2] **(2) آراء حرة فى الدين والحياة للأستاذ فتحى رضوان – كتاب الهلال ص76- 77 .**

عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(40) أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. {41 النور} ..

ففى هذه الآيات نجد اللوحات التصويرية تتلاحق بل وتتلاصق وإن كان لكل منها كيانها وموضوعها الخاص.. فالأولى تصور نور الله والثانية تصور المساجد ومشاهد العبادة فيها. أما الذين كفروا فتصور اللوحة الثالثة أعمالهم كسراب. أو كظلمات متكاثفة "إذا أخرج يده لم يكد يراها" وتختم اللوحات بلوحة تصور تسبيح الجميع ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾. وهذه اللوحات الأربع تكاد تكون "نفَس واحد" رغم أن لكل منها موضوعها الخاص لأن السلك الذى انتظمها جعلها عقدا نضيدا تساعد كل حبة فى إبراز العقد كما نجد الإيقاع الموسيقى من مد وكسر، ورفع وخفض، ومن وصل وقطع، يسير جنبا إلى جنب التصوير الفنى بحيث يؤدى تزاوج التصوير الفنى بالتنغيم اللفظى بالإضافة إلى سمو المعانى إلى الإعجاز القرآنى .

آما آثار الغابرين وما تركوه من بئر معطلة أو قصر مشيد وما خلفوه من جنات وعيون ونعمه كانوا فيها فاكهين فما بكت عليهم السماء ولا الأرض وما كانوا منظرين.. وأما لوحات الطبيعة التى تمثل الليل إذا عسس والصبح إذا تنفس والأمطار التى تحيى الأرض بعد موتها وما تتحلى به من جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد.. وأما مشاهد القيامة. وما فيها من شهيق وزفير وسلاسل وأغلال ونار وقودها الناس والحجارة أو جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين فهذه كلها أكثر من أن تحصى وتكاد تكون مادة القرآن .

وقد يخاطب القرآن النبى نفسه كفرد تختلج فى نفسه شتى المشاعر الإنسانية ويحدد له المسار والمسلك وقد يشرك القارئ فى القضية الفكرية أو اللوحة الفنية بلفته لا تكاد تحس كما فى تصوير مشهد الكهف ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَتَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. فبكلمة واحدة لا تكاد تحس هى "وترى" يجد القارئ نفسه وقد اختطف من عالمه وزمنه ودنياه ليندمج فى هذا الحدث البعيد وتأتى "وتحسبهم" و"لو أطلعت" لتعزز من إشراك القارئ واستغراقه فى حدث وقع من مئات السنين ولا يعلم عنه شيئاً .

3. ومما أنفرد به القرآن الصياغة الخاصة التى جاء بها والتى لا تعد نـثرا أو شـعرا كمألوف النثر والشعر. فالنظم القرآنى يقوم على فقرات أو جمل تسـمى كل جملة (أو بضعه جمل) آية وتنتهى هـذه الآية بخاتمة أو "قفلـة" تشـبه القافية بحيث يتحقق إيقاع واحد أو متقارب بين النهايات مع تكوين كيان خـاص للآية يتصل بما بعـدها من آيات. وقد حار العرب أين يضعون القرآن. فليس هو بـالنثر، وليس هو بالشـعر وإنما هو ضرب جديد لم يكن لهم به عهد من قبل. وعندما سمعوه لأول مرة بهتوا وصـور مشاعرهم أصدق تمثيل كلام الوليد بن المغيرة "إن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه" وعنـدما ضـغط عليه قومه ليقول شيئا يمس به هذا القرآن قال "إن هو إلا سحر يـؤثر" ولم يمس هـذا القـرآن بل كان أعظم تصوير لإعجازه .

ولعل ما يمكن أن يضاف إلى هذا أن القرآن وإن انفرد بهذه الصياغة فلم يحاول أحد أن يحاكيه أو ينسج على منواله بحيث أصبحت صياغة الأسلوب العربى تنقسم إلى شعر أو نثر أو قرآن إلا أن قسما كبيراً من القرآن لو أعيدت طريقة كتابته لكان شبيها بما يسمونه "الشعر المنثور" مثال ذلك :

لا أقسم بهذا البلد
وأنت حل بهذا البلد
ووالد وما ولد

لقد خلقنا الإنسان في كبد

أيحسب أن لن يقدر عليه أحد
يقول أهلكت مالا لبدا
أيحسب أن لم يره أحد
ألم نجعل له عينين
ولسانا وشفتين
وهديناه النجدين الخ...

أو ...

والشمس وضحاها
والقمر إذا تلاها
والنهار إذا جلاها
والليل إذا يغشاها
والسماء وما بناها
والأرض وما طحاها
ونفس وما سواها
فألهمها فجورها وتقواها
قد أفلح من زكاها

وقد خاب من دساها الخ...

ولا يقتصر ذلك على الســـور المكية ذات الفقـــرات القصـــار فمن الآيات المدنية ما يمكن كتابتها كالآتى:

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر
واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور
ولا تصعر خدك للناس
ولا تمش في الأرض مرحا
إن الله لا يحب كل مختال فخور
واقصد في مشيك واغضض من صوتك
إن أنكر الأصوات لصوت الحمير

أو ...

في بيوت أذن الله
أن ترفع ويذكر فيها اسمه
يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال
لا تلهيهم تجارة ولا بيع
عن ذكر الله
وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة الخ ...

ونحن فى عرضــنا لهـذه اللفتة إنما نكشف فحسب شـاهدا جديـدا على الحيوية الفذة التى تتمتع بها الصياغة القرآنية وقدرتها على التجـاوب مع الأفهـام والأذواق على اختلافها ..

4. من خصائص الأسلوب القرآنى إهمال التفاصـيل سـواء كـانت فى الأحـداث أو تعلقت بالأمكنة والأعداد والتواريخ لأن ذلك سيجنى على الإيقـاع الموسـيقى ويبتـذل الصـياغة الفنية الـتى هى كالسـبيكة المحكمة وسـيؤدى إلى السـرد البـارد الممـل. وبالإضافة إلى هذه الضرورة الفنية الأسلوبية فـإن هـذا الإغفـال كـان لازما بالنسـبة لكتـاب للنـاس كافة أى من مختلف البلاد ولمختلف العصـور، لأن التفاصـيل لا يمكن أن تكون محل فهم أو حتى اتفـاق لكل النـاس فى كل العصـور فالأصـول والكليـات هى محل العظة وموطن العبرة. ولم يأت القرآن ليزود النـاس بمعلومة أو عـدد من المعلومات الجديـدة أو ليعلمهم التـاريخ والجغرافيا والحسـاب.. ولكن الحكمة فى – أو وراء – هذه العلوم.. وليس من الممكن تعليم الناس قدرا ثابتا جامدا من المعرفة فى هذه الموضوعات فقد يكون هـذا القـدر متقـدما بالنسـبة للقـدامى ومتخلفا عند المحـــدثين، أو لا يمكن فهمه إلا فى ظل درجة معينة من التقـــدم لا يفـــترض بلـــوغ الجميع إياها. كما أن هذا المسلك – أى إغفال التفاصيل – يتفق مع هدف القرآن فى تحقيق التأثير النفسى وذلك بإبراز الفكـرة العامة وتركيزها وإفرادها وعـدم الإثقـال

عليها بالتفاصيل والجزئيات التى تشتت الاهتمام وبذلك تتغلغل العبرة بالفكرة العامة ويتحقق الإيمان وهو هدف الإسلام، كما هو هدف كل الأديان ..

والقرآن فى هذا يختلف عن التوراة[3]. التى تتحدث فى سفر التكوين عن خلق الدنيا فى ستة أيام بالتفصيل وما خلقه الله كل يوم حتى استراح فى اليوم السابع. ثم تتقصى بالتفصيل قصة آدم وغواية الحية لحواء وتتابع أبناء آدم ابنا ابنا حتى بنى إسرائيل فالقرآن يشير إجمالاً إلى هذه الأمور. وهو لا يتحدث عنها فى سورة واحدة أو بضعة سور ولكنه يشير إليها أو يتحدث عن طرف منها فى معظم السور، وعلى كثرة إشاراته إلى آدم فإنه لم يشر أبداً إلى ما ذكره العهد القديم عن خلق الله لحواء من أحد أضلاع آدم عندما كان نائما وحديث الحية لحواء وإغرائها، كما أن تكييف القرآن يختلف عن تكييف التوراة، فالتوراة، تذهب إلى أن الله تعالى حرم على آدم الأكل من شجرة المعرفة ولكن القرآن يصفها بأنها شجرة الخلد وملك لا يبلى فالمخالفة فى التوراة لا تتضمن مأربا ذاتيا أى أن آدم وحواء عندما أكلا من شجرة المعرفة لم يستهدفا نفعا خاصا لهما وإنما أرادا معرفة الخير والشر وهو أمر جدير أن لا يكون موضوع عقاب أو يمثل مخالفة ولكن المخالفة فى القرآن تمثل الذاتية المفرطة التى تستهدف خلودا وملكا لا يبلى، وكذلك تكل التوراة مهمة الغواية إلى الحية وهو أمر لا معنى له ولكن القرآن ينسب هذه المهمة البغيضة إلى إبليس أو الشيطان الذى يظل يمثل الغواية دائما ويقوم بهذه المهمة كما يقوم أتباعه بها من بعده مستخدمين وسائل الغواية من مال أو نساء أو ملك بحيث تكون معركة دائمة بين الخير والشر تبدأ مع آدم وتنتهى بنهاية البشرية .

بل إن واقعة معينة حددها العهد القديم بتفاصيلها باعتبارها أول حادثة قتل فى البشرية وهى كما ذكر العهد القديم – قتل قابيل لهابيل – يشير إليها القرآن إشارة عامة ودون ذكر الأسماء بحيث احتملت أن يفسرها أحد الكتاب على أساس أنها لم تحدث بين هابيل وقابيل ولكن بين اثنين من بنى إسرائيل لأن نص الآية القرآنية يشير إليهما باعتبارهما "ابنى آدم" مما يحتمل العموم على أساس أن البشرية كلها "بنى آدم" وأن القرآن يخاطب الناس – أكثر من مرة – بعبارة "يا بنى آدم" ويستدل الكاتب بالآية التى تتلو إشارة القرآن إلى الواقعة وهى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾. {32 المائدة}.. وقد يكون الكاتب أبعد وأغرب فى اجتهاده.. ولكن الآية لا تتضمن نفيا قاطعا لهذا الرأى .

5. ومن عناصر الإعجاز فى الصياغة القرآنية رنة الثقة والتأكيد واليقين واستخدام أدوات التأثير النفسية التى تتمشى فى أسلوبه

---

[3] **(3) المقصود التوراة المتداولة بين الأيدى الآن والتى تعرضت لتحريف جعلها ما هى عليه خلافا لما كانت عليه عندما أنزلها الله، وهو أمر يقضى به تعدد الترجمات، أن لم تكن المصالح المكتسبة .**

وتجـرى فى محاوراته وتجعل المعــنى يــدخل فى النفس ويتغلغل فى أعماقها سـواء كـانت هـذه الأدوات لغويــة، كـالتكرار، أو موضـوعية .. كالوجاهة والمنطقية فى المحاجـــة، وبهـــذا يقطع الطريق على الشـــبهات ويقضى على الــتردد والتشــكك. وقد ظن بعض اللغــويين أن التكــرار يعيب البلاغة ويخــالف الإيجــاز المــأثور.. وهو جهل بــالنفس البشــرية.. وما يجب أن يتسم به الأسلوب الذى يوجه إليها – وما يصطنعه من أدوات لينفذ إلى قلب القارئ والسـامع من تأكيد قاطع للحقائق ونفى بات للشبهات ورد مقنع على التسـاؤلات ﴿وَضَـرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَــرَّةٍ وَهُــوَ بِكُـلِّ خَلْــقٍ عَلِيمٌ﴾. ﴿وَيَسْـتَنْبِئُونَكَ أَحَــقٌّ هُــوَ قُــلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَــقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلَوْ أَنَّ لِكُـلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَـدَتْ بِـهِ وَأَسَـرُّوا النَّدَامَـةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْـطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُــونَ﴾. ﴿وَقَـالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَـيَقُولُونَ مَنْ يُعِيــدُنَا قُــلْ الَّذِي فَطَـرَكُمْ أَوَّلَ مَــرَّةٍ فَسَيُنْغِضُــونَ إِلَيْـكَ رُءُوسَــهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُـوا لَـهُ وَإِنْ يَسْـلُبْهُمْ الـذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.. ومثل هذا كثير وهو يتسم بـالقوة والتكرار واليقين وترادف الآيات والتأكيد دون أن يخل التكـرار والـترادف بالمسـتوى الفنى والسياق والإيقاع وهو يغرس المعنى المقصود ويعمقه فى النفس شيئاً فشيئا ..

وهذه الثقة هى ما يشير إليه بعض المستشرقين بالصفة "المتعالية" للدين، دون أن يعرفوا أنها تعود أصـلاً إلى الصـياغة القرآنيـة، وأن سـبب ذلك هو سـبب يعـود إلى التأثير النفسى وأن الله تعالى لما كان لابد أن يكون متعاليــاً (وهو أمر لا يؤمنــون به – لأنهم لا يؤمنون أصلاً بالله، أو بإله كالذى قدمه التصور الإسـلامى). فـإنهم رتبـوا عليها ما شاءوا من نتائج .

* * *

6. ولكن هذا كلـه، أعـنى الأسـلوب الإيقـاعى المنغم الـذى يتـوفر له الجــرس الموســيقى والتصــوير الفــنى الــذى يعطى الصــورة كاملة والصـياغة الفنية الـتى تحقق التركـيز باسـتبعادها للتفاصـيل المشـتتة واســتخدام أدوات التأكيد والتكــرار واليقين السـيكلوجية، إنما أريد بها فى النهاية خدمة المعانى. وهنا فى عالم المعــانى نجد إعجــازا لا يقل عن الإعجاز اللغوى ويفضله بأنه ينسـحب على غـير العـرب فيمكن عند الترجمة أن تحتفظ المعــانى بقــدر كبــير من إعجازها يكفى – عنــدما تكـون الترجمة أمينة – لإيمـان المطلع عليها حـتى عنـدما يحـرم تـأثير الإعجاز الأسلوبى واللفظى .

والإعجاز فى المعانى يتضمن شقين.. الشق الأول: أن قسما كبيرا من المعــانى القرآنية يعــالج النفس البشــرية وينفذ إلى ما وراء "خائنة الأعين وما تخفى الصـدور" وتصـور تقلباتها ومشـاعرها كالضـعف أمـام النساء "والقناطير المقنطرة من الـذهب والفضـة" والجـزع أمـام الفاقـة، والبغى عند الغنى والاستخذاء أمام الضـراء والبطر عند السـراء. وقد يشـير إلى الضـعف البشـرى والوقوع فى الأخطـاء والـذنوب فى بعض الحـالات ويفتح بـاب الرجـاء على مصـراعيه وينـادى ﴿قُـلْ يَا عِبَـادِي الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ﴾. ويصـور النفس الإنسـانية عنـدما يزودها الإيمـان بقـوى لا تقهر ولا تضـعف أمـام طغيـان الطـاغين وما يوقعونه بـالمؤمنين من عسفٍ وتعذيب، من تصليب أو تحريق أو استحياء أو تذبيح. ويضـرب الأمثلة بـأفراد من الأمم القديمة "اقضِ ما أنت قـاض. إنما تقضى هـذه الحيـاة الـدنيا" أو من المؤمـنين بـالنبى الـذين عنـدما رأوا الأحـزاب فقـالوا: ﴿هَـذَا مَا وَعَـدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾. ويرسم صورة الجمـاهير المسـتغلة المسـتعبدة المضللة من قياداتها وقد تملكها الندم على سلبيتها أمام قادتها وزعمائها الذين أضلوها السبيلا، ويـذكر أنبـاء الأمم الماضـية وصـراعهم ومصـارعهم وآثـارهم الدارسة من بـئر معطلة وقصر مشيد ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ .

فهـذا القسم من المعـانى القرآنية أقـرب إلى الفنـون وهو يعـرض أدبا إنسـانيا وتصويراً نفسيا يبقى ما بقيت النفس البشرية ويفضل أسمى ما تقدمه الفنون والآداب فى هذا المضمار لأنه يتمـيز عليها بالإيجـاز فى المضـمون والإعجـاز فى الأسـلوب مما يمكن حفظه والاستشهاد به .

ورغم أن الترجمة تذهب بروعتـه، كما هو الشـأن فى ترجمة الأثر الفـنى، فتظل للمعانى قوتها وقد قرأت عن سيدة أوروبية أنها ما أن قرأت ترجمة السـورة 92 حـتى أحست بدموعها تتساقط. وهى سورة الضحى الـتى واسى فيها الله رسـوله بتعبـيرات لمست قلبها .

* * *

أما الشق الثانى من الإعجاز فى المعانى. فإنه يتعلق بالله والكـون والمجتمع وهو فى هذه كلها يعرض معـان لا نجـدها فى غـير القـرآن ولا يستثنى من هذا الكتب السماوية الأخرى أو الروائع الـتى وضـعها الأدبـاء والعلماء والمفكرون والفلاسفة فلا نجد فيها الإحكام والوضوح الذى فى القـــرآن.. أو التماسك العجيب بينها وأنها كلها تبــــدأ من منطلق واحد لتنتهى كلها إلى غاية واحـــدة لأنها كلها ليست إلا شـــواهد لقـــدرة الله وأدلة على إرادته .

وقد استنقذ القرآن مفهوم "الله" من الإقليمية الضيقة التى كانت تحكمه وتجعله رهنا بأقوام معينين يحمل اسما ويتصف بصفة لدى قوم ما غير ما يحمله وما يتصف به لدى قوم آخرين، كما برأه من التجسيم والوثنية التى افتعلها الكهنة والسدنة ليمكنوا لأنفسهم من ورائها، ومن التجريد الذى ذهب إليه الفلاسفة بحيث جعلوا من الله مجرد بلورة للفروض وللقيم والمثل العليا. وبدلا من هذه التصورات المشوهة التى نجدها فى الكتب السماوية المحرفة أو الأفكار التى كانت منتهى ما وصل إليه الفلاسفة يعرض القرآن الصورة التى لا يمكن إلا للوحى أن يأت بها صورة الإله القادر الخالق الرحمن الرحيم الذى لا يقربه تجسيم أو تشبيه.. ويتعالى علوا كبيرا عن تجريد يحرمه الحياة والإرادة لأنه الخلاق لكل ما فى هذا الكون من حياة وإرادة ..

ولما كان العقل البشرى يعجز عن تصور ذات الله وكان أسلوب "المناطقة" والفلاسفة المعقد مما لا يكون متاحا أو سائغا لكل الناس. ولا يريد القرآن – فى الوقت نفسه – أن يخضع الناس لهيمنة كهنة يحتكرون المعرفة الإلهية ويعلمونها للناس فإنه رسم للفرد العادى الطريقة السائغة وفى الوقت نفسه المثلى – للتعرف على الله وذلك بالتفكير فى نعمه وآلائه ومخلوقاته من الشموس والنجوم والبحار والأنهار والحيوان والأشجار "ربنا ما خلقت هذا باطلا" ووجه الأنظار إلى حقيقة أن هذه المخلوقات التى قد تتناهى فى الكبر كالمجرات اللانهائية – كما قد تتناهى فى الصغر كالذرات الدقيقة "أمم أمثالكم" وأنها كلها تسير طبقا لنظام دقيق وغاية محكمة فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون فهذا الكون منضبط قصدى يسير طبقا لقوانين محكمة حتى يأذن الله بنهايته فيسمح لهذه القوانين بالاختلال .

ويعرض القرآن للمجتمع البشرى فيقدم صورة المجتمع الوثنى الذى يقوم على الاستغلال والطغيان وإرهاب الملوك والأحبار والكهنة للشعوب والجماهير واستحواذهم على السلطة والمال الخ... فهذا المجتمع الوثنى هو ما جاء القرآن ليخلص الناس منه وليوجد مجتمعا جديدا يقوم على المساواة والتكافل والشورى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ﴾. ويكون محور هذا المجتمع العدل الذى تحدث عنه كما لم يتحدث عنه كتاب آخر وأوجبه حتى تجاه شنآن العداوة أو أواصر القربى وعمل لتعزيزه فى الحياة الدنيا بما لا يمكن لغيره أن يفعله ألا وهو إيجاد محكمة فى الحياة الآخرة لا تفلت صغيرة ولا كبيرة ولا مثقال ذرة ويشهد فيها على الجانى جلده وأعضاء جسمه نفسها وبذلك يمكن استدراك الانتصاف من أى ظالم يفلت من العقاب فى الحياة الدنيا .

ومن أكبر ظواهر الإعجاز القرآنى التى تجمع بين الإعجاز فى الألفاظ والإعجاز فى المعانى أن اللفظة القرآنية تتقبل عديدا من المعانى بحيث لا تتخلف أبدا عن ركب التقدم فى كل مرحلة من مراحل تطور الفهم الإنسانى أو تتغيب عند ظهور معان جديدة.. وآفاق جديدة لم تظهر من قبل.. ولم يفطن الأولون بالطبع لهذه الظاهرة الفذة والخارقة من ظواهر الإعجاز وإنما يلمسها ويقدرها هذا الجيل الذى تخلفت فيه الكتب السماوية عن مفاهيم العصر بحيث أصبحت تراثا لا يعتد به إلا بالنسبة للوقت

الذى نزلت فيه أو المجتمع الذى نزلت له حاشا القرآن الذى تقدم فيه اللفظة القرآنية معانى جديدة تتطـابق مع مفـاهيم العصـر. كما سـتتطابق مع ما سـيأتى من العصـور.. فإذا قال قائل وكيف يتفق هذا قلنا إنه الإعجاز القرآنى المـنزل من لـدن علام الغيـوب وإذا كنا نفهم اليوم من القرآن ما عجز عن فهمه الأولون. فما الــذى يمنع أن يفهم من يأتى بعدنا معان عجزنا نحن عن فهمها ؟ .

وهكذا نجد أن الإعجاز القرآنى يتضمن شـقين.. الأول: الصـياغة وما يتفـرع منها من أسـلوب وإيقــاع. والثــانى: المعــانى والتوجيهــات. وأن كل شق منها له تفريعاته الخاصة ولكن الاقتصار على الإعجاز اللغوى الذى استأثر بمعظم اهتمـام الـذين يعنـون بإعجاز القرآن يهمل إعجاز المعانى وهو الهـدف والغاية من الإعجـاز اللغـوى فضلا عن أن الإعجــاز اللغــوى بأســره يمكن أن يفقد أثــره نتيجة عــدم المعرفة باللغة العربية فترجمة القرآن تذهب قطعا بإعجـازه اللغـوى الـذى لا يمكن أبـدا أن يـترجم، ولكنها لا تذهب المعـانى وروعة هـذه المعـانى وأعجازها تـدفع كل المنصـفين للإيمـان به إن لم يكن الإيمان بالمعنى الاصطلاحى فبـالاعتراف بعظمته وقوتـه. وقد أورد القـرآن أفضل إيراد قيمة التوحيد "الذى جاءت به اليهودية وأنقذه من أن يكون هــذا التوحيد "ملاكى" لليهود خاصة دون الناس كما تحـدث عن الرحمـة، ووصف نفسه بـالرحمن الـرحيم بما يماثل حـديث المسـيحية عن قيمتها البـارزة "المحببـة" ورفع عاليا الحرية فى العقيـدة والعدل فى العمل .

* * *

إن تضــافر الإعجــاز اللغــوى بالإعجــاز فى المعــانى واتســاقهما وتفاعلهما جعلا القرآن معجزة لا يمكن جحدها أو المراء فيها وجعلا الكتـاب والفنـانين أسـرى الإعجـاز القرآنى بـدءا من المشـرك الـذى سـمعه من فم محمد فقـال "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة الخ..." حـتى الشـاعر الفلسـطينى المولد الشـيوعى المـذهب محمـود درويش الذى قال فى حديث له مع مندوب مجلة الحزب الشيوعى الفرنسى "فرانس نوفيه" :

"علاقتى بالإسلام كشاعر هى علاقة لغوية فقـط. القـرآن هو أكـبر إنجـاز لغـوى حققه العـرب إن ديالكتيك الكلمـات فى ما بينها فى القـرآن هو شـىء ثـورى بحد ذاته وكذلك إيقاع هذا النص.. الإيقاع العميق الذى به يقرأ النص وعلاقة الصور بالكلمة"[4] .

وعندما سئل الكاتب والصحفى الكبير إحسـان عبد القـدوس عن المـؤثرات فى تكوينه رد :

"القـرآن.. أقولها بكل اعـتزاز وأنا مـؤمن بـأن الأديب الـذى يكتب بالعربية لكى يسـتقيم له جمــال العبــارة وموسـيقى الجملة يجب أن يوثق صـلته بــالقرآن قــراءة ودراسة. وهـذا ما يحـدث لى بالفعل فقد قـرأت القـرآن عشـرات المـرات وقد بـدأت بحكم نشأتى مع جدى العالم الأزهرى – اقرأه من باب التـدين وأذكر أنى أصـبت بحالة نفسية وأنا فى السابعة عشر من عمرى ألزمتنى الفـراش فـترة طويلة وتخلصت منها

---

[4] **(4) جريدة البيان المغربية 23- 24/12/1979 ص7 .**

بقراءة القرآن ثلاث مرات متوالية كعلاج نفسى ثم بدأت بعد ذلك أقـرأ القـرآن قـراءة الدراسة والتذوق لجمال عبارته والإحساس بموسيقاه التى لا تدانيها موسيقى"[5] .

وبعد بضع سنوات من نشره هذا الـرأى كـرره فى مقاله بجريـدة الأهـرام الـذى كان ينشر تحت عنوان "أمس.. اليوم.. وغدا" فقال :

"وأنا مـؤمن بأنه لا يمكن أن يصل القلم إلى أسـلوب له رنينه وله جاذبيته إلا إذا كان الكاتب قد قرأ القرآن وتـأثر بنغمـات أسـلوبه. إن أسـلوب القـرآن هو الموسـيقى الأساسية للغة العربية"[6] .

وهـذا أمين الخـولى يتحـدث عن القـرآن باعتبـاره "كتـاب العربية الأكـبر وأثرها الأدبى الأعظم، فهو الكتــاب الــذى أخلد العربية وبــنى كيانها وخلد معها فصــار فخرها وزينة تراثهــا. وتلك صــفة القـرآن يعرفها العـربى مهما يختلف به الـدين أو يفـترق به الهوى، ما دام شاعرا بعربيته مدركا أن العروبة أصله فى النـاس وجنسه بين الأجنـاس وسـواء بعد ذلك أكـان العـربى مسـيحيا أو وثنيا أم كـان طبيعيا دهريا لا دينيا أم كـان المسـلم المتحنف – فإنه سـيعرف بعروبته منزلة هـذا الكتـاب فى العربية ومكانته فى اللغة دون أن يقوم ذلك على شىء من الإيمان بصـفة دينية للكتـاب أو تصـديق خـاص بعقيدة فيه" .

أما طه حسـين فإنه يتحـدث عن أثر القــرآن فى تقـويم الألسـنة العربية [حين تلتوى باللهجات العامية المختلفة فالذين يحفظون القـرآن فى الصـبا ويكـثرون قراءته ويجودونها أصح الناس نطقا بالعربية وأقلهم تخليطا فيها.. ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون القـراءة والكتابة بحفظ القـرآن كله أو بعضــه.. والقـرآن بعد هـذا كله هو الـذى حفظ اللغة العربية أن تـذوب فى اللغـات الأجنبية الــتى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة فى عصــور كثــيرة وظــروف مختلفة.. عصم القرآن هذه اللغة من الضياع وحال بين ا
فيها..] .

كما نقل من حديث طه حسين عن إعجاز القرآن قوله :

والقـــرآن كله من عند الله وهو وحـــدة فى روحه وإعجـــازه مهما يختلف تنزيل سورة ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها، فللقـرآن وحدته من حيث أنه يـدعو دائما إلى أصـول معينـة: إلى توحيد الله ونبذ الشـرك على اختلاف صـوره والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به القرآن والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد وما أنزل عليهم من الكتب والإيمان بالبعث وبالحياة الأخرى بعد هذه الحياة الأولى وما يكـون فيها من ثـواب ونعيم. ومن عـذاب وجحيم. ثم هو يـأمر النـاس بـأن يقيمـــوا حيـــاتهم فيما بينهم وبين نفوســـهم بحيث يـــبرأون من الرذائل كلها كبارها وصـغارها.. والمهم أن يلائم الإنسـان بين إيمانه بالله الواحد القـوى العـالم بكل شـىء القادر على كل شىء وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسـيئين أن يلائم بين إيمانه الصـــادق بهـــذا كله وبين ما يخفى وما يظهر من ذات نفسه وما يـــأتى من

---

[5] **(5) مجلة الجديد – العدد 26 – 1/2/73 ص6 .**

[6] **(6) الأهرام: ذكريات فى كلمة وداع "أمس واليوم وغدا" 27/1/77 .**

الأعمـال وما يـدع منهـا. ومن أجل هـذا يشـرع الله للنـاس فى القـرآن من الأحكـام والأصـول ما بين لهم السـبيل إلى هـذه الملاءمة ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيمـوا حياتهم على السلام بينهم وبين الله ما عاشوا فى هذه الدنيا .

والنفس المطمئنة التى ذكرها الله فى سورة "الفجـر" ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضية وإلى أن تـدخل فى عبـاده وتـدخل جنته إنما هى هـذه النفس الـتى صدقت فى إيمانها بالله ورسـله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هـذا الإيمـان واطمـأنت إليه فعاشت فى سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حربا ظاهرة أو باطنة] .

بل إن أكبر المغنيات العربيات قاطبة – السيدة أم كلثوم – كانت تكرر أن أعظم توفيق وفقته فى حياتها هو أن حَمَلَهَاَ والدها على حفظ القرآن الكريم فى الصغر .

فهؤلاء جميعا أخذوا بروعة النظم وسمو المعانى فى القرآن، ويمكن القول دون مبالغة أن الإعجاز القرآنى كان هو باب هؤلاء الفنانين والأدبـاء إلى الإسـلام، وأنه كـان الحبل الذى يربطهم بالإسلام مهما أخذتهم بعيدا عنه الملابسات والدواعى والظـروف. وقد كـان الشـهيد سـيد قطب هو الابن البكر للعقـاد وتصـدى لمهاجمة محمد سـعيد العريان الذى كان يدافع عن الداعية الإسـلامى مصـطفى صـادق الـرافعى ولم يكن له علاقة خاصة بالإسلام. ولكن "التصـوير الفـنى" و"مشـاهد القيامة فى القـرآن" جـذبت سيد قطب إلى القرآن وما إن عاش فيه حـتى كتب "العدالة الاجتماعيـة" ومن العدالة الاجتماعية إلى النظريات السياسية التى جعلت منه داعية ثم شهيدا إسلاميا .

أما الذين حرموا لذة تذوق الإعجاز اللغوى ممن لا يعـرف العربية فقد لا يفـوتهم تــذوق الإيقــاع الموســيقى للنظم القــرآني وأن يســتمعوا إليه كما يســتمعون إلى "سـيمفونية" وسـيجدون فى المعـانى الـتى أبرزها القـرآن والـتى يمكن أن تـترجم ما يعينهم على فهمه والإيمــان به ولكن من المؤسف أن المســلمين لم يعنــوا بترجمة المعانى ترجمة سليمة ولم يهتموا بتوصـيلها إلى أوربا وأمريكا وغيرها من الـدول الـتى تجهل الإسـلام. ولو تم هـذا الحـدث لامتد الإسـلام فى هـذه الـدول الـتى تعـانى من التعقيدات اللاهوتية من ناحية ومن الملل المادى من ناحية أخرى .

وأخـيراً.. فعنـدما نتحـدث عن القـرآن كمعجـزة الإسـلام ونتقصى عناصر هذا الإعجاز وشواهده يجب أن لا ننسى أن القـرآن هو الـذى وحد العرب وأنه هو الذى أعطاهم الكتاب والميزان "ليقوم النـاس بالقسـط" ثم جعلهم شهداء على الناس فانطلق العرب حاملين هذه الرسالة داعين إلى حضارة جديدة فقضـوا على الإمبراطوريـات الـتى قـامت على القهر والـرق والطبقية والوثنية والطغيـان واحلـوا محلها مجتمعـات إنسـانية تقــوم على المســاواة وتجعل النــاس جميعا كأســنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ويبدع من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية ما لم تبلغه حـتى الآن أرقى النظم كما تشـهد بـذلك مقارنة توجيهات الرسول والخلفاء الراشدين للولاة والقادة فى الحرب والسـلم بما تتضمنه الدساتير والنظم الحديثة[7] .

وعنـدما تسـللت عوامل الضـعف والتحلل إلى هـذه المجتمعـات لم يفقد القـرآن دوره المعجز لأنه عنـدما عـدت عـوادى التحلل والانقسـام وخضع العـالم الإسـلامى للاسـتعمار البريطـانى والفرنسى والهولنـدى

---

[7] **(7) لا ينفى هذا أن توجيهـات الإسـلام لم تطبق بصـفة كاملة إلا فـترات محـدودة كفترة الحكم النبوى والخلافة الراشـدة، أما ما بعـدها فقد تغلبت قـوى السـلطة، وليس الــذنب فى هــذا هو ذنب الإســلام، ولكنه نتيجة لعــدد كبــير من العوامل والضرورات .**

والبلجيكى والبرتغـالى وما رسـمته هـذه النظم الاسـتعمارية من تمزيق العالم الإسلامى وصبغ كل منطقة بصبغة الدولة المستعمرة ظل القرآن الرباط الوحيد الذى يربط هذه الأشلاء ويحفظ لها الروح والحياة ويحـول دون أن تنفصل عن بعض كلية – وقـدم اللغة القياسـية والموحـدة الـتى تتكلم بها هـذه الشـعوب أو على الأقل تلم بطـرف منها وتـأنس إليهـا.. فكان القرآن فى الحالين قوة الانطلاق وقوة الحفاظ .

أفلا يعد ذلك معجزة من معجزات القـرآن نلمسـها فى الحاضر وتثبتها لنا وقائع التاريخ فى الماضى ..

(3)

سر إعجاز القرآن

كـان الكشف عن سر إعجـاز القـرآن هو الأمل الطمـوح الـذى تملك عـدداً من الكتاب القدامى والمحدثين. فقد فوجئ الجميع بصياغة جديـدة كل الجـدة. مختلفة كل الاختلاف فى الأسـلوب وفى نحت الكلمـات وفى وصـلها بعضـها ببعض واسـتخدام تعبـيرات ومعـانٍ كلها لم تكن مألوفة فكـدّوا الأذهـان فى التوصل إلى سر الإعجـاز ويمكن القول أنهم أبدعوا علماً جديداً بعد علم النحو هو "البلاغة" وقسـموها إلى ثلاثة علوم علم البيان ويضم التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية بتفصـيلات عديـدة.. وعلم المعانى وفيه تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء وأضـرب الخـبر وأقسـام الإنشـاء إلى أمر ونهى واسـتفهام وتمن الخ... والقصر والفصل والإيجـاز والإطنـاب وأخـيراً علم البـديع وفيه المحسنات اللفظية والجناس والاقتبـاس والمحسـنات المعنوية من تورية وطبـاق ومقابلة الخ... ومع أن هذه الأفانيين كانت موجـودة فى الشـعر العـربى. إلا أن ذلك لم يدفع همة العلماء لإبـداع هـذا العلم وإنما دفعهم إلى هـذا القـرآن لأنه القمة فيها ولأنه أصبح "ديوان العرب" بدلاً من الشعر واستأثر بالصدارة دونه .

وكان أول من كتب عن هذا الموضوع أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسـطى فى كتابه "إعجـاز القـرآن" ثم وضع أبو عيسى الرمـانى المتـوفى فى سـنة 382 كتابه الإعجـاز وجـاء القاضى أبو بكر البـاقلانى المتـوفى سـنة 304 فوضع كتابه المشـهور "إعجاز القرآن" الذى أجمع المتأخرون من بعده على أنه (باب فى الإعجاز على حدة). حـتى جـاء عبد القـاهر الجرجـانى المتـوفى فى سـنة 474 فوضع كتابه دلائل الإعجـاز وأسرار البلاغة وممن ألفوا فى الإعجاز أيضاً فخر الـدين الـرازى واسـتخرج منها كتابه فى إعجاز القرآن. ثم الأديب ابن أبى إصبع المتوفى سنة 654 فقد صنف كتـاب بـدائع القرآن أورد فيه نحو مائة نـوع من معـانى البلاغة ثم ابن القيم الجوزية المتـوفى سـنة 751. وعندما وضع الزمخشرى تفسـيره الكشـاف عـنى فيه بنـواحى البلاغة والإعجـاز وقد رأينا فى كشف الظنون أن شرف الدين الحسن بن محمد الطيـبى المتـوفى سـنة

743 وضع عليه شـرحاً فى ست مجلـدات ضـخمة أكـثر فيها من إيـراد النكت البيانية وكانت أكثر ما جاء به"[8] .

وعـنى هـؤلاء الكتـاب بـإبراز الإعجـاز اللغـوى والأسـلوبى الـذى أشـرنا إليه فى مستهل هذه الفقرة. ولما كانوا علماء لغة فقد رأوا الإعجاز كل الإعجاز هو أن تضم آية مثل ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَـاءُ وَقُضِـيَ الأَمْـرُ وَاسْـتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. واحـداً وعشـرين ضـرباً من البـديع مع أنها سبع عشرة كلمة. وأن فى آية ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَـةٍ﴾. أربعة عشر نوعاً من البلاغة هى الإيجاز والترشـيح والإرداف والتمثيل والمقارنة والاسـتدراك والإدباج والإيضاح والتهذيب والتعليل والتنكيت والمساواة وحسن النسق وحسن البيـان . !

ولا جدال أن الأمر كذلك بالنسبة للغويين ولكن القرآن لم ينزل ليحمل اللغـويين على الإيمان به بحكم إعجازه اللغوى، ولا يعنى القـارئ العـادى هـذا التفنن فى القـول ولا يؤثر فيه، ولا يلمس وجدانه. أو يشعره "نبض القرآن" .

وقد اعـترف كـاتب إسـلامى محنك هو الأسـتاذ محمـود محمد شـاكر "أن الـذين بحثوا عن جانب البيان لم يصلوا إلى شـىء، لا البـاقلانى ولا عبد القـادر الجرجـانى ولا من لف لفهما من الأئمة والباحثين كل هـؤلاء قـاربوا ولم يمسـوا حـاولوا ولم يحققـوا. وإنما تشـاغلوا بـأمور أخـرى لا تتصل بالبيـان"[9]. فـإذا كنا ننتقد هـؤلاء الأسـلاف فـإن المعاصرين بما فيهم الشيخ شاكر نفسه لم يـأتوا بما يفضل ما جـاء به الأسـلاف لأنهم ركزوا أيضاً على الجانب البيانى/ اللغوى. فى حين أن هذا جانب من الجـوانب. وفكـرة أن القـرآن نـزل بلغة العـرب وبالتـالى تـأثر باللغة العربية وأثر فيها – هو مما لا يجـوز المبالغة فيه لأن القرآن وإن كان قد نزل بلغة العرب واستهدف التأثير أولاً على هؤلاء العرب فإن هذا لم يكن إلا بداية لهدف كبير أراده الله هو هداية البشرية كلهـا، والـذين يعلمون العربية فيها قلة. كما أن القرآن لم يتأثر بلغة العرب قدر ما أبـدع لغته الخاصة بل واستعار من اللغات الأخرى عديداً من الألفاظ والتعبيرات. والجانب البيانى/ اللغوى على أهميته ليس أهم جوانب إعجاز القرآن ولا يقدره – كما قدمه الباقلانى والجرجانى إلا المتضلعون فى اللغـة. وهـؤلاء ليسـوا بحاجة إليه ليعلمـوا الإعجـاز اللغـوى/ البيـانى للقـرآن. وفى الحقيقة فـإن كل ما قـاموا به هو وضع أسـماء لوجـوه الإعجـاز اللغـوى عندما ابتدعوا علم البلاغة كما أشرنا فى مستهل هذه الفقرة .

وكان من أكـبر أسـباب عجز الكتـاب القـدامى عن الاهتـداء إلى سر الإعجاز عدم ربطهم ما بين الصياغة القرآنية والرسـالة الـتى اسـتهدفها القرآن والـتى من أجلها نـزل وهى هداية النـاس وما يعنيه هـذا من خلق

---

[8] **(1) تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى – الجـزء الثـانى ص148-153 .**

[9] **(9) أنظر بحثاً ألقاه الدكتور عبد الصبور شاهين فى جامعة قطر، ونشـرته مجلة الأمة فى عدد شوال 1405 ص64 .**

النفس البشرية خلقاً إيمانياً جديداً. إذ هناك ارتباط قوى ما بين الوسيلة والغاية. وهو ما جعلناه مفتاحاً من أهم مفاتيح الخطاب القــرآنى وإدراك إعجازه

ومع أن المحـدثين كـانوا أسـعد حظـاً وتـوفر لهم ما لم يتـوفر لأسـلافهم. فـإن نصيبهم من الإبداع فى مجال الإعجاز كان كنصيب إخوانهم فى مجال التفسير محدوداً، فقد خصص الأسـتاذ مصـطفى صـادق الـرافعى الجـزء الثـانى من كتـاب "آداب اللغة العربية" لإعجاز القرآن وحام حول مجالات جديـدة غـير المحـاولات البلاغية المعهـودة، ودعاً الشـيخ أمين الخـولى إلى تفسـير يستشف البلاغة النفسـية المـؤثرة فى القـرآن وقـام ببداية فى هـذا الصـدد. ولكنه تصـور أن التفسـير السـليم هو أن يفسر القـرآن تفسيراً موضـوعياً أى حسب الموضـوعات وليس حسب السـور وللاقـتراح جـانب من الوجاهة وداع يدعو إليه ولكنه قد لا يغنى عن تفسير السور سورة، سورة، وليس آيــة، آية لأن السورة القرآنية سبيكة ولا يكـون فى اختلاف موضـوعاتها "فوضـى" كما يـذكر المستشرقون الذين يعاملون القرآن كما لو كان كتاباً من الكتب ويغفلون عن دور كل آية فى التـأثير النفسى وأن هـذا التفسـير لا يحـدث إلا بحشد وتوظيف الموضـوعات المختلفة ليتحقق هذا الدور[10].

وكتب الأسـتاذ الـدكتور محمد عبد الله دراز "النبأ العظيم" عن بعض خصــائص القرآن مثل "البيـان والإجمـال" وهما فى رأى الـدكتور دراز عجيبة خارقة من عجـائب التعبـير إذ أن النـاس إذا عمـدوا إلى تحديد أغراضـهم لم تتسع إلى تأويل وإذا أجملوها ذهبــوا إلى الإبهــام أو الإلبــاس أو إلى اللغو الــذى لا يفيد ولا يكــاد يجتمع لهم هــذان الطرفان فى كلام واحد. ولكنك تقرأ الآية من القــرآن فتجد فى ألفاظها من الشـفوف والملاءمة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسـابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث كأنك لا تسمع كلاماً ولغـات بل تـرى صـوراً وحقـائق ماثلة وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ووقفت على معناه محدوداً، ولو رجعت إليه مـرة حـتى تـرى للجملة الواحـدة أو الكلمة الواحـدة وجوهـاً عـده كلها صـحيح أو محتمل الصحة كأنما هى فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً فإذا نظـرت إلى أضـلاعه جملة بهرتك بـألوان الطيف كلها فلا تـدرى مـاذا تأخذ عينيك وتـدع.. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غـيرك رأى منها أكـثر مما رأيت، وهكـذا تجد كتابـاً مفتوحـاً مع الزمــان يأخذ كل منه ما يُسر لــه، بل تـرى محيطـاً مـترامى الأطـراف فى الأصـول والفــروع. وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسـائلها فى القـديم والحـديث وهو على لينه للعقـول والإفهـام صـلب مـتين لا يتنـاقض ولا يتبـدل يحتج به كل فريق لرأيه ويدعيه لنفسه وهو فى سمّوه فوق الجميع يطل على معاركهم حوله وكأن لسـان حاله يقول لهؤلاء "قل كلَّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً" .

---

10 **(10) انظر لمزيد من شرح هذه النقطة الفصل الرابع .**

ومن الخصائص القرآنية التى بسطها الدكتور (إقناع العقل وإمتاع العاطفـة) فقد تحدث عنهما حين قال "لقد عرفنا كلام العلماء الحكماء وعرفنا كلام الأدبـاء والشـعراء فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوا فى جانب وقصوراً فى جانب آخر، فأما الحكمـاء فإنما يـؤدون إليك ثمـار عقـولهم غـذاء لعقلك ولا تتوجه نفوسـهم إلى اسـتهواء نفسك واختلاف عاطفتك فـتراهم حين يقـدمون إليك حقـائق العلـوم لا يـأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبوعن الطباع أما الشعراء فإنما يسعون إلى اسـتثارة وجـدانك وتحريك أوتار الشعور من نفسك فلا يبالون بما صوروه لك أن يكـون غيـاً أو رشـداً وأن يكـون حقيقة أو تمثيلاً فتراهم جادين وهم هازلون يستبكون وإن كانوا لا يبكون ويُطِرِبون وإن كانوا لا يطربون ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ﴾. الآية وكل امرئ حين يفكر فهو فيلســوف صغير ولكل امـرئ حين يحس فإنما هو شـاعر صـغير فهل رأيتم أحـداً تتكافأ فيه قـوة التفكير وقوة الوجـدان وسـائر القـوى النفسـية على سـواء. وإذا كـانت الإجابة بـالنفى فكيف تطمع من إنسان فى أن يهب لك الطلبين معـاً وهو لم يجمعهما فى نفسه على سواء. وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتـبين به كل لسـان وحكم أى القـوتين كـان خاضـعاً لها حين قــال وكيــف..؟ فــإذا رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت هذا ثمرة الفكرة وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تغييرها وقبضها وبســطها واسـتثارة كـوامن لـذاتها وإلمهـا. قلت هـذا ثمـرة العاطفة وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعدما قضى وطراً من سابقه كما ينتقل من غــرض إلى غرض عـرفت بـذلك تعـاقب التفكـير والشـعور على نفسه وأما أن أسـلوباً واحـداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع فى يديك هـذين الطـرفين معـاً كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أثماراً وأوراقاً وأزهاراً معاً أو كما تسرى الـروح فى الجسد والمـاء فى العـود الأخضر فذلك ما لا تظفر به فى كلام بشر ولا هو من سـنن الله فى النفس الإنسـانية. فمن لك إذن بهـذا الكلام الـذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصـارمة بما يرضى حـتى أولئك الفلاســـفة المتعمقين ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حـــتى هـــؤلاء الشعراء المرحين..!! "..ذلك لله رب العالمين.." فهذا الذى لا يشـغله شـأن عن شـأن وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمـال معـاً يلتقيان فلا يبغيـان، وأن يخـرج من بينهما شـراباً خالصـاً سـائغاً للشـاربين وهـذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت. ألا تراه فى نسـجه قصصه وأخبـاره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة أَوَ لا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير يبث ذلك فى مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾. "تلك آيـات الله سبحانه وأنه لقول فصل" .

وثالثة هـذه الخصـائص لـدى الـدكتور دراز هى ما حصـره البـاحث فى (خطـاب العامة والخاصة) إذ هذان الخطابـان يمثلان غـايتين أخـريين متباعـدتين عند النـاس. لو أنك خـاطبت الأذكيـاء بالواضح المكشـوف الـذى تخـاطب به الأغبيـاء لـنزلت بهم إلى مستوى لا يرضـونه لأنفسـهم فى الخطـاب ولو أنك خـاطبت العامة باللمحة والإشـارة

التى تخـاطب بها الأذكيـاء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقـولهم فلا غـنى لك أن أردت أن تعطى كلتا الطـائفتين حظها كـاملاً من بيانك أن تخـاطب كل واحـدة منها بغـير ما تخـاطب به الأخـرى كما تخـاطب الأطفـال بغـير ما تخـاطب به الرجـال فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والملـوك فيراها كل منهم مقَّدرة على قيـاس عقله وعلى وفق حاجته فـذلك ما لا تجـده على أتمه إلا فى القرآن الكريم فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ويـراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهـامهم ولا يحتـاجون فيه إلى ترجمـان وراء وضع اللغة فهو متعة الخاصة والعامة على الســواء ميسر لكـــلٍ ما أراده ﴿وَلَقَــدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ .

كما أفاض الدكتور فى خاصية رابعة هى القصد فى اللفظ والوفـاء بحق المعـنى فأتى فى تحليلها بما عهد عنه من قوة وبراعة وإتقـان كما ملأ كتابه بالاستشـهاد الرائع على ما يقول بحيث أصبح "النبأ العظيم" دراسة طريفة مبتكرة ذات مكانة رفيعة بحق فى مكتبة القرآن .

ولعل العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى قد وفق فى إيضاح "سر" إعجاز القرآن فيما كتبه بالجزء السابع من دائرة المعارف فى القـرن العشـرين فقـال إن المتكلمين عن إعجاز القـرآن قد حصـروا كل عنـايتهم فى الناحية البلاغية ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة إلا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لإعجازه بل ولا هى أكثر جهـات الإعجـاز تسـلطاً على النفس فـإن للبلاغة على الشـعور الإنسـانى تسـلطاً محـدوداً لا يتعـدى حد الإعجـاب بـالكلام والإقبـال عليه ثم يأخذ هـذا الإعجـاب والإقبال يضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سـماعه حـتى تسـتأنس به النفس فلا يعـود يحـدث فيها ما كان يحدث فى مبدأ وروده عليها وليس هذا شأن القرآن فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً فـوجب على النـاظر فى ذلك أن يبحث عن وجه إعجـازه فى مجـال آخر "ثم قال" **إن العلة فى نظرنا لا تحتاج إلى كثـير تأمل وهى أن القـرآن روح من أمر الله تعالى فهو يؤثر بهذا الاعتبار تـأثير الـروح فى الأجسـاد فيحركها ويتسلط على أهوائها وأما تـأثير الكلام فى الشـعور فلا يتعـدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها.** وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾. يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن وقصور الإنس والجن عن الإتيـان بمثله وبقائه إلى اليـوم معجـزة خالـدة تتلألأ فى نورها الإلهى وتتـألق فى جمالها الفذ، فلا جرم كـانت له روحانية خاصة هى عنـدنا جهة إعجـازه والسـبب الأكـبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره وارتعاد فرائص الصـناديد والجبابرة عند سماعه وناهيك بروحانية الكلام الإلهى" .

إلى أن قـال "ولا مشـاحة فى أن القـرآن فصـيح قد أخـرس بفصـاحته فرسـان الخطابة وقادة البلاغة، وهو حكيم بهر الفلاسفة، وهو حق ألـزم كل ضـال الحجـة، وهو هـدى وشـفاء لما فى الصـدور.. وكل هــذه صــفات جليلة تــؤثر فى العقل والشـعور والعواطف والميـــول فتتحكم فيها تحكم المالك فى ملكه ولكنه فـــوق ذلك **روح من أمر الله تصل من روح الإنســـــان إلى حيث لا تصل إليه أشـــــعة البلاغة والبيان ولا سيالات الحكمة والعرفان من صميم معناه إلى حيث لا يحــوم حوله فكر ولا خاطر ولا يتخيله خيال شاعر"**[11] .

---

11 **(11) الفقرات الخاصة بكتاب الدكتور محمد عبد الله دراز وكذلك الفقـرة الخاصة بالأستاذ فريد وجدى منقولة من كتاب الدكتور محمد رجب بيومى البيان القـرانى من ص253 إلى ص258 .**

وعقب الدكتور محمد رجب الـبيومى على كلام الأسـتاذ فريد وجـدى فقـال "لقد جعل الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى روحانية القرآن سر إعجازه رداً بذلك على من يجعلون إعجاز القرآن فى بلاغته ونظمه وفصاحة أسلوبه، ومتعللاً بـأن الأسـلوب البليغ يفقد أثره القوى متى اتصلت تلاوته حـتى يصـبح فى نظر قارئه المتعهد شـيئاً غـير ذى جدة..!! ولا كذلك القرآن فإن أثره النفسى يتجـدد باتصـال قراءته مهما كـثرت تلاوتـه. نحن نتسـاءل فى الـرد على ذلك أيمكن أن تظهر روحانية القـرآن دون أسـلوب بليغ يحملها الناس؟ فيستحيل علينا بداهة أن نتصور هذا الظهـور دون كلام يقـال؟ وإذا ثبت أن الأسلوب القـرآنى هو موضع هـذه الروحانية النافـذة فقد صـارت الشـقة قريبة بين من يقولون بالإعجاز البلاغى وبين الأستاذ الكبير إن لم تكن هنـاك شـقة على الإطلاق! وإذا كانت بلاغة البشر تفقد تأثيرها باستمرار التلاوة دون بلاغة القـرآن فلأن الأسـلوب القـرآنى يحمل من وسـائل إعجـازه ما يرتفع به عن بلاغة البشر وعلينا أن نبحث عن ذلك فى مطاوى نظمه وطريقة تعبيره وتصـويره. وكـون القـرآن روحـاً من أمر الله لا يحصر إعجازه البيانى فى معنى كُلَّى كما يريد الأستاذ بل يدفع الدارس إلى استشفاف هذه الروح فيما يتراءى من قـوة أسـره ودقة تدليله وبلاغة تصـويره مما يسـيطر على النفوس سيطرة تدفع على الإذعان المؤمن والاستسلام البصير ولعل الأستاذ وجـدى لا يريد أن يحصر الإعجاز القرآنى فى بلاغته التعبيرية موافقة لمن يرى أن حصر الإعجـاز فى البلاغة التركيبية يدفعنا لطول النظر إلى اكتنـاف أسـراره والوقـوف على دقائقـه. ومتى عرفت هذه الإسرار وجليّت تلك الدقائق أمكنت محاكاته وسـهلت معارضـته فلم يبق وجه لإعجازه وهذا كلام برّاق فى ظاهره ولكنه لـدى التـدقيق لا ينهض على سـاق لأن إدراك السر البلاغى فى قـول معجز لا يجعل المـدرك قـادراً على الإتيـان بمثل ما أدرك سّـره وجلا حقيقة وجهـه. والمسـألة أوضح من أن يسـتدل عليها لأنا نـرى الناقد الأدبى يـدرك أسـرار القصـيدة الرائعة بيتا بيتـاً وكلمة كلمة ثم لا يسـتطيع بعد ذلك أن يـأتى بمثلها لأنه غـير شـاعر بطبيعته فلو كـان الولـوج إلى أسـرار الجمـال فى البيـان الأدبى داعيـاً إلى محاكاته لكـان الناقد الكبـير شـاعراً كبـيراً أو قصّاصـاً شـهيراً ولكن التذوق النقدى شىء وملكة الإبداع الفـنى شـىء سـواه... فليكن القـرآن ذا روح قوية غالبة ولكن هذه الروح تستكن فى كلمات وآيات وسور هى موضع الإعجاز .

وما ذكـره الـدكتور محمد رجب الـبيومى لا ينفى ما قاله الأسـتاذ محمد فريد وجدى الذى تحدث عن "سرّ الإعجـاز وأعـاده إلى أن القـرآن روح من أمر الله أو أنه كلمة منه إذ لابد أن يتضـمن قبسـاً من الخلق والإبـداع والأصـالة الـتى تستعصى على الناس. أما المفردات التى يتبدى فيها هذا الإعجاز فهو ما حاول إيضاحه الكُتّـاب الـذين تحدثوا عن الإعجاز. ولكن المفردات لا تغنى عن "الروح" فكون القرآن من الله تعـالى هو بمثابة الروح من الجسم وهو سر الإعجاز أما مفرداته فهى بمثابة أعضاء الجسم .

ونحن نـؤمن بهـذا، وبـأن سر الإعجـاز هو تلك النفثة الإلهية الـتى تجعل القـرآن وثيقة فريدة سامية إلهية.. ومن حق العرب الذين صدر القرآن بلغتهم وجعلهم يملكون هذه الذخيرة – هذه المعجزة – الفريدة أن يفخروا وان يحمدوا الله على هذه المنة .

ويقـدم بعض الكتـاب المعاصـرين مـداخل إلى سر إعجـاز القـرآن تختلف عن مداخل الكتاب القدامى الذين عنوا بـالجوانب البيانية والبلاغيـة، فهم يلمسـون جـوانب أخرى، وسنقدم صورتين منها الأولى: من كاتب معروف هو الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود والأخرى من قسيس أمريكى كان يقـرأ القـرآن ليتصـيد بعض أخطـاء تعينه فى التبشير بالمسيحية والتنديد بالإسلام!! فحوله القرآن إلى مسلم.. يدعو إلى الإسلام! .

ولم يعرف للدكتور زكى نجيب محمـود سـابقة للإسـلام باعتبـاره المنظر الأكـبر للوضعية المنطقية، ولكنه يعرض هنا صورة لتأثير إحدى سور القرآن عليه طفلاً فشاباً فكهلاً .

والكلمة تحت عنوان "الناقة والجمل" وها هى بنصها ..

كـانت السـور القصـار هى أول ما التقى بسـمعى من القـرآن الكـريم، وأقـول "سمعى" ولا أقول "عقلى"، إذ كيف كان لصبى فى الخامسة أن يـدرك ما احتـوى عليه اللفظ القرآنى المعجز من معان اقتضته بعد ذلك عمراً طويلاً ملأه بالـدرس والتأمـل، ليفهمها الفهم الصحيح. أو ما ظنه الفهم الصـحيح، لكن صـبى الخامسة – مع ذلك – قد ارهف أذنيه للنغم، فما زلت أذكر – بعد هذه الأعوام الطـوال – كيف كـان ذلك الصـبى المفتون بما سمع وبما حفظ، يترنم لنفسه بآيات خاصة أكثر من ســواها، ولست أدري الآن ماذا كان سر اختياره لما يـترنم بـه، وكـان منه قوله تعـالى فى صـورة الشـمس: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُـولُ اللَّهِ نَاقَـةَ اللَّهِ وَسُـقْيَاهَا(13) فَكَـذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْـدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾. {14 الشمس} ..

إن الصبى لم يسـأل يومئـذ،ولا قيل له بغـير سـؤال، ما ناقة اللـه؟وما سـقياها؟ ومن هم ثمود الذين قال لهم هذا القول؟ ومن رسول الله الذى قاله؟ ولمـاذا كـذبوه؟ وما الـذى فعلته ناقة الله بـالقوم حـتى ضـاقت بها صـدورهم فعقروهـا؟ لا، لم يسـأل الصبى عن شىء من هذا، ولا طاف بباله أن يسأل، وربما لو سأل لما جاءه الجواب .

ومضت السنون وأصبح الصبى شابا طلعة، يكثر الأسئلة عما يصادفه من صنوف المعرفة الـتى أخـذت تتكـاثر عليـه، وقد كـان ذلك الشـاب محبا لقـراءة القـرآن ولبث أعوامـاً يقسم الكتـاب الكـريم بين أيـام الشـهر ليقـرأ فى كل يـوم جـزءاً من أجزائه الثلاثين، ووقف عند سورة الشمس مرة أخرى، فلم يزل مفتوناً بنغمها كما كان سـلفه الصـبى مفتونـاً، لكنه في تلك المرحلة الجديـدة كـان قد فهم من معانيها ما لم يحـاول الصـبي أن يفهمهـا، لـولا أنه هـذه المـرة قد وقف وقفة متسـائلة ولم يعـثر على شئ يرضى فيه تساؤله ذاك طوال الشباب، بل وما بعد الشباب بكثير، وكـان مصـدر حيرته هو الرابطة التى عساها أن تربط قـول رسـول الله لقبائل ثمـود، ما قاله عن ناقة الله وسقياها، بالآيات الأولى من السورة عن ضروب من القسم، بمشاهد من الطبيعة أولاً،

وبجوانب من طبيعة الإنسان ثانياً ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا(2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا(3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا(4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا(5) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾. {6 الشمس}. تلك هى مشاهد الطبيعة التى أقسم بها سبحانه وتعالى، ثم تأتى جوانب من فطرة الإنسان ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا...﴾. {10 الشمس}.. وعند هذه اللحظة تحدث النقلة فجأة، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ {11 الشمس}.. فكان السؤال الذى طرحه الرجل الناضج من بعده سؤالاً يريد أن يفهم الرابطة بين آيات القسم فى مرحلتيها السابقتين وتكذيب ثمود الذى استدعى من رسول الله أن يوجه إليهم نذيره. ثم دارت دورة السنين مرحلة أخرى، فإذا الرابطة المقنعة تتجلى أمام الشيخ المتأمل، وقد كان يمكن أن تتجلى له قبل ذلك لو أنه أمعن النظر فى تفصيلات الموقف، فوقع فيه على الحقيقة المفتاح. وتلك الحقيقة المفتاح هى أن قبائل ثمود عرفت ببراعتها فى فن النحت، تنحت الصخر بيوتاً وتماثيل وما شاءت لها موهبتها الفنية أن "تبدعه"، كان الوادى الذى يسكنونه "فيما هو الآن حدود الأردن مع الجزيرة العربية" صخرى القاع والجدران، فأغرى أهله بأن يتخذوا من فن النحت متعة ومورد كسب فى آن معاً، إذ كانوا يبيعون التماثيل "أو الأصنام إذا شئت". للمسافرين من الجزيرة العربية إلى الشام أو من الشام إلى الجزيرة العربية

فلما أرسل إليهم "صالح" عليه السلام، كانت معجزته من جنس ما برعوا فيه – وهو الشأن فى معجزات الأنبياء جميعاً، فإذا كانت براعتهم أن يقدوا من الصخر تماثيل تحاكى الأحياء، فليخرج لهم رسول الله من الصخر ذاته كائناً حياً، هو الناقة التى انشقّ عنها الصخر فخرجت لهم كاملة التكوين نابضة الحياة، لم يلدها أبوان، ولم تتدرج فى النماء، فبهت القوم لما يرون ماثلاً أمام أبصارهم، إنها ناقة الله .

وتريد ناقة الله أن تشرب كما يشرب سائر الأحياء، ويطالب لها رسول الله صالح عليه السلام بالسقيا، فلم يكن من جماعة ثمود إلا أن تشعر بالهزيمة وكان أقسى جوانب هزيمتهم هو شعورهم بالنكبة فى موضوع إعزازهم وفخرهم، ألا وهو إخراج الكائنات المنحوتة من صم الجلاميد، فأين يكون كل ما أخرجوه من تماثيل إذا قيس إلى هذه الآية المعجزة تنبثق من جوف الصخور؟ لكن العزة قد أخذتهم بالإثم، فكذبوا الرسول فيما تشهده الأبصار، وعقروا الناقة غيظاً، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾. {14 الشمس} ..

وضحت لى الرابطة التى قمت أبحث عنها فى سورة الشمس فالعقل عند تلاوتها ينتقل انتقالاً مسلسلاً جميلاً، من مشاهد الكون الفسيح إلى دخيلة النفس الإنسانية المنطوية على فطرة محايدة، تتشكل فجوراً عند الفاجر وتقوى عند التقى ثم ينتقل العقل من هذه النفس فى جملتها إلى مجال إبداعها الفنى، هكذا يكون التسلسل: الكون، فالإنسان مجتزءاً من ذلك الكون. فالفن مجتزءاً من ذلك الكون .

وعند انتقال الذهن – فى مجال الفن – من المنحوتات الصخرية الصماء التى

كـانت تبـدعها ثمـود إلى الناقة المعجـزة الـتى انشق عنها الصـخر فكأنما تضئ له من الإلهام بأن الفن كله إما أن يكـون من أجل الحيـاة وإما ألا يكـون، إن الإنسـان يريد أن يحيا حياته طولاً وعرضاً وعمقاً ما استطاع سبيلاً، فأما أن يحياها طولا فذلك قد يكـون مرهوناً – من جانب الإنسان – بنتاج العلوم الخاصة بالتغذية والصحة والطب وما إليهـا، وأما أن يحياها بـالعرض فتتوقف على اتسـاع الـدائرة الـتى يجـول فيها فـيزداد خـبرة بالأرض والسماء وما بينهما وإما أن يحيا حياته عمقاً فهاهنا تأتى الفلسفة ويـأتى الفن، لأن نتـاج العلـوم فى الحالة الأولى واتسـاع الخـبرة فى الحالة الثانية إنما يأتيـان إلينا متفرقـات مجـزأة لا رابطة بينهم، إننا عندئذ نكـون كمن يصـادف فـرداً من النـاس هنا وهناك دون أن يعلم أنهم أبناء أسرة واحدة حتى إذا ما عـرف عنهم هـذه الرابطة كـان كمن يراهم رؤية أوضح، وهكـذا تفعل الفلسـفة بمتفرقـات المعرفة تحـاول أن تكشف عن الرباط الذى يجمعها عند نقطة التقاء واحدة وأما الفن فـأمره عجب لأنه هو الـذى يكشف لك عما وراء الأقنعة الـتى تسـتر عنك حقـائق النـاس وطبـائع الأشـياء فمن ذا الــذى كشف عن العلاقة الدفينة بين الولد والوالــدين إلا ســفوكليز فى أوديب؟ من ذا الـذى كشف عن حقيقة الازدواج الوجـدانى بين البنـات وأبيهم إلا شكسـبير فى الملك لير؟ من ذا الذى كشف الستار عن دخيلة البخلاء إلا الجاحظ؟ من ذا الــذى جسد تطلع الإنسان إلى الخلود أروع مما جسده الفنان المصرى القديم؟.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾. {13 الشمس}.. هذا ما طالب به رسول الله جماعة ثمود وأما ناقة الله فقد أصبحت تـوحى إلىّ بمعـنى التفـوق عما هو سـائد بين النـاس، كـان السائد فى قبائل ثمود أن ينحت الصخر أصناماً لا تنفع ولا تشفع فخرجت ناقة الله من جلمـود الصـخر لتقيم المثـال بـأن يكـون الفن للحيـاة وما دام المثل الأعلى قد ارتسم أمام الأبصار والأذهان وجب على الناس رعايتـه، ﴿وَسُـقْيَاهَا﴾ ليعيش لكن ثمـود أخـذتها الغيرة العمياء حفاظاً على ما هم فيه فعقروا الناقة المعجزة لئلا تظل أمامهم تتحدى .

ولم تنفرد ثمود دون سائر البشر بنيران الغيظ المسموم التى تأكل القلوب أكلاً وتنهش الأكباد نهشاً، بل إن فى كل قوم جماعة من ثمود فـإذا كـانت ثمـود قد عقـرت الناقة المعجزة ليطمسـوا الشـاهد الـذى يظهر ضـالة فما زلنا حـتى يومنا نلتفت حولنا فإذا بقايا ثمود لم تزل فينا حية تسعى ولن أتحدث هنا عن أقوام بعيـدة لا أعـرف عنها إلا قشوراً من أخبارها بل أوجه بصرى إلى الدائرة الضـيقة الـتى أعـرف أفرادها باطنا لظــاهر، فيقع البصر أول ما يقع على قواقع ثمودية رابضة فى حنايا الصــخور أخــذت على نفسـها ألا يرفع رأسه رافع إلا وتتـوالى منها الضـربات على أم ذلك الـرأس حـتى يتهشم أو يختفى فإذا أراد صـاحبه أن يعيش كـان الشـرط الأول لبقائه هو أن يتجـانس معهم فى هزال الفكر وضيق الأفق .

هذا هو اللواء الذى يجب أن يرفع فوق الرؤوس لنهتـدى بضـيائه بمعـنى الـدعوة إلى التفوق والامتياز ثم رعاية ذلك التفوق وهذا الامتياز بالغذاء الصالح حتى لا ينتكس، تفوق سقراط على سـائر مواطنيه فكـان جـزاؤه المحاكمة وجريـاً على سـنة القـانون اليونانى عندئذ طلبت منه المحكمة أن يقترح على نفسه حكماً ليــوازن بينه وبين حكم القضاء لعلهم يلتمسون نقطة وسـطاً فأجـابهم سـاخراً بقوله إنه لا يـرى إلا أن تجـرى

عليه الدولة راتباً لما يؤديه نحو أثينا وصالحها .

هكـذا بـدأ الصـبى الـذى كنته عند الخامسة مفتونا بـالنغم بحلو النغم فى قوله تعالى﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾. {13 الشمس}.. وهكذا انتهي الشيخ مـــرورا بتطلع الشـــباب ونضج الرجولة إلي ما وراء النغم الجميل من مبـــدأ للارتقـــاء بالناس نحو الأعلى، فإذا كذبت فينا ثمود حقت عليها اللعنة إلي يوم الدين" انتهى .

ففي هـــذه القطعة نـــرى كيف يمكن للثقافة العريضة العميقة والحس الفـــني المرهف أن يقـدما "رؤيـة" جديـدة للآية تمثل دون ريب إضـافة من إضـافات اسـتلهام القـــرآن وغوصا إلي أعمـــاق الآية وعرضا لمعانيها بطريقة لا يمكن تقـــديمها من غـــير المثقف النابه والذى كانت تلح عليه السورة من الطفولة التي لم تلحظ إلا النغم الحلو حـــتى الشـــيخوخة الـــتي كشـــفت عن أعماقها الخافية وربطت ما بينها وبين المجتمع الإنسـانى وما كـان لغـيره أن يجعل من تعبـير﴿نَاقَـةَ اللَّهِ وَسُـقْيَاهَا﴾ {13 الشـمس}.. شعارا ولواء للدعوة إلى التفوق والامتياز وإحاطة هذا الامتياز بالاعتراف والرعاية .

* * *

قس أمريكى يستكشف إعجازاً قرآنيا ..

وها هو ذا مدخل ثـان للتعـرف على إعجـاز القـرآن ما كـان يمكن للأسـلاف، ولا حتى للعرب المعاصرين دخوله، وقد جاء فى خبر نقلته على الإنترنت قناة "إسلام أون لين" تحت عنوان "نصرانى قرأ القرآن" وجاء فيه ببعض الاختصار ..

"كان من المبشرين النشطين جداً فى الـدعوة النصـرانية وأيضـاً هو من الـذين لديهم علم غزير بالكتاب المقدس، هذا الرجل يحب الرياضيات بشكل كبير لذلك يحب المنطق أو التسلسل المنطقى للأمور فى أحد الأيام أراد أن يقرأ القرآن بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء التى تعزز موقفه عند دعوته المسلمين للدين النصـرانى كـان يتوقع أن يجد القرآن كتاباً قديماً مكتوباً منذ 14 قرن يتكلم عن الصـــحراء وما إلى ذلك لكنه ذهل مما وجد فيـه... بل واكتشف أن هـذا الكتـاب يحـوى أشـياء لا توجد فى أى كتـاب آخر فى هذا العالم، كان يتوقع أن يجد بعض الأحداث العصـيبة الـتى مـرت على النـبى مثل وفاة زوجته خديجة أو وفاة بناته وأولاده لكنه لم يجد شيئاً من ذلك بل الذى جعله فى حيرة من أمره أنه وجد أن هناك سـورة كاملة فى القـرآن تسـمى (سـورة مـريم) وفيها تشـــريف لمـــريم عليها الســـلام لا يوجد مثيل له فى كتب النصـــارى ولا فى أناجيلهم!! ولم يجد سـورة باسم عائشة أو فاطمة وكـذلك وجد أن عيسى ذكر بالاسم 25 مرة فى القرآن فى حين أن النبى محمد لم يذكر إلا 5 مـرات فقط فـزادت حـيرة الرجل أخذ يقرأ القرآن بتمعن أكـثر لعله يجد مآخـذا عليـه... ولكنه صـعق بآية عظيمة وعجيبة ألا وهى الآية رقم 82 فى سورة النسـاء: ﴿أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ وَلَـوْ كَـانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا. يقول الدكتور ملير عن هذه الآية. "من المبـــادئ العلمية المعروفة فى الـوقت الحاضر هو مبـدأ إيجـاد الأخطـاء أو تقصى الأخطـاء فى النظريـــات إلى أن تثبت صـــحتها **Falsification test** والعجيب أن القـــرآن يـــدعو

المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا..." يقـول أيضاً عن هـذه الآية "لا يوجد مؤلف فى العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتاباً ثم يقول هـذا الكتـاب خـالى من الأخطـاء ولكن القـرآن على العكس تمامـاً يقـول لك لا يوجد أخطـاء بل ويعـرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد"، أيضاً من الآيـات الـتى وقف الـدكتور ملـير عنـدها طـويلا هى الآية رقم 30 من سـورة الأنبيـاء: ﴿أَوَلَمْ يَـرَى الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّـمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَـيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُـونَ﴾. يقـول: "إن هذه الآية هى بالضبط موضـوع البحث العلمى الـذى نـال جـائزة نوبل فى عـام 1973 وكان عن نظرية الانفجار الكبير وهى تنص أن الكون الموجـود هو نتيجة انفجـار ضـخم حـدث منه الكـون بما فيه من سـماوات وكـواكب" فـالرتق هو الشـىء المتماسك فى حين أن الفتق هو الشــىء المتفكك "الآن نـأتى إلى الشــىء المــذهل فى أمر النــبى محمد من القصص التى بهرت الدكتور ملير ويعتبرها من المعجزات هى قصة النبى مع "أبو" لهب يقول الدكتور ملير "هـذا الرجل أبو لهب كـان يكـره الإسـلام كرهـاً شـديداً لدرجة انه كان يتبع محمد أينما ذهب ليقلل من قيمة ما يقوله وإذا رأى الرسـول يتكلم لناس غرباء فإنه ينتظر حـتى ينتهى الرسـول من كلامه ليـذهب إليهم ثم يسـألهم مـاذا قال لكم محمـد؟ لو قـال لكم أبيض فهو أسـود ولو قـال لكم ليل هو نهـار المقصد أنه يخالف أى شىء يقوله الرسول ويشكك الناس فيه. قبل 10 سنوات من وفاة أبو لهب نزلت سورة فى القرآن أسمها سورة المسـد، هـذه السـورة تقـرر أن أبو لهب سـوف يذهب إلى النار، أى بمعنى آخر أن أبو لهب لن يدخل الإسلام. خلال عشر سنوات، كل ما كان على "أبو" لهب أن يفعله هو أن يأتى أمام الناس ويقـول "محمد يقـول أنى لن أسـلم وسـوف أدخل النـار ولكـنى أعلن الآن أنى أريد أن أدخل فى الإسـلام وأصـبح مسلماً!! .

عشر سـنوات كـانت لديه الفرصة أن يهـدم الإسـلام بدقيقة واحـدة! ولكن لأن الكلام هـــذا ليس كلام محمد ولكنه وحى ممن يعلم الغيب ويعلم أن "أبـــو" لهب لن يسلم .

يقــول الــدكتور ملــير عن آية أبهرته لإعجازها الغيــبى: "من المعجــزات الغيبية القرآنية هو التحدى للمستقبل بأشياء لا يمكن أن يتنبأ بها الإنسان وهى خاضــعة لنفس الاختبار السابق وهو **Falsification test** مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشـىء المـراد اختبـاره، وهنا سـوف نـرى مـاذا قـال القـرآن عن علاقة المسـلمين مع اليهـود والنصارى. القرآن يقول إن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين وهـذا مسـتمر إلى وقتنا الحاضر فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود" ويكمل الدكتور ملير: "إن هـذا يعتبر تحديا عظيما ذلك أن اليهـود لـديهم الفرصة لهـدم الإسـلام بـأمر بسـيطاً وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين ويقولـون عنـدها: ها نحن نعـاملكم معاملة طيبة والقرآن يقول إننا أشد الناس عداوة لكم، إذن القرآن خطأ!، ولكن هذا لم يحدث خلال 1400 ســنة!! ولن يحــدث لأن هــذا الكلام نــزل من الــذى يعلم الغيب وليس إنسان!!" .

يكمل الدكتور ملـير عن أسـلوب فريد فى القـرآن أذهله لإعجـازه" "بـدون أدنى شك يوجد فى القرآن توجه فريد ومذهل لا يوجد فى أى مكـان آخـر، وذلك أن القـرآن يعطيك معلومات معينة ويقول لك: لم تكن تعلمها من قبل!! مثل سورة آل عمران .

﴿ذَلِكَ مِنْ أنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْـكَ وَمَا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُـونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُـلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. {44 آل عمـران}.. ﴿تِلْـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْـكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُـكَ مِنْ قَبْـلِ هَـذَا فَاصْـبِرْ إِنَّ الْعاقِبَـةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {49 هـود}.. ﴿ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيـهِ إِلَيْـكَ وَمَا كُنتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُـوا أَمْـرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. {102 يوسف} ..

يكمل الدكتور ملـير: "لا يوجد كتـاب مما يسـمى بـالكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كل الكتب الأخرى عبارة عن مجموعة من المعلومات الـتى تخـبرك من أين أتت هذه المعلومـات، على سـبيل لمثـال الكتـاب المقـدس عنـدما ينـاقش قصص القدماء فهو يقول لك الملك فلان عاش هنا وهذا القائد قاتل هنا معركة معينة وشخص آخر كـان له عـدد كـذا من الأبنـاء وأسـماءهم فلان وفلان الخ... ولكن هـذا الكتـاب "الإنجيل المحرف" دائمـاً يخـبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومـات يمكنك أن تقـرأ الكتاب الفلانى أو الكتاب الفلانى لأن هذه المعلومـات أتت منـه" يكمل الـدكتور ملـير: "بعكس القـرآن الـذى يمـدّ القـارئ بالمعلومة ثم يقـول لك هـذه معلومة جديـدة!! بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت متردداً فى صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكـون من عقل بشر!!. والمذهل فى الأمر هو أن أهل مكة فى ذلك الوقت – أى وقت نـزول هذه الآيات – ومرة بعد مرة كـانوا يسـمعونها ويسـمعون التحـدى بـأن هـذه معلومـات جديدة لم يكن يعلمها ولا قومه، بـالرغم من ذلك لم يقولـوا: هـذا ليس جديـداً بل نحن نعرفـه، أبـداً لم يحـدث أن قـالوا مثل ذلك ولم يقولـوا ونحن نعلم من أين جـاء محمد بهذه المعلومات، أيضاً لم يحـدث مثل هـذا، ولكن أحـداً لم يجـرؤ على تكذيبه أو الـرد عليه لأنها فعلاً معلومـات جديـدة كليـاً!!! وليست من عقل بشر ولكنها من الله الـذى يعلم الغيب فى الماضى والحاضر والمستقبل".

وهكذا فإن القرآن حَوَّل هذا الرجل من عـدو يبحث فيه ليجد أدلة للطعن عليـه.. إلى داعية يسلم ويؤمن به. ويعمل للدفاع عنه ...

الباب الأول
تفسير القرآن الكريم لدى المفسرين القدامى

الفصل الأول
مزالق المفسرين القدامى

لما كان الهـدف الرئيسى للقـرآن هو دعـوة النـاس إلى الإيمـان بالله فـإن ذلك اقتضى أن تأخذ الصياغة القرآنية إيقاعاً موسيقيا وتصـويرا فنيـا. حـتى يمكن أن يـدخل الآذان فالقلوب، ولما كان المعجـزة الدائمة الخالـدة الـتى تعـود إليها الأجيـال جيلا بعد جيـل، وعصـرا بعد عصر لتجد فيها الحكمـة، والهـدى والتوجيه السـليم بحيث تظل له المكانة التى كـانت له بالنسـبة للجيل الأول الـذى اسـتنقذه القـرآن من الظلمـات إلى النـور فـإن ذلك اقتضى أن يقتصر القـرآن على الأصـول والكليـات، وأن يهمل الفـروع والتفاصـيل والجزئيـات وأن يسـتخدم التعبـيرات المرنة الـتى تتسع للتأويل والتفسـير وتأخذ منها الأفهام قدر طاقتها ومنشود حاجتها .

ولم يكن من هذا كله بد، لأن الله تعالى وضع للكون سننا لابد أن تتبـع، ومعجـزة القرآن ليست أن يخـرق هـذه السـنن، ولكن أن يتلى على النـاس ليجـدوا فيه الرحمة والذكرى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْـرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. {51 العنكبوت} ..

ولهذا يستحيل تخيل صورة أخرى يمكن لمعجـزة دائمة خالـدة.. لكل النـاس فى كل العصور وفى كل الأماكن غير أن تكون "كتابا" ويسـتحيل تخيل صـورة أخـرى لمثل هـذا الكتـاب غـير ما أخـذها القـرآن.. ليمكن معها تحقيق هدفه العظيم الهداية الإلهية للبشرية كافة على مدار العصور والأزمان .

وكان الصحابة الذين عاصروا نـزول القـرآن يجـدون فيه ريـاً لنفوسـهم، وشـفاءً لصدورهم ونهجا لما تكـون عليه حيـاتهم وسـلوكهم. ولم يطمحـوا – باسـتثناء قلة – أن يحملوا القرآن كله، وكان حسبهم عدد من السور يتدبرها الواحد منهم فتغنيـه، لأنها قد تكون ذات معان واضحة فيفهمها، أو تكون ذات إعجاز لغوى فتخشع لها نفسه، ويمكن أن يكون هذا أو ذاك معا، وفى هذا أو ذاك رضا ومقنع. وكـانوا على ما رُوى إذا تعلمـوا عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمـل، وقد اسـتغرق عمر بن الخطاب ثمان سنوات فى حفظ البقرة، ولما أتمها نحر جـزورا، ووقف عند كلمة "أبـا" فى سورة عبس (الآية 31) ثم أعلن أن جهله بها لا يضـيره، بل إن تقصـيها هو التكلف بعينه .

ومما يزيد فى دلالة هذا المسلك ومغزاه أن النبى عليه الصلاة والسلام كان بين ظهـرانيهم، وكـان يمكنهم أن يسـألوه، خاصة وقد كـان كل ما جـاء فى القـرآن جديـدا

عليهم، ولكنهم آثروا أن لا يفعلوا ورأوا فى ذلك نوعا من الفضول يثقل عليهم لارتبـاط العلم بالعمل عندهم. فالقليل الـذى يطيقونه خـير من الكثـير الـذى لا يقومـون به أولاً يؤدون شكره، ويتنافى مع ما ينبغى للمـؤمن من سـمت وخلـق. ولعلهم تـذكروا ضـيق النبى صلى الله عليه وسلم بمن يسأل تزيـدا وتعنتا أو تفصـيلاً دون حاجة ملحة لـذلك، "ذرونى ما تـركتكم" وما جـاء فى القـرآن من تحـريم السـؤال عن أشـياء "أن تبد لكم تسؤكم"

بل أعجب من ذلك فى الدلالة أن النـبى عليه الصـلاة والسـلام وقد تـنزل عليه القرآن لم يخبرهم بتفاصيل عن تفسـير أو تأويل ما جـاء به إذ لو فعل ذلك لوصل إلينا قطعا ليس فحسب من باب الرواية كعشرات الألوف من الأحـاديث الأخـرى ولكن من باب الأحكام لأن ما سـيقوله سـيعد الحكم الفصل فى الأمر ولكن الـذى وصل إلينا من التفسير المرفوع إلى النبى لا يتعدى ثلاثة عشر صـفحة على ما صـوره السـيوطى فى كتابه "الإتقـان فى علـوم القـرآن" أجمل فيها التفاسـير المصـرح برفعها "صـحيحها وحسنها وضعيفها ومرسلها ومعضلها" وإن لم يعول على "الموضوعات والأباطيل" كما اسـتبعد ثلاثة أحـاديث طويلة مرفوعة لم يثبت له صـحتها أحـدها حـديث موسى مع الخضر.. والثـانى حـديث الفتـون والثـالث حـديث الصـور (الـذى يتنـاول يـوم القيامـة) فسكوت النـبى عن تفسـير القـرآن أو معظمه له دلالته الـتى لا يمكن إهمالها لما فيها من حكمة ..

ولخص أحد الشـيوخ المعاصـرين الموقف فى هـذه النقطة فقـال "إن القـرآن الكريم لم يحظ بتفسير مروى عن الرسول صلى الله عليه وسـلم ولا عن صـحابته إلا فى آيات قليلة جدا ومتناثرة فلا يمكن أن تكون تفسيراً كاملا بالرواية يعتمد عليه"[(12)] .

وعلى كل حال فقد اختلفت الصـورة بعد أن قبض النـبى وانقضى جيل الصـحابة وجـاءت الفتـوح بـالألوف المؤلفة من الـذين اسـلموا مع انتصـار الإسـلام من يهـود أو نصـارى أو صـابئة.. وحملـوا معهم بقايا معتقـداتهم القديمة الـتى لم يكن من السـهل عليهم التخلص منها ولم تسـعفهم معـرفتهم المحـدودة بالعربية فى تفهم القـرآن أو إدراك إيجازه ومجازه، استعارته وإشارته، ولم يكن فيهم ذلك الحـرص على الجمع بين العلم والعمل وإنما كان فى معظمهم فضول للتعـرف على ما جـاء فى القـرآن ومـدى اتفـاق أو افـتراق ذلك عما كـانوا يعتقدونه وعـزز هـذا كله أن توسع المجتمع وتشـعبت قضاياه وتعددت مسائله ولم يكن الذين ولوا الأمر بمنزلة النـبى المشـرع الـذى يفصل فى الأمـور بما لا يـرد فـانفتح البـاب أمـام ما أطلق عليه "علـوم القـرآن" وعكفت مجموعات من الناس على تأويل وتحليل وتفسير آيـات القـرآن كل من زاويتها الخاصة مستعينة فى ذلك بما كان فى الكتب القديمة وبوجه خـاص التـوراة وما كـان بين يـدى أهل الكتـاب من أقاصـيص وروايـات طافحة بالتفاصـيل ولم يجـدوا حرجا من ذلك لما

---

12 **(12) التفسير والمفسرون بقلم الشيخ عبد المنعم النمر – مجلة العربى العدد 125 محرم 1389 أبريل 1969 ص25، وسنعاود الإشارة إلى هذه النقطة عن الحديث عن "التفسير بالمأثور"...**

رووه من أحاديث لا تحرم ذلك بل لقد رووا "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حـرج" فنقلـوا من "علماء اليهود أو من ظنـوهم علمـاء بـالتوراة وربما لم يكونـوا من العلمـاء بل من النقلة المحـرفين الـذين يحرفـون ويزيـدون أو من عـوامهم الـذين يسـمعون وينقلـون ويزيدون. ويستمع منهم المسلمون حـتى لتجد كتب التفسـير محشـوة بتفاصـيل لهـذه القصص لم يـــذكرها القـــرآن ولكنها مـــأخوذة عن هـــؤلاء مما اشـــتهرت تســـميته "بالإسرائيليات" وبعض هذه الإسـرائيليات تجـدها معـزوه إلى ابن عبـاس أو غـيره من الصحابة والتابعين مما يوهم روايتها عن الرسول صلى الله عليه وسـلم وما هى كـذلك وإنما هذا مصدرها الذى أتت منه، اليهود الـذين أسـلموا ونصـبوا من أنفسـهم أو نصب منهم المسـلمون معلمين مخـبرين، بما لم يـذكره القـرآن من تفاصـيل القصـص"[13]. وامتلأت كتب التفسير بهذه الأقاصـيص وغيرها كـأن ذكر ذلك هو القصد وليس تفسـير القــرآن بعينه حـتى صح على بعضـها ما قيل عن تفســير الــرازى "فيه كل شــىء إلا التفسير" .

وإذا تصـــورنا حالة المجتمع الإســـلامى وقتئـــذ، وقد اكتســـحه مد متلاحق من الأجناس التى آمنت بالإسلام، دون أن يتوفر للأغلبية الساحقة الورع من ناحية أو العلم بالأســـاليب العربية من ناحية أخـــرى، ودون أن تتخلص تمامـــاً من مؤثراتها القديمة ورواسبها وتقاليدها العرقية والحضارية، وإذا وضعنا فى تقـديرنا أن هـذا المجتمع الـذى خرج لتوه من البيئة الصحراوية الساذجة، كـان يبـنى كل نظمه الاجتماعية والاقتصـادية والسياسية على الإسلام، أى على القرآن أساسا، لتأكد لنا وجود تناقض بين أمس هـذا المجتمع ويومه، وفراغ كبير نتيجة لخروجه من البيئة البسيطة إلى العالم المعقد وكـان لابد من ملء هـذا الفـراغ وتوسـيع الأطر الإسـلامية ليمكن أن تحيط بـأطراف هـذا المجتمع المتمدد وتفى باحتياجاته المتزايدة. وتحدد الموقف إزاء الفلسفات والنظريات الوافدة، سواء كان هذا الموقف رفضا أو اتفاقا أو تسوية .

من أجل هذا نقول إن ظهور العلوم الإسلامية، سواء كانت فقها أو تفسيراً كـان أمر مقضـيا تطلبته الظـروف المعينة الـتى مر بها المجتمع الإسـلامى وقتئـذ، وإن لم يسـتتبع هـذا أن تلك الظـروف كـانت هى الظـروف المثلى أو أن النتيجة كـانت موفقة ومــبرأة من المآخــذ. ذلك لأن الله تعــالى أنــزل القــرآن – على ما هو عليه – لحكمة عظمى وكـان يمكنه أن يـذكر الأسـماء والأرقـام والتفاصـيل ولكن القـرآن ليس كتابـاً للسرد – والواقعة عنده ليست إلا سبيلاً لإيراد المضمون العـام أو الحكمة الموضـوعية المطلقة. ومن هنا فإن القرآن يتعمد الإبهام حتى عندما يكون للسياق دلالة معينة. لأن قراءة الآية محكومة بالسـياق شـىء. وذكر الآية دون السـياق شـىء آخر فهـذا الأخـير يجعل من المستطاع الاستشـهاد بالآية فى غـير ما نـزلت فيه على وجه التخصـيص، ما دامت تحتمل ذلك، وهى بالطبع تحتمل ما دام النص لا يقصـرها. فالآية مثلاً ﴿وَنُرِيـدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْـــــعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْـــــوَارِثِينَ﴾. {5 القصص}.. مقصود بها بحكم الآيات التى تسبقها، والآيات التى تعقبها "بـنى إسـرائيل"

[13] **(13) المرجع السابق ص 23 .**

ولكن الآية ما دامت لا تتضمن قصراً لها على بنى إسرائيل صراحة فيمكن أن تقدم مبدءاً لاستنهاض كل الذين يستضعفون فى الأرض بحكم ظروف كظروف استضعاف بنى إسرائيل سواء كانوا فى الهند أو السند، الشمال أو الجنوب، الحاضر أو المستقبل وتسهم فى وضع قاعدة رئيسية من قواعد تحرير الشعوب وتحقيق العدالة.. الأمر الذى يمتنع لو قصرت الآية على بنى إسرائيل دون غيرهم صراحة .

(1)

طريقة المفسرين القدامى ...

سلك المفسرون القدامى طريقة واحدة بصفة عامة فى التفسير فهم يبدأون بتفسير الفاتحة، ثم يسيرون مع السور بترتيب المصحف حتى السورة الأخيرة "الناس" وهم يبدأون فى تفسير السور بترتيب آياتها فيأخذون الآيات آية فأية تبعا لترتيبها فى السورة وقد يضمون بعض الآيات بعضها لبعض إذا كان هناك ترابط. ولم يكن معدى عن ذلك، وهذا الترتيب قد لا يكون الطريقة المثلى لفهم القرآن، فكما لاحظنا فى "تثوير القرآن" أن تفسير السور آية فآية هو نوع من التشريح الذى لا يتأتى إلا لجسم ميت أما إذا كانت الصياغة حية. متوثبة، متلاحمة فإن هذه الطريقة تذهب بحيويتها وفعاليتها التى تتجلى عند قراءة السورة – أو على الأقل – عدداً من آياتها مرة واحدة دون تجزئه. ولكن – كما قلنا – لم يكن من هذه الطريقة بد ما دام المطلوب هو تفسير القرآن آية فآية ..

ومن المفهوم أن المفسر يجب أن يحكم عدلاً من العلوم حتى يمكن أن يقوم بمهمته فى التفسير. وقد شرحها علماء التفسير – كالسيوطى فى الإتقان وغيره – وأولى هذه العلوم هى علوم اللغة – لأن القرآن كلام – أى لغة ولابد لتفسيره من إحكام اللغة التى يعبر بها. ويدخل فى اللغة النحو، والصرف، والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع، والقراءات وعلم أصول الدين وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والفقه ويجب أن يكون مُلما بالسُنة، وبوجه خاص الأحاديث التى تبين المجمل والمبهم .

وفى العادة. يبدأ المفسر فيذكر أولاً ما جاء عن الرسول عن هذه الآية إن وجد، فإن لم يجد فإنه يتحرى ما قدمه الصحابة. فإن لم يجد فإنه يتقصى التابعين. وقد يختلفون فى مدى الاعتماد على الرواية، فالذين يفسرون بالمأثور يعتمدون اعتماداً كليا عليه.. أما الذين يأخذون بالرأى. فقد يكون لهم ملاحظات على أقوال بعض الصحابة – وإن ندر – لأن الصحابة جميعاً عدول كما قرر ذلك المحدثون. وقد يأخذون برأى التابعى – أو لا يأخذون ..

ويتجلى عبر التفسير الروح العامة للمفسر، فإن كان مذهبيا – معتزلى مثلاً كالزمخشرى فإنه يفسر الآيات طبقا لمذهبه، وقد يتعسف فى هذا، وإن كان محدثاً، فهو يأخذ الحديث بعجره وبجره، صحيحه وضعيفه، وإذا كان متلهفاً على معرفة المغيبات، وتبين المهمات فإنه يعمد إلى ما رواه أهل الكتاب فيحشد صفحات طوال

من أقوال التوراة أو أهل الكتاب وهم يرون أن بعض كبار المفسرين بالمأثور لا ينجون من هذا المزلق مثل الطبرى فى تفسيره لأنه يعد من المفسرين بالمأثور، كما يعــدون من المفسرين بالمأثور معالم التنزيل للبقرى (المتـوفى سـنة 516 وتفسـير ابن كثـير (المتوفى سنة 774). والجواهر الحسان فى تفسير القـرآن لأبى زيد عبد الـرحمن بن محمد الثعـالبى المتـوفى سـنة 876 والـدر المنثـور فى التفسـير بالمـأثور للسـيوطى (المتوفى سنة 911) .

كما يعدون من مؤلفات التفسير بالرأى تفسير مفـاتيح الغيب للـرازى (المتـوفى سنة 606) و"أنوار التنزيل وأسـرار التأويـل" لقاضى القضـاة ناصر الـدين عبد الله بن محمد البيضاوى (المتوفى سنة 685) و"لباب التأويل فى معانى التنزيـل" لعلاء الـدين على بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن (المتـوفى سـنة 741) و"البحر المحيـط" لأثير الدين أبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى (المتوفى سنة 745) و"إرشـاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" لأبى السعود محمد بن محمد بن مصـطفى العمـادى المتوفى سنة 982 وغيرها الكثير .

وبالإضـافة إلى هــذه التفاســير فقد وضــعت كتب كثــيرة فى كل موضــوع من موضـوعات علـوم أو فنـون القـرآن.. فهنـاك كتب عديـدة عن النسخ الـذى اهتمـوا به أعظم اهتمام حتى كانت قولتهم لمن لم يعلم الناسخ من المنسـوخ "هلكت وأهلكت!" وهناك كتب عن أسـباب الـنزول. أما البحث عن إعجـاز القـرآن فقد كـان طلبة علمـاء البلاغة وألف فيه كما ألف معظم علماء اللغة لأن القـرآن هو أصل اللغة وسـندها، وإن كان بعض اللغويين استبدت بهم صفتهم النحوية على ما سنذكر ..

ويجب أن نذكر أن التفسير كعلم بدء فى عهد الحديث، وكفرع منه، قال الدكتور محمد حسين الذهبى فى كتابه القيم "التفسير والمفسرون" ..

"ثم بعد عصر الصحابة والتـابعين، خطا التفسـير خطـوة ثانيـة، وذلك حيث ابتـدأ التدوين لحديث رسول الله فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير بابـاً من هـذه الأبـواب التى اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سـورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وجد من العلماء من طوف فى الأمصـار المختلفة فجمع بجوار ذلك ما روى فى الأمصار من تفسير منسوب إلى النبى أو إلى الصـحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السلمى (المتوفى سنة 117) وشعبة ابن الحجاج (المتــوفى ســنة 160) ووكيع بن الجــراح (المتــوقى ســنة 197) وســفيان بن عيينة (المتـوفى سـنة 198) إلى أن يقـول : وهـؤلاء جميعـاً كـانوا من أئمة الحـديث، فكـان جمعهم للتفسير جمعا لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على اسـتقلال وانفـراد، وجميع ما نقله هـؤلاء الأعلام عن أسـلافهم من أئمة التفسـير نقلـوه مسـنداً إليهم، غـير أن هـذه التفاسـير لم يصل إلينا شـىء منهـا، ولـذا لا نسـتطيع أن نحكم عليها[14] .

---

[14] (14) التفسير والمفسرون ج1 ص141 .

وينسبون إلى عالم الحديث عبد الملك بن جـريج – وهو أحد علمـاء الحـديث فى النصف الأول من القرن الثانى للهجـرة أنه أول من اشـتغل بكتابة تفسـير. فكتب ثلاثة أجزاء عن إبن عباس وفى هذا التفسير نجد القسـمات الـتى سـيجدها فى معظم كتب التفسير، أعنى حشد الرواية من صحيحها وسقيمها، وكان بن جريج من المـوالى روميا كما ينم اسمه الذى هو تصغير "جورج" وكان أمويا وروى عنه مجاهد، وعطـاء بن ربـاح وميمـون بن مهـران وابن شـهاب الزهـرى والسـفيانان ووكيع وعبد الـرازق وهو وابن عروبة أول من صنف الكتب فى الحجاز. مع هذه الصفات التى توثقه فإنه كـان يـدلس وتزوج نحو سبعين امرأة لأنه كان يرى رخصة نكـاح المتعـة. وقد يلقى أصـله الـرومى. واتجاهه الأمـوى وأنه يـدلس شـيئاً من الظلال أو الشـبهات فيما نـرى دون أن يمكن القطع بذلك .

ونشأة التفسير فى مهد الحديث وكفرع منه يعطينا إيضاحاً للأهمية التى أعطاها الأسلاف للتفسير بالمأثور فى كتب التفسير .

وبعد بن جريج دخل الحلبة أول اللغويين وهو يحـيى بن سـلام بن ثعلب البصـرى (وتوفى سنة 200هـ) وقد روى عن أصحاب الحسن البصرى وحمـاد بن سـلمة وهمـام بن يحيى وسعيد بن أبى عروبة .

ثم جاء محمد بن جرير الطبرى الذى يعد أكمل المفسرين ووضع تفسيره "جامع البيـان فى تفسـير القـرآن" الـذى فقد حينا من الـدهر وقيل إنه لو سـافر فـرد ما إلى الصين فى طلبه لما كان كثيراً ..

* * *

وعندما أقدم المفسرون على تفسير القرآن بحكم الظـروف والملابسـات الـتى أشرنا إليها.. وجدوا القرآن كالبحر هيهات أن يمخروا عبابه أو يسبروا أعماقه أو يدركوا دخائله، ورأوا أمواجا عالية تدفعهم ذات اليمين وذات الشمال، وتيارات عميقة تشـدهم من خلف أو أمام فشدهوا وسـلم بعضـهم، وارتضـوا ما جذبته شـباكهم من أسـماك أو لآلئ بحسب قدرتهم ومهارتهم لا بحسب ما يضمه البحر من ذخـائر أو يكنه من لآلئ... بينما كـابر البعض الآخر أو أدعى أو اختلق ما شـاء من أقاويل أو ارتضى من روايـات تحل مغاليق هذا البحر وتوضح مجاهله ..

وكـانت هنـاك ثلاث مجموعـات أقـدمت على التفسـير وعـنيت به **فـاللغويون** أرادوا أن يصـلوا إلى أسـرار الإعجـاز اللغـوى فى القـرآن، وما جـاء به من نظم بـديع ونسق فريـد، وتطويع فى بنية الكلمـات ليحقق وحـدة الإيقـاع وتنغيم الألفـاظ، وليصل بالجملة القرآنية إلى أقصى درجة من إحداث الأثر وأداء المعنى. **والمذهبيون** حاولوا إثبات مذاهبهم فى جـوانب من العقيـدة بمختلف الآيـات مسـتغلين مرونة التعبـير، وما يمكن أن يحمله تركيب الجملة القرآنية من معانى، وبوجه خـاص الآيـات المتشـابهات، **والإخباريون** تتبعوا الوقائع التى ذكرت فى القـرآن من خلق آدم حـتى قيـام السـاعة

وما بين ذلك من أحـداث، وقصص الأمم الـتى تحـدث عنها القـرآن، وفى مقـدمتها بنو إسرائيل ..

ونحن نفـترض فى معظم هـؤلاء حسن النيـة، وأنهم أقـدموا على هـذه المهمة لخدمة القرآن والتقرب إلى اللـه، كما لا ننكر عليهم ما بـذلوا من جهد وما تحملـوا من مشقة وما توصلوا إليه من نتائج، ولكن هذا لا ينفى وجـود عوامل عديـدة أثـرت عليهم كتمسكهم بالمفاهيم السابقة. فاللغويون دخلوا الميدان مسـلحين بقواعـدهم النحويـة، فوجدوا القرآن فى بعض الحالات، يضـرب بهـذه القواعد عـرض الحائـط، والمـذهبيون وجـدوا أن ظـاهر النص قد لا يؤيـدهم تمامـا، أو هو أقـرب إلى المخالفـة، فعمد هـؤلاء وأولئك إلى التعسف فى التأويل. أما المؤرخون الذين لم يكن لهم منهج، وغلبت عليهم السذاجة فقد كانوا ضحايا للوضاعين وأسرى الإسـناد، وجـازت عليهم نصـوص لا حصر لها، يمكن القول دون مبالغة – أنها مفتريات على الإسلام ومكايد نصبت للنيل منه .

ولعل أكبر مأخذ يؤخذ على هؤلاء جميعا أنهم فى غمرة اهتمامـاتهم بتخصصـاتهم وعملهم لإثبات وجهات نظرهم أهملوا الإشارة إلى روح القرآن نفسه تلك الـروح الـتى تنتظم آياته جميعاً ككتاب إحيـاء ونهضة وهداية يسـتهدف إخـراج النـاس من الظلمـات إلى النور .

وكـــانت النتيجة أن المفســـرين – كما لاحظ ذلك أحد أعضـــاء مجمع البحـــوث الإسلامية "قد تصوروا مهمتهم على نحو خاص كان له أثر بين فى توجيه التفاسير التى وضـعوها فقد واجهـوا القـرآن فى البداية كنص يـراد شـرحه وإيضـاح معانيه فشـرحوا غامضه وحرروا معانيه وأشاروا إلى ما يتضمنه من مبادئ وأصول، ولكن الأمر لم يلبث أن تطور إلى صورة لم تكن تخطر لأحد على بال ولن نسـتطيع أن نـدرك هـذا التطـور الجديد حق إدراكه إلا إذا تذكرنا أن العلـوم العربية كـانت فى هـذه الحقبة تنمو وتزدهر فى دراستها فأوغل فريق فى دراسة البلاغة وتوسع آخرون فى دراسة النحو والصـرف أو اللغة وجمع غيرهم فى دائرة تخصصهم بين كل هذه العلوم أو عدد كبير معها .

والأمر الخطير هنا أن التخصص يصبغ صاحبه بصبغته الخاصة بصورة قوية وفعالة لا يستطيع أحيانا أن يتحرر منها حتى إنه لينظر إلى الأشياء من وجهة نظر تخصصه شـاء أم أبى وقد اتجه كثـير من هـؤلاء اللغـويين إلى تفســير القــرآن فمــاذا كــانت النتيجــة؟ بحســبك أن تنظر فى تفســير الزمخشرى مثلاً وأن تتذكر حين النظر فيه أن الرجل من كبـار علمـاء النحو والصـرف واللغة والبلاغة فستجد فى تفسيره مصـداق ما أشـرنا إليه آنفا من تـأثر الرجل تـأثيراً عميقا بالعلوم التى تخصص فيها فأول ما يأخذه نظره من القرآن فيحاول بحثه ودرسه هو الاستعارات والمجازات وغريب القرآن ثم نحو القرآن وصرفه حتى إذا وصــلت إلى حاشـية الجمل على الجلالين خيل إليك إن الرجل إنما كـان يعنيه أن يتخذ من القــرآن الكريم مجالاً لتطبيق علوم اللغة وبخاصة النحو والصرف أما معـانى الآيـات وموضـوع القرآن فقد أصبح بمعزل عن مجال الشرح والعرض .

وخلاصة الأمر أن القـــــرآن تنقلت به الحـــــال من كتـــــاب لتربية المسلمين وتعليمهم الدين والشـريعة إلى نص لمجـرد الفهم إلى ميـدان فسيح لتطـبيق علـوم اللغة على اختلاف أنواعها وبهـذا تم عـزل القـرآن كعامل يعمل لتربية المسـلمين وتكـوين عقائـدهم وأخلاقهم وشـريعتهم وتوجيه سلوكهم"[15] .

(2)

مزالق المفسرين القدامى

أ. اللغوين

وقع المفســرون القــدامى خلال تفســيراتهم العديــدة فى مزالق نتيجة لاختلاف المنهج الذى نهجه كل فريق وأبرز هذه المناهج هو ما قام على أساس اللغة، وما تولاه اللغويون وهو أمر يبدو مفهوماً لأن الإعجاز اللغـوى أسـبق إلى الأذن وأظهر إلى العين من إعجاز المعانى الذى يتطلب إعمال الذهن ومن ثم تركز الاهتمام الأعظم لكثير من المفسرين على اللغة والأسلوب والصياغة والنحو والصرف .

وعـثرة اللغـويين من المفسـرين نشـأت من أنهم ركـزوا العناية على الصـناعة اللغوية والنحوية بصـورة تفـرغ الأسـلوب من المضـمون فقـالوا إن فى آيـة: ﴿وَقِيـلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِـيَ الأَمـْرُ﴾. {44 هــود}. عشـرين ضربا من البديع وأن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْـدِي الظَّالِمِينَ﴾. {124 البقـرة}. قد جمع الخـبر والطلب والإثبـات والنفى والتوكيد والحذف والوعد والوعيد.. وفضلوا الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَـاصِ حَيَـاةٌ﴾. {179 البقـرة}. على التعبـير العـربى القـديم "القتل أنفى للقتـل" وتقصـوا ما فى القـرآن من تشـبيه واستعارة وكناية وتعريض وإيجاز وإطناب وخبر وإنشاء الخ... وألفت كتب كاملة عديدة فى أنواع ذلك .

ولا ريب أن هذه الكتابات ألقت أضـواء عديـدة على فنـون من الإعجـاز القـرآنى ولكن الله تعالى لم ينزل القرآن ليقـارع اللغـويين الـذين يتصـدون للحكم فى البلاغـة. وليلزمهم الحجة ويحملهم على الاعتراف. إن القرآن أنزل لعامة الناس الذين لا تكــون لهم عدة اللغويين ويكون التأثير عليهم بغير هـذا التفنن اللغـوى، وأهم من هـذا وهو ما أغفله اللغويون وهم يبحثون فى تفاصـيل ومفـردات الإعجـاز أن القـرآن أولا وقبل كل شىء كتاب دعوة أنزله الله هـدى ورحمة ليخـرج النـاس من الظلمـات إلى النـور بـأن يحدث فى نفوسهم تلك الثـورة الـتى أطلق عليها "الإيمـان باللـه" فتعريف الله تعـالى وتقريبه إلى الأذهــان ودعــوة النــاس للإيمــان به ووضع الإنســان مكانه فى الكــون والمجتمع هو الهدف الرئيسى للقـرآن وكل ما جـاء فى القـرآن من بلاغة وإعجـاز إنما أريد به تحقيق هذا الهدف ومن هنا فإن إعجاز القرآن وإن تضمن فيما تضمن ما أشـار

---

[15] **(15) الأستاذ إبراهيم اللبان فى بحثه عن "القرآن وتجديد المجتمع" نشر فى "التوجيه الاجتماعى فى الإسلام" من بحوث ومؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية 1391 – 1972 الجزء الثانى ص161 .**

إليه البلاغيون القدامى إلا أن تكييف هذا الإعجاز والتعرف على منطلقه وجوهره هو ما فات اللغويين القدامى وكـان السـبب الرئيسى لـذلك هو نظـرهم إلى القـرآن ككتـاب بلاغة وليس ككتـاب هداية وإغفـالهم أن هـدف هـذا الإعجـاز وإن كـان يتضـمن إفحـام المخالفين إلا أنه بالدرجة الأولى اكتساب المؤمنين .

وأسوأ من عثرة التركيز على الصناعة بصـورة تفـرغ القـرآن من مضـمونه أنهم فى بعض الحالات افتأتوا على أسـلوب القـرآن وحـاولوا أن يخضـعوه لقواعـدهم. فـإذا نزلوا عن ذلك قالوا – كما روى السيوطى – "هذا تفسير معنى وهـذا تفسـير إعـراب.. والفــرق بينهما أن تفســير الإعــراب لابد فيه من ملاحظة الصــناعة النحوية وتفســير المعنى لا تضره مخالفة ذلك"[16] .

وأشــار كــاتب محقق هو الأســتاذ أحمد عبد الســتار الجــوارى فى كتابه "نحو القرآن" إلى المأزق الذى وقع فيه النحاة واللغويـون عنـدما أرادوا الجمع بين مـذاهبهم المقــررة وما تشـمل عليه الصـياغة القرآنية من بلاغـة، بـدلاً من أن يجعلـوا أسـاليب القرآن المثال الذى يقتدى به وتقتبس منه قواعد اللغة فقـال: "ولكن الـذى كـان ممن وضعوا النحو فى أول الأمر غير ذلك بل عكس ذلك من بعض الوجوه فقد اشتطت بهم السبل وعميت عليهم المسـالك فتنكبـوا سـبل القصد واعتمـدوا فى وضع قواعد النحو على ما بلغهم من كلام العرب شعره ورجزه ومثله. أو آثـروا جـانب المنطق فتصـوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية وركبوا مركب الشطط فحاولوا أن يجعلوا للقواعد المجردة سـلطانا على المـروى المـأثور يحكمونها فيه ويحسـبون أن ذلك هو الصـواب وما هو إلا مجانبة الصــواب ولقد بلغ بعضــهم فى هــذا المجــال مبلغ الإيغــال والغلو فحكمـوا على مواضع من آي القـرآن بخروجها على نحو العربيـة.. وركنـوا إلى التأويل والتخريج، حتى تنسجم تلك المواضع بأساليبها الرائعة وتراكيبها الدقيقة مع ما افترضوا من قواعد وما رسموا للنحو من حدود .

وثمة جانب آخر يستأهل التأمل والتفكـير، ذلك أن النحـاة القـدامى قد احتكمـوا إلى المنطق كثيراً وأقاموا عليه قواعد النحـو. ناسـين أن التعبـير باللغة فن ما أكـثر ما يتجاوز حدود المنطق ورسومه فيحذف أو يذكر، ويقدم أو يؤخر استجابة لدواع لا تتعلق بالمنطق ولا تخضع له ..

ولقد أدى بهم ذلك الاسـتناد إلى المنطق إلى أن يرسـموا للـتركيب صـورا ثابتة جعلوها هى الأصل، وما عداها خروجا على الأصل فقـالوا: إن الـتركيب لابد أن يشـتمل على ركنين مسند ومسـند إليه أو موضـوع ومحمـول، وذلك هو المبتـدأ والخـبر والفعل والفاعل، فإذا حذف أحدهما فعلى نية ذكره، ولابد حينئذ من التقدير.

---

[16] **(16) الإتقان للسيوطى ص182 ج3 (الطبعة الثانية مكتبة محمود توفيق بالأزهر) .**

وقالوا إن المعمول لابد له من عامل يلتمس فى التركيب فـإذا وجـدوه ردوا إليه العمل وإلا قدروه .

وتـراهم أحيانا يتلمسـون وجه الصـواب ويقفـون على الحقيقة أو بعض الحقيقة فيقولون: عدم التقدير أسلم من التقدير .

وتراهم يسلمون بوجوب حذف العمـدة فى مواضع اسـتقرءوها أحسن اسـتقراء ولكنهم يوجبـون فى الـوقت عينه تقـدير المحـذوف فيفسـدون بـذلك معـنى الكلام ويضيعون على منشئه ما قصد إليه بالحـذف أو التقـديم والتـأخير، وهم بـذلك يعزلـون النحو عن المعنى بل يجردونه من فنية التعبير التى لا يمكن أن ينسلخ عنها لو كان حقا دراسة شاملة للتركيب[17] .

وتعقب المؤلف بعض سقطات النحويين وتعسفاتهم وما حاولوه من الحجر على الطلاقة القرآنية بدعوى مبادئهم المقدسة .

"مثال ذلك قول الفراء فى إعراب "ويقولون طاعة. الرفع على قولك منا طاعة أو أمرك طاعة، وكذلك: "قل لا تقسموا: طاعة معروفة" معناه، والله أعلم قولوا سمع وطاعة، وكذلك فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

"فـأولى لهم، طاعة وقـول معـروف". ليست مرتفعة بـــ (لهم)، بل هى مرتفعة على الوجه الذى ذكرت لك. وذلك أنهم أنزل الأمر بالقتـال فقـالوا: سـمع وطاعة فـإذا فارقوا محمدا صلى الله عليه وسلم غيروا قولهم فقال الله تبارك وتعالى:

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾. {21 محمد} ..

وقد يقـول بعض النحـويين (وذكر فيها القتـال) وذكـرت طاعة وليست فيها واو فيجوز هذا الوجه، ولو وردت الطاعة وجعلت كأنها تفسير للقتال جاز رفعها ونصبها .

أما النصب فعلى. ذكر فيها القتـــــال بالطاعة أو على الطاعة والرفع على: ذكر فيها القتال ذكر فيها طاعة .

كل هذا السلوك فى الدروب الملتوية لتحقيق القاعدة الـتى يقـوم عليها مـذهب الفراء أن المبتدأ مرفوع بالخبر وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ (ذلك مذهب أهل الكوفة) .

وأنت ترى أنه لا حاجة إطلاقاً لأى زيادة فى الكلام، وهذا اللفظ المفرد المرفوع (طاعة) يغنى عن تركيب، ويسـتغنى عن كل تقـدير يقـدم عليه أو يـؤخر عنـه، فهو إما إخبار يسد مسد تركيب، وإما إنشاء لا يحتاج إلى مزيد .

ومن أمثلة ذلك أيضا قول الزمخشرى فى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُـوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾. {17 هود}.. معناه أمن كـان يريد الحيـاة الـدنيا فمن كـان على بينة أى لا يعقبونهم فى المنزلة ولا يقاربونهم .

---

[17] **(17) كتاب نحو القرآن للأستاذ أحمد عد الستار الجوارى – مطبعة المجمع العلمى العراقى 1394 – 1974 بغداد – من ص7 – 10 (بتصرف) .**

وأى بون بين هذا التأويل ومعنى ما قصدت إليه العبارة فى الآية، وأنى للمعــرب أن يضيف إلى العبارة ما ليس منها صراحة ولا ضمنا .

ويضيق النحاة بأسلوب القرآن فى الحذف الـذى يخـالف قواعـدهم ولم يحيطـوا بالاستعمالات الواردة فى العبارة القرآنية .

"ومن ذلك حـذف المضـاف والاكتفـاء بالمضـاف إليـه، فى أسـلوب تفـردت به العبـارة القرآنيـة، وقضت قواعد النحـاة أن يهجر فلا يسـتعمله المنشـئون، ويكـثر ذلك حين يكون المحذوف المتصور علة لما قبله، أو بعبـارة النحـاة مفعـولا له أو سـببا، من ذلك قوله تعالى فى سورة هود :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَـدْرُكَ أَنْ يَقُولُـوا لَـوْلا أُنـزِلَ عَلَيْـهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾. {12 هود} ..

قال الزمخشرى: أن يقولوا مخافة أن يقولوا .

وقال أيضاً فى قوله تعالى من سورة النحل :

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِـيَ أَنْ تَمِيـدَ بِكُمْ﴾. {15 النحــل}.. كراهة أن تميل بكم وتضطرب .

وأدى تمسـكهم بقواعـدهم بالزمخشـرى لأن يـنزلق دون أن يشـعر فيقـول فى تفسير ﴿الَّذِينَ يَسْـتَحِبُّونَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا عَلَى الآخِـرَةِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾. {3 إبراهيم}.. (والأصل!؟). ويبغون لها عوجا فحذف الجار وأوصل الفعل" ولم يستشعر الزمخشرى حساسية أو أنه أساء التعبـير عنـدما قـال والأصـل... الأمر الـذى استشــعره مؤلف "نحو القــرآن" فوضع لفظة (والأصــل) بين قوســين وأتبعها بعلامة تعجب واسـتفهام لأن الزمخشـرى دخل الحلبة كنحـوى ولغـوى يـرى الأصل فيما يـراه النحاة واللغويون.. بينما رأى الأستاذ الجوارى الأصل فيما يضعه القرآن .

ويستطرد الأستاذ عبد الستار الجوارى .

"ومما يقذف بالنحاة فى لجج الحيرة والتخبط قوله تعالى فى سورة النساء :

﴿وَيَسْـتَفْتُونَكَ فِي النِّسَـاءِ قُـلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَـابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحـُوهُنَّ﴾. {127 النساء}..

لأن الفعل "رغب" يصل إلى المفعول بحـرفين يؤديـان معنـيين متعاكسـين ولابد من ذكر أحدهما إذا أريد معنى بعينـه، فـإذا قيل "رغب فى" دل على معـنى الإيجابيـة، وإذا قيل "رغب عن" دل على الرغبة السلبية، وحذف الحرف هنا يوقع فى اللبس على حد ما يزعمون، يقول ابن مالك :

وعد لا زما بحرف جر — فإن حـذف فالنصب للمنجر
نقلاً وفى أن وأن يطرد — مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

ولـذلك يقـول الزمخشـرى فى توجيه هـذه المسـألة: "يحتمل فى أن تنكحـوهن لجمالهن وعن أن تنكحوهن لدمامتهن" .

وكان بعض أساتذتنا يذهب فى تأويل هذه الآية مذهبا آخر فيقول: إن الرغبة ههنا "فى" أو "عن" مستوية، ومن أجل ذلك حذف حرف الجر .

وأحسب أن الأمر هنا أيسر مما يذهبون إليـه، لأن معـنى الفعل أصلا هو المعـول عليه، والحرف هو الذى يحدد علاقته بـالمفعول سـلبا أو إيجابـا، والأصل فى الرغبة هو الذى يحدد علاقته بالمفعول أى أن تكون رغبة فى الشىء .

أما الرغبة عن الشىء فهى الفرع الـذى لا يعـرف إلا بـذكر الحـرف "عن" وهـذا المعنى هو الذى يقتضى إثبـات الحـرف أما حـذف الحـرف فيصـرف معـنى الفعل إلى أصله وهو الرغبة فى الشىء .

وإذن فلا مجال للالتباس على الإطلاق" انتهى[18] .

وأدى تمسك النحـاة بما تواضـعوا عليه إلى الإخلال بـالمعنى القـرآنى، فنجد أبا الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى يقول فى كتاب "معانى الحروف" فى تفســير "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" والمعنى "ولا تلقـوا أيـديكم إلى التهلكـة" لأن بـاء الجر دخلت على المفعول .

وعندما لم يفهموا ضرورة النغم فى التعبير والإيقاع فى السياق وما يـؤدى هـذه المهمة من حروف أو كلمات، زعمـوا أن كل شـىء يوجد لتحقيق ذلـك، ولا يـدخل فى استخداماتهم النحوية، يكون – بتعبيرهم "لغوا" ولم يجدوا حرجا من قول ذلك بالنســبة لنصوص قرآنية.. فنقرأ فى استخدامات "ما" .

"والثانى أن يكون لغوا وذلك نحو قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾. أى فبرحمة.. ومثل ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾. أى بنقضهم .

وأما قوله تعـالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْـتَحْيِي أَنْ يَضْـرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَـةً﴾. ففيه قـولان: أحدهما أن ما لغـو، والتقـدير إن الله لا يسـتحى أن يضـرب مثلا بعوضة والثـانى أن ما نكرة وبعوضة بدلا منها يسد مسد الوصف ويجوز الرفع فى بعوضة من وجهين أحـدهما أن تكون خبر مبتدأ محـذوف على طريق الجـواب كـأن قـائلا قـال ما هـذا المثل فقيل بعوضة، أى هى بعوضة .

والثانى أن تكون ما بمعنى الذى وبعوضة خبر مبتـدأ محـذوف والجملة من صـلة ما والتقدير إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً الذى هو بعوضة[19] .

وعن الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّـالِحُ يَرْفَعُـهُ﴾. قـالوا يحتمل عـود ضـمير الفاعل فى يرفعه إلى ما عـاد عليه ضـمير إليه وهو اللـه، ويحتمل عــوده إلى العمـل، والمعـنى أن العمل الصـالح هو الـذى يرفع الكلم الطيب ويحتمل عـوده إلى الكلم الطيب وهو التوحيد يرفع العمل الصالح .

---

[18] **(18) المرجع السابق ص53- 54 .**

[19] **(19) معانى الحروف تأليف أبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى دار نهضة مصر ص90 .**

فانظر إلى هذه الافتياتات والتعسفات والتعبيرات الركيكة والتفسيرات السقيمة على حين يمر التعبير القرآنى بالنفس مرور النسيم العليل ويـدخل الآذان دخـول النغم الجميل .

وقد يتلطفـون فلا يقولـون "لغـوا" ولكن زائـدة كما قـالوا فى "من" فى قوله تعالى "ما لكم من إله غيره" فى حين أن تركيز الجملة القرآنية يكـاد يتـأتى من حـرف "من" الذى اعتبروه زائدا

ولقد لفت إطلاق تعبير "زائـدة" على حـروف أو كلمـات أوردها القـرآن، ومـدى لياقة ذلك الإمام السيوطى، فأورد فيما يجب على المفسر.. ".. أن يجتنب إطلاق لفظ الزائدة فى كتاب الله، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معـنى لـه، وكتـاب الله مـنزه عن ذلك، ولهـذا فر بعضـهم إلى تعبـير بدله بالتأكيد والصـلة والمقحم، وقـال ابن الخشـاب اختلفوا فى جواز إطلاق لفظ الزائد فى القرآن، فـالأكثرون على جـوازه نظـرا إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم، ولأن الزيادة بازاء الحذف، هذا للاختصار والتخفيف وهذا للتوكيد والتوطئة، ومنهم من أبى ذلك وقال هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جـاءت لفوائد ومعان تخصها فلا أقضى عليها بالزيادة قال والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبـات معنى لا حاجة إليه فباطل، لأنه عبث فتعين أن إلينا به حاجة ولكن الحاجة إلى الأشــياء قد تختلف بحسب المقاصد فليست الحاجة إلى اللفظ الذى عده هؤلاء زيــادة كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه. وأقول بل الحاجة إليه كالحاجة إلى سواه بــالنظر إلى مقتضى الفصاحة والبلاغة وأنه لو ترك كـان الكلام دونه مع إفادته أصل المعـنى المقصـود أبـتر خاليا عن الرونق البليغى لا شبهة فى ذلك، ومثل هـذا يستشـهد عليه بالإسـناد البيـانى الذى خالط كلام الفصحاء وعرف مواقع استعمالهم وذاق حلاوة ألفـاظهم، أما النحـوى الجافى، فعن ذلك بمنقطع الثرى[20] .

وأدت بهم تفريعاتهم إلى تفسيرات باردة، غثة تفتات على المعنى. فالمجــاز فى الــتركيب، ويســمى مجــاز الإســناد والمجــاز العقلى وعلاقة الملابسة مثل ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. نسبت الزيادة وهى فعل الله إلى الآيـات وفى تعبـير "يـذبح أباءهم" و "ياهامان ابن لى"، نسب الذبح – وهو فعل الأعوان إلى فرعـون والبنـاء وهو فعل العملة إلى هامــان، وفى مجــاز إطلاق اسم الكل عن الجــزء وإذا رأيتهم تعجبك أجسـامهم" أى وجـوههم، "فمن شـهد منكم الشـهر فليصـمه" أطلق الشـهر وهو اسم الثلاثين ليلة وأراد جزءا منها كذلك أجاب به الإمام فخر الدين عن استشكال أن الجزاء إنما يكون بعد تمام الشرط والشرط أن يشهد الشـهر وهو اسم لكله حقيقة فكأنه أمر بالصـوم بعد مضى الشــهر وليس كـذلك "ومن مثله إطلاق الجــزء على الكل "فولـوا وجوهكم شطره" أى ذواتكم لأن الاستقبال يجب بالصدر الخ... ومن أسخف ما أثــاروه التساؤل عما إذا كان تعبـير "يا أيها النـاس" يشـمل الكـافر والعبد "لعمـوم اللفظ أو لا يشمل الكافر بناء على عدم تكليفه بالفروع ولا العبد لصرف منافعه إلى سيده شرعا" فهل هناك ما هو أكثر ركاكة ومناقضة لنص القرآن وروح الإسلام من هذا الكلام .

---

20 **(20) الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى – ص182 الجزء الأول .**

وأعياهم جميعاً أن يفهموا حكمة كلمة "ليلاً" فى الآية الأولى لسورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الخ...﴾. لأن السرى لا يكون إلا ليلاً، ومن ثم فإن تكرارها من الناحية اللغوية فحسب يكون لا معنى له، والحق أن القرآن أثبت ليلاً لأن لها ضرورة فى نغم الآية لا يتأتى إلا بها، والقرآن إيقاع وموسيقى كما هو نحو ولغة، ومقتضيات الإيقاع والموسيقى أكثر ضرورة من مقتضيات اللغة، لأنها هى التى توجد التأثير الذى يريده القرآن .

على أن مواقفهم تلك كلها تهون أمام موقفهم تجـاه "لحن القـرآن" كما زعمـوا أى التعبيرات من نوع "إنَّ هذان لساحران" "والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكــاة" "إن الذين هادوا والصابئون" فهنا حطم القرآن أقدس المقدسات النحوية من رفع أو نصب وكـان أهـون عليهم أن يمسـوا قداسة القـرآن من أن يمسـوا أوثـانهم الـتى ظلـوا لها عابدين فأوردوا أحاديث مؤتفكات فرووا عن عـروة أنه سـأل عائشة عن ذلك فقـالت: "يا بن أختى هذا عمل الكتاب أخطـأوا فى الكتـاب" ورووا عن عكرمة قـال "لما كتبت المصــاحف عرضت على عثمــان فوجد فيها حروفا من اللحن فقــال لا تغيروها فــإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من هــذيل لم توجد هذه الحروف"[21]. كما رووا عن أبان بن عثمان يرويه الزبير يقول قلت لأبــان بن عثمان كيف صارت ﴿لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُـونَ يُؤْمِنُـونَ بِمَا أُنـزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ﴾ {162 النسـاء}.. ما بين يديها وما خلفها رفع وهى نصب؟ قال من قبل الكُتـاب كتب ما قبلها ثم قـال ما أكتب؟ قال أكتب "المقيمين الصلاة" فكتب ما قيل له ونسبوا إلى سعيد بن جبير أنه قـال فى القـرآن أربعة أحـرف لحن "والصـابئون" "والمقيمين" "فأصـدق وأكن من الصـالحين" "إن هذان لساحران" .

ومن هذا أيضاً ما أخرجه ابن جرير وسعيد بن منصور فى سننه عن طريق سعيد بن جبـير عن ابن عبـاس فى قوله ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا﴾. قـال إنما هى خطأ من الكاتب حتى تستأذنوا وتسلموا أخرجه ابن أبى حاتم بلفظ هو فيما أحسبه مما أخطأت به الكتـاب وما أخرجه ابن الأنبـارى عن طريق عكرمة عن ابن عبـاس أنه قـرأ ﴿أَفَلَمْ يَتـبين الَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ لَـوْ يَشَـاءُ اللَّهُ لَهَـدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾. فقيل له إنها فى المصـحف ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسْ﴾. فقـال أظن الكـاتب كتبها وهو نـاعس وما أخرجه سـعيد بن منصـور عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقول "وقضى ربك" إنما هى ووصى ربك التزقت الواو بالصاد وأخرجه من طريق الضحاك عن ابن عبـاس أنه كـان يقـرأ ووصى ربك ويقـول أمر ربك إنهما واوان التصـقت إحـدهما بالصـاد وأخرجه عن طريق أخـرى عن الضحاك قال كيف تقرأ هذا الحرف وقضى ربك فقـال ليس كـذلك نقرؤها نحن ولا ابن عبـاس إنما هى ووصى ربك وكـذلك كـانت تقـرأ وتكتب فاسـتمد كـاتبكم فاحتمل

---

21 **(21) الإتقان فى علوم القرآن ج1 ص183 .**

القلم مدادا كثيرا فالتزقت الواو بالصـاد"[22]. فهـذه كلها إما أن تكـون روايـات متهافتة وإما أن تكون من باب "وكم من عـائب قـولا صـحيحا. وآفته من الفهم السـقيم" وهـذا واضح عند مقارنة دعـاوى القـوم بنص التنزيل العظيم تعـالى عما يزعمـون ولا يخالجنا شك فى أن هذا الكلام بأسره موضوع أو موهوم حتى عندما يحكم المحـدثون بـأن فيه ما هو صحيح على شرط الشيخين فلا عائشة ولا عثمان ومن باب أولى عروة وعكرمة وغـيرهم يمكن أن يقولـوا ذلك أو أن يحملوننا على قبوله والأسـهل علينا أن نقـول إن القرآن أراد أن يحطم وثنية هؤلاء النحاة الذين يعبـدون القواعد دون المعـانى كما أراد أن يحطم وثنية الذين يعبدون الملوك والآباء والشموس والأقمار دون خالقها جميعا .

والعجيب أن الذين رووا هذه الآثار أوردوا ما يفندها. فهـذا السـيوطى الـذى نقل كل هذه الروايات يقول "وهـذه الآثـارات مشـكلة جـدا وكيف يظن بالصـحابة أولا أنهم يلحنـون فى الكلام فضـلاً عن القـرآن وهم الفصـحاء اللد ثم كيف يظن بهم ثانيا فى القرآن الـذى تلقـوه من النـبى صـلى الله عليه وسـلم كما أنـزل وحفظـوه وضـبطوه واتقنـوه، ثم كيف يظن بهم ثالثا اجتمـاعهم كلهم على الخطأ فى كتابتـه، ثم كيف يظن بهم رابعا عدم تنـبيههم ورجـوعهم عنـه، ثم كيف يظن بعثمـان أنه ينهى عن تغيـيره ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مـروى بـالتواتر خلفا عن سلف، هذا مما يستحيل عقلا وشرعا وعـادة، وقد أجـاب العلمـاء عن ذلك بثلاثة أجوبة أحدها أن ذلك لا يصح عن عثمان، فإن إسناده ضعيف مضـطرب منقطـع، ولأن عثمـان جعل للناس إماما يقتدون به فكيف يرى فيه لحنا وتركه لتقيمه العـرب بألسـنتها، فـإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم بالخيار فكيف يقيمه غيرهم.. وأيضـاً فإنه لم يكتب مصـحفا واحـدا، بل كتب عــدة مصـاحف، فـإن قيل إن اللحن وقع فى جميعها فبعيد اتفاقهم على ذلك أو فى بعضهم اعتراف بصحة البعض ولم يذكر أحد من النـاس أن اللحن كـان فى مصـحف دون مصـحف ولم تـأت المصـاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القـراءة وليس ذلك بلحن. والوجه الثـانى على تقـدير صـحة الرواية أن ذلك محمول على الرمز والإشارة ومواضع الحذف نحو الكتاب والصابرين وما أشبه ذلك والثالث أنه مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها كما كتبوا لا أوضــعوا ولا أذبحنه بألف بعد اللام وجزاؤا الظالمين بواو وألف وبأييد بياءين فلو قـرىء ذلك بظـاهر الخط لكان لحنا وبهذا الجواب وما قبله جزم ابن اشـته فى كتـاب المصـاحف وقـال الانبـارى فى كتاب الرد على من خـالف مصـحف عثمـان فى الأحـاديث المروية عن عثمـان فى ذلك لا تقوم بها حجة لأنها منقطعة غير متصـلة وما يشـهد عقل بـأن عثمـان وهو إمـام الأمة الذى هو إمام الناس فى زمنه وقدوتهم يجمعهم على المصـحف الـذى هو الإمـام فيتبين فيه خللا ويشاهد فى خطه زللا فلا يصلحه والله ما يتـوهم عليه هـذا ذو إنصـاف وتمييز"[23] .

---

22 **(22) الإتقان ج1 ص185 .**

23 **(23) الإتقان ج1 ص183 .**

وقد أشار أحد الكتاب إلى تخريجات الزمخشرى لتعليل هذه الحالات لمخالفة القرآن على قواعد النحاة بأسس من لغات العرب، ولاحظ هذا الكاتب أن عثمان رضى الله عنه اختار حين كتب مصحفه رجلين هما زيد بن ثابت وكان أكتب الناس وسعيد بن العاصى وكان أفصح الناس وأشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "وما كانت تغيب عن عثمان ولا عمن كانوا مع عثمان يوم شمروا لكتابه المصاحف هذه الاختلافات فى الرسم الإملائى التى ظهرت بعد كتابة المصحف وتمنى عثمان لو لم تكن حين قال "لو كان المملى من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا" .

ثم كيف ترد هذه التى وردت فى الحديث الأول عن عثمان وهو الذى كان من وراء من يكتبان يراجع ما يكتبانه حرفا حرفا وكلمة كلمة ويصلح ما فاتهما وما نظن عثمان ونى فى هذا العبء ولافتر وهو يعلم جده وخطره وهو يعلم المتحفزين به من وراء ذلك على عمل حمل عبئه على الرغم منهم

وأما ما جاء منسوبا إلى عائشة فما أظن عائشة تسكت على خطأ الكتابة فى كتاب الله وترضى به يشيع ويخرج من المدينة إلى الأمصار ولم تكن بعيده عن عثمان ولا عن الصحابة الكاتبين وما أظنها كانت أقل منهم حرصا على سلامة كتاب الله .

وأما عن تلك التى ينسبونها لأبان بن عثمان فلا أدرى كيف جاءت على لسانه مع العلم بأنه ممن لم يشهدوا عصر التدوين ولا كان حاضرا ذلك فقد كانت وفاته سنة 105 وعثمان مات سنة 35 .

وبعد فهذا الذى نسب إلى أبان استنباط لا رواية مأثورة وهذا الاستنباط الذى استنبطه لا يصح إلا عن مشاهدة أو سماع عن مشاهدة وكلاهما لم يتوفر لهذا الحكم"[24] .

* * *

وتحدث مؤلف **"نظرية النحو القرآنى – نشأتها وتطورها ومقوماتها الأساسية" الدكتور أحمد مكى الأنصارى** عن موقف النحاة من الصياغة النحوية القرآنية فقال :

1. قسم ارتضاه النحويون ووافقوا عليه لأنه اتفق مع قواعدهم النحوية
2. وقسم لم يرتضوه لأنه اصطدم بالقواعد النحوية فوقفوا منه مواقف ثلاثة تتمثل فى الظواهر الآتية .

1) ظاهرة المعارضة الصريحة .
2) وظاهرة المعارضة الخفية .
3) وظاهرة التأويل[25] .

---

[24] **(24) الأستاذ إبراهيم الإبيارى – فى كتابه "تاريخ القرآن" صفحات 104- 105 / 110- 111 بتصرف .**

وقال إن العصبية المذهبية دفعت ببعض النحاة لأن يصفوا اللغة الـتى جـاءت بها بعض القـراءات القرآنية بـالرداءة أو لحنـاً. فعنـدما لم يجـوِّزوا تحقيق الهمـزتين إن لم تكونا عينين وأن الهمزتين – على ما قـال ابن جـنى "لا تتقيـان فى كلمة واحـدة أن لم تكونا عينين نحو سئّال وسئّار، فإنهم مـدوا حكمهم هـذا على كلمة "أئمـة" الـتى تكـرر ورودها فى القـرآن، فلما جـاءهم الإبـدال (أى إبـدال الهمـزة الثانية يـاء فى كلمة أئمة وصفوه باللحن أيضاً وقال الزمخشرى "فأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحن محرف" .

ويقول مؤلف "نظرية النحو القرآنى" .

"وقـريب من هـذا، أو أشد منه مـوقفهم من قـراءتين سـبعيتين جاءتا فى قوله تعالى ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَـاحِرَانِ﴾. حيث قـرئت كلمة "هَـذَانِ" بـالألف مع تشـديد النـون من "إن" فى قــراءة سـبعيه متــواترة، بل فى قــراءات متعــددة، فعارضــها بعض النحــاة معارضة صريحة، بل أنكروها إنكـاراً تامـاً وقـالوا إنها ليست من القـرآن لأنها غلط من الكاتب .

فلما جاءتهم قراءة سبعيه أخرى بالياء "هذين" عارضوها أيضا معارضة صريحة.. وقالوا: إنها "غلط من الكاتب" أيضا .

وكان من القواعد التى تمسك بها النحاة أنه "لا يجوز عطف الاسم الظـاهر على الضـمير المخفوض إلا بعد إعـادة الخـافض" ولكن آية ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَـاءَلُونَ بِـهِ وَالأرْحَامَ﴾. جرت الأرحام عطفاً على الضمير المخفوض بدون إعادة الخافض وهى كما يقول مؤلف نظرية النحو القرآنى قراءة جماعة من كبار الصحابة والسلف الصـالح من أمثال ابن عباس والحسن البصرى والنخعى وقتاده والأعشى ويحـيى بن وثـاب وطلحة بن مصرف ورواية الأصفهانى والحلبى عن عبد الوارث، وجملة القـول – كما يقـول أبو حيان – أنها قراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بها سـلف الأمـة، واتصلت بأكابر الصحابة مثل عثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثـابت وأقـرأً الصـحابة أبى بن كعب" .

ويستطرد مؤلف "نظرية النحو القرآنى" .

مع كل هذا التوثيق الدقيق لهذه القراءة المحكمة المتواترة رفض جمهور النحاة أن يتخذوها أساسـاً للتقعيـد، واكـثر من هـذا أنهم ردوها أو ضـعفوها كما أنهم خطئوها وحرموا القراءة بها تحريماً قاطعاً ولهذا قال المبرد .

"لو إنى صليت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتى وحملت نعلى ومضيت" .

وقال النحويون "لا يجوز الفصل بين المتضايفين فى النثر مطلقاً" ولكن جاء فى القـرآن ﴿وَكَـذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِـيرٍ مِنْ الْمُشْـرِكِينَ قَتْـلَ أَوْلادِهِمْ شُـرَكَاؤُهُمْ﴾. فى قـراءة بن

---

[25] **(25) "نظرية النحو القــرآنى نشــأتها وتطورها ومقوماتها الأساســية" تــأليف الدكتور أحمد مكى الأنصارى – دار الفيلة للثقافة الإسلامية سنة 84 ص157 .**

عامر، وهى قراءة سبعيه محكمة فقال الزمخشرى "وأما قـراءة ابن عـامر فشـىء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر لكان فى قول الشاعر مردوداً "زج القلوص إلى مـــــزادة" فكيف به فى الكلام المنثـــــور، والـــــذى حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف "شركائهم" مكتوبا بالياء .

ومن أمثلة ذلك أيضـاً أن النحـاة يقولـون تضـاف مائة إلى المفـرد، ولا تجــوز إضـافتها إلى الجمـع. ولكن القـرآن قـال ﴿وَلَبِثُـوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِـنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. وعارض كثير من النحويين هذه الصياغة القرآنية، وحكمـوا عليها بالخطأ فقـالوا "وقد قرأ بعض القراء بالإضافة فقالوا "ثلاثمائة سنين" وهذا خطأ فى الكلام غير جـائز، وإنما يجوز فى الشعر للضرورة .

نقـول إن عبـدة القواعد هـؤلاء اعتـبروا القـرآن نـثراً، وحرمـوا عليه ما أجـازوه للشعر وفاتهم أن القرآن ليس نثراً، وإن لم يكن شـعراً، ولكنه نظم فذ لم يسـبق، ولم يلحق ولا يجوز أن تجرى عليه قواعدهم الغثة كما لم يفطنـوا إلى أن من الأسـاس فى الصياغة القرآنية تحرى اتساق تـركيب الكلمـة، وأن يكـون لها وقع موسـيقى ولو قـال القرآن "ثلاثمائة سنة" لما اختلف عن كتاب حساب يدرس للصبيان... فأنى يؤفكون ...

وقال النحويون "لا يجوز وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب" مع أن فى القـرآن الكريم ثمانى عشرة آية وقع فيها الاستثناء المفرغ بعد الإيجـاب مثل ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِـيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. و ﴿لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ .

ومن قواعدهم يجب فتح ياء المتكلم ولا يجوز كسرها فى نحو مصرخى { سورة إبـراهيم آيه 22} وتبعا لهـذا أنكروها ورموها بـالقبح واللحن والـرداءة والغلط والـوهم والشذوذ وقالوا " إنها رديئة مرذولة " ..

وقال النحاة "يمتنع وقوع "كل" المضافة للنكرة مفعولاً به، مع أن هـذا أمر جـاء فى القرآن الكريم 37 مرة.. وجاءت خمس مرات فى سورة الأنعام.. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها. {25} وسـع ربـى كل شئ علمـاً. {80} وحشـرنا عليهم كل شئ قبلا.{111} وخلق كل شئ. {101} وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر. {146} .

وضرب المؤلف مثلاً لمعارضة النحاة "ما جاء فى تحقيق الهمزتين فى مثل أئمة فى قـراءة سـبعيه متـواترة.. بل فى قـراءات متعـددة متـواترة..، ومع ذلك وصـفوها باللحن بحجة أنها لا تتفق مع القيـاس.. ونسـوا أن السـماع الصـحيح الكثـير المتـواتر.. فوق كل قياس، لأن اللغة تثبت بالسـماع الصـحيح الكثـير قبل أن تثبت بالقيـاس.. وما أجمل المبدأ القائل : "مقياس الترجيح هو السماع الصحيح" ..

وقد وضع مؤلف "نظرية النحو القـــرآنى" أربعين تعـــديلاً لأربعين قاعدة من قواعد النحاة لتتفق هذه القواعد مع ما جاء به القرآن.

إن الشُقة بعيدة بعيدة بين النحاة الـذين يحـترفون النحو ويتشـبثون بقواعـدهم.. والقـرآن العظيم الـذى لا ينظر إلى اللغة إلا كـأداة لإحـداث الأثر أو توصـيل المعـنى،

وعندما تضيق اللغة العربية كلها، أو لا يجد التعبيرات أو الألفاظ التى يريـدها بعينها فإنه يستحدث ألفاظاً، أو يستخدم كلمات لها أصول غير عربية وقد كتب الشـيخ حمـزة فتح الله كتيباً بعنوان "الأصل والبيان لمعرَّب[26] القرآن" تضمن أكـثر من مائة لفظة أعادها إلى أصول غير عربية.

وتجـدر الإشـارة إلى أن بعض قـدامى النحـاة كالإمـام السـكاكى، انتهـوا بعد المسـيرة النحوية البلاغية الطويلة وتعليل الإعجـاز اللغـوى للقـرآن إلى أن الأفضل هو عدم تعليل الإعجاز لأن الإعجاز يدرك ولا يمكن وصـفه ولأن ما يـدرك هو الـذوق، ومن هنا كان معظم الكتـاب والأدبـاء المحـدثين أكـثر توفيقا من أسـلافهم النحـاة فى تعليل الإعجاز القرآنى، إذ أخـذوا بما انتهى إليه السـكاكى، ولم يكـدوا الـذهن فى تتبع ما فى الاستخدام القرآنى الفريد للحروف والكلمات، وما فيه من وجـوه البلاغة من اسـتعارة أو تشبيه أو مجاز الخ... وآثروا إعادة الإعجاز بأسره إلى عامل أكـثر أصـالة مما تواضع عليه البلاغيون أنفسهم .

(3)

مزالق المفسرين القدامى

ب. لمذهبيون

أما أصحاب المذاهب فى العقائد، وخاصة ما يتعلق بذات الله تعالى فقد أخـذهم هوس بقضية الصفات ما بين ناف لها ومثبت إياها. وهى قضية كان يفـترض أن لا توجد أصلا بين المفكرين الإسلاميين لأن القرآن قد أوضح أن الاستدلال على الله يكـون عن طريق النظر فى بدائع خلقه وروائع صـنعه من شـموس وأقمـار وبحـار وأنهـار وجبـال وأمطار وحيوان وأشـجار وحيـاة بعد مـوت ومـوت بعد حيـاة والسـنن والقـوانين الـتى وضعها الله لها وللمجتمعات الإنسانية، واسـتبعد صـراحة إمكـان العقل البشـرى إدراك ذات الله وكنهه عنـدما قـال "لا تدركه الأبصـار" "ليس كمثله شـىء" ﴿فَلا تَضْـرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾. ثم جاءت السُنة مؤكدة هذا النهج آمرة المسـلمين أن لا يبحثـوا فى ذات الله وإنما فى آلاء ونعم ومخلوقات الله. فكان يجب الوقوف عند هذا ليس فحسب لوجوب الامتثال للقرآن والسُـنة – وإن كـان هـذا فى حد ذاته كـاف – ولكن أيضـاً لأن الـذهاب أبعد من ذلك لن يكون إلا نوعا من التعسف وتسخير العقل فيما هو غير مؤهل له، وما يخالف مقوما من مقومات الإيمان بـالغيب وليس غيبا ما يدركه النظر العقلى أو النظر العينى .

وبعد هذا كله، فإن آيـات الصـفات لم تكن لتسـتحق هـذا الجـدل، فضـلاً عن أن تكون محوراً لفرقة عظيمة لأن أى عارف بالأساليب العربية، بل إن أى قـارئ للقـرآن يعلم أن القرآن يستخدم.. المجاز والتشبيه والاستعارة الخ... وقد جـاءت فيه ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَـةِ﴾. و﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْـطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْـطِ الأَسْـوَدِ﴾. و

[26] **(26) الأصل والبيان المعرَّب القرآن تأليف فضيلة الأستاذ المرحوم الشـيخ حمـزة فتح الله علق عليه محمد إبراهيم وراجعه الشـيخ محمد عبد المطلب. مطبعة مصر الحرة بحارة عمر شاه رقم 15 بالسيدة زينب بالقاهرة (بدون تاريخ) .**

﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾.و﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾. و﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. الخ... وعندما يتضمن القرآن آيات مثل ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. أو ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾. أو ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾. أو ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ .﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. فمن المفهوم بداهة أنه يستخدم هذه العبارات، كما استخدم العبارات السابقة (جناح الذل – الخيط الأبيض..) لمجرد إعطاء المعنى المطلوب، وأن التشبيه باليد والعين يعود إلى أن اليد هى أداة الفعل والبطش، وأن العين هى أداة النظر. فلما أراد القرآن أن يقرب قوة الله تعالى ومقدرته إلى الأذهان استخدم هذه التشبيهات ليعطينا المعنى بالألفاظ التى نفهمها دون أن تكون الحقيقة الإلهية هى ما نفهمه نحن من تعبيرات اليد والوجه.. لأن ذاته تعالى هى مما تعجز العقول عن تصورها فليس هناك إشكال، ولأن القلب المؤمن، والفطرة العربية السليمة لا تتجاوب فى مضمون كلمة وجه أو يد بالنسبة لله تعالى. وإنما هى تتجاوب مع التأثير الذى أراده القرآن .

وقد ذكر القرآن الكريم اليد بصفتها الرمزية فى مواضع عديدة مثل:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(41) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ **بَيْنِ يَدَيْهِ** وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. {42 فصلت} ..
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي **بَيْنَ يَدَيْه** ..﴾. {31 سبأ} ..
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا **بَيْنَ يَدَيْ** رَحْمَتِهِ...﴾. {48 الفرقان}
- ﴿إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ **بَيْنَ يَدَيْ** عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. {46 سبأ} ..
- ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا **بَيْنَ يَدَيْ** نَجْوَاكُمْ﴾. {13 المجادلة} ..

ولكن كما ذكرنا، لم يكن من السهل على محدثى الإسلام أن ينسوا رواسبهم، أو أن يفهموا التعبير العربى بالإضافة إلى الذين أرادوا أن يكيدوا للإسلام غداة انتصاره واكتساحه للروم والفرس الخ... مع جهالة العامة، وغلبة السفسطة على الفكر الإسلامى حينا من الدهر. وكانت النتيجة أن أصبحت قضية الصفات مسألة المسائل ومحك الاعتقاد ووجدت "مجسمة" يؤمنون بأن لله يدا وأذنا وعينا.. وأنه يجلس على العرش الخ... كما وجدت معتزلة يستبعدون استبعادا تاما كل هذه الصفات بحيث كادوا عندما نفوا رؤية الله تعالى أن يصلوا إلى مشارف التجريد الفلسفى الذى يجعل الله بلورة للمثل الأعلى.. وما بين ذلك من مذاهب أقرب إلى هذه أو تلك وظل الخلاف قائما من القرن الأول الهجرى حتى السنوات الأولى للحكم السعودى فى الحجاز عندما كان السؤال "ماذا تقول فى الاستواء" هو الامتحان العام لكل مرشح لوظيفة وكان الرد المرضى هو مؤهل التعيين سواء كان مدرسا أو طبيباً أو مهندسا .

وكـانت وجهة نظر المعتزلة أن هـذه الصـفات مما لا يمكن أن تنسب إلى الله تعـالى واضـطرهم هـذا التعسف فى تفسـير بعض العبـارات الـتى جـاءت فى القـرآن. فقـالوا فى تفسـير الآية ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَـى تَكْلِيمًا﴾. أن "كلم" ليست من "الكلام" بمعنى الحديث أو الكلام، ولكنها من "الكلم" بفتح الكاف وسـكون اللام بمعـنى الجـرح وقالوا إن المعنى هو جرح الله لموسى بأظفار المحن ومخالب الفتن .

"ومثل هذا ما فعلوه فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْـفٌ﴾. فبـدلا من أن يقـرأوا كلمة غلف بضم الغين وسكون اللام قرأوها بضم الغين واللام أى جمع غلاف أى وعاء. كأنهم يفتخرون بـأن قلبـوهم أوعية للعلم، وإنما لجأ المعتزلة إلى هـذا التحرير حـتى لا يقال أن طبيعة قلوبهم هى المـانع من قبـول الإسـلام فلا يكـون عليهم ذنب فى الكفر لأنهم هكذا خلقهم الله"[27] .

وعلق الشريف المرتضى على الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَـانَ رَبِّهِ كَـذَلِكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشَـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِـينَ﴾. {24 يوسف}.. "أنه إذا ثبت بأدلة القبول التى لا يدخلها الاحتمال والمجاز ووجـوه التـأويلات أن المعاصى لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام صـرفنا كل ما ورد ظـاهره بخلاف ذلك من كتـاب أو سُـنة إلى ما يطـابق الأدلة ويوافقهـا، كما يفعل ذلك فيما يـرد بظـاهره مخالفا لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى وما يجوز وما لا يجوز"[28] .

فهذا النص يتضمن التباسات التبست على الشريف المرتضى فى شقى حديثـه. فـالزج بتعبـير "المعاصـى" بصـدد الآية ﴿وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِهَا﴾. مما لا ينطبق على مضـمون الحـدث، فليس هو "معصـية" يتـوفر لها العمد والإرادة، كما تـوحى كلمة "معصية" قدر ما هو تراخ فى لحظة ضعف، والأنبياء بعد بشر، وقد أكد القـرآن بشـرية الأنبياء وجوز عليهم فى غير تأديتهم لرسالتهم – الضعف والخطأ وتحـدث عن خطيئـات آدم وموسى وسليمان وداود وذى النون الخ... وقال شاملا كل الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّـيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ فَيَنْسَـخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. {52 الحج} ..

وإذا كـان الأنبيـاء معصـومين، فبرحمة الله ورعايته لهم كما توضح ذلك تعبـيرات "لولا أن رأى برهان ربه" كذلك "لنصرف عنه السوء والفحشاء" وهنـاك بعد تفرقه بين التصرف الخاص للنبى الذى يصدر عن إرادته وشخصه، وبين تبليغ الرسالة التى يـوحى بها الله إليه .

فالشق الأول من كلام الشريف المرتضى بالطريقة التى ساقها لا يسـتقيم لا مع ظاهر الآيات ولا ما تشـترطه العقـول فى الأنبيـاء.. والشق الثـانى أيضاً إبهـاظ للعقل البشرى بما ينوء به. وما يمكن أن يتخبط فيه عندما يتحكم فى صفاته تعالى. وما يجوز عليه أو ما لا يجوز لأن أكثر ما تدعيه العقول. وما يـدور عليه صـلاح الـدنيا بأسـرها وما

[27] **(27) قصة التفسير للشيخ أحمد الشرباصى ص113 .**

[28] **(28) أمالى المرتضى ج2 ص125 – 129 .**

رفعته عاليا المعتزلة بالـذات وهو العـدل كما نعرفه – لا يمكن أن نلـزم به الله تعـالى لأن أحكامنا لا تخلو من خطأ أو قصور فى تصور العدل وتعريفنا له. وهى مقيدة بعالمنا هـذا ومقصـورة عليـه. وليست هى بالمعصـومة. وقد تطـرقت "النسـبية" حـتى إلى المبادئ الحسابية والرياضية. والأمر بالنسـبة لله تعـالى أعظم من ذلك ولله تعـالى أن يصف نفسه بالعــــدل ولكن ليس لنا أن نلزمه العــــدل. ونحن لا نخلق الله كما يخلق الفلاسـفة "الفكـرة" ولكن الله تعـالى هو الـذى يخلقنـا. وقصـارى ما نصل إليه هو أن نكتشف جانبا من جوانب عظمته، وقد يجاوز عدل الله حـدود العـدل إلى الرحمة وإلى العفو وإلى إثابة المحسن بسـبع مائة ضـعف وهو ما يخـالف مقـاييس العـدل والـوزن مثقال ذرة .

وليس معــنى هــذا أن نســتبعد حكم العــدل ولكن أن نســتهدف به كما يوجهنا القــرآن الحكـام والنظم. وليس الله تعـالى، ويكـون ما نعمل له ونركز عليه هو إقامة جادة العدالة فى الدنيا. وتصحيح النظام بما يحقق ذلك. وإلـزام الحكـام بـه. وليس أن نحقق ما إذا كان الله تعالى يدخل الجنة مسيئا أو يدخل النار محسنا، فالله تعالى أعلم وهو بعد يفعل ما يشاء. وتركيز الحديث حول هـذه المسـألة يبعـدنا عن المسـألة الـتى تهمنا حقا وهى العدل فى الحياة الدنيا. وكـان جـديرا بالمعتزلة أن يتسـاءلوا عن عـدل الخلفـاء بـدلاً من أن ينفقـوا أعمـارهم فى قضـية ذهنية جدلية ليس لها أثر عملى فى حياة الناس .

وفى مقابل المعتزلة نجد الحنابلة ومنهم إسـحاق المـروزى يقولـون فى تفسـير الآية ﴿وَمِنْ اللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِـهِ نَافِلَـةً لَـكَ عَسَـى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّــكَ مَقَامًا مَحْمُـودًا﴾. {97 الإسراء}.. إن المقام المحمـود هو قعـود النبى على العـرش يـوم القيامـة. ولما قـال الطبرى إن حديث الجلوس على العرش محـال "ثـار عليه طائفة من الحنابلة وقـذفوه بالمحابر وقذفوا داره بالحجارة" .

وتفاقم الأمر، بحيث "عَدَلَ ببعض الآيات عن معانيها وأغراضها التى سيقت لها". على ما ذكر الشـيخ شـلتوت ويسـتطرد الشـيخ فيقـول: "وكثـيرا ما تفسر الآية على مقتضى القواعد الأصــولية الــتى استخلصــها أربــاب المــذاهب من الفــروع الفقهية واتخذوها أصـولا تحـاكموا إليها فى فهم القـرآن والسُـنة واسـتنباط الأحكـام. ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام. بل تعـدى إلى العقائد وآراء الفـرق، فـتراهم يقولـون هذه الآية لا تتفق ومذهب أهل السُنة فهى مؤولة بكذا وكذا. وكما يقولـون هـذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا. وكما يقولون هـذه الآية أو تلك الآيـات – وربما نيفت على السبعين – لا تتفق ومشروعية القتال فهى منسوخة .

وهكـذا صـار القـرآن فرعا بعد أن كـان أصـلاً وتابعا بعد أن كـان متبوعا وموزونا بغيره بعد أن كان ميزانا. يقـول الله تعـالى: ﴿فَـإِنْ تَنَـازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾. {59 النساء}.. والرد إلى الله هو الــرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته الصحيحة. ولكن هؤلاء عكسوا القضية

وقلبوا التشريع وردوا كتاب الله وسُنة رسوله إلى ما لهم من آراء ومن مــذهب". انتهى .

من أجل هـذا، فـإن كل ما سـود به المفسـرون والعلمـاء صـفحاتهم عن آيـات الصفات أمر لا داع له، بل هو إهـدار للجهـود والـتزام بما لا يلـزم، وهو أمر دخيل على قضية الإيمان، وليس من أركانه كما وهموا. وصرف النظر عن هذه القضية أجدى حتى من محاولة تفنيد الخطأ فيها لأن التفنيد سيسـتنزل الفقهـاء والمفسـرين إلى الحـديث بلغة المخالفين واستخدام أسلحتهم وهو ما لم يوصلهم إلى طائل .

وقد كــان هــذا هو المــأزق الــذى وقع فيه المتــأخرون من سُــنة أو معتزلة أما المتقــدمون فقد عصــمهم إيمــانهم وجعلهم ورعهم يرفضــون القضــية أصــلا، وكــان للمتأخرين مندوحة ويسعهم ما وسع أسلافهم .

* * *

ولن نعرض هنا كما يعـرض الآخـرون، لبعض تفسـيرات الشـيعة فالشـيعة مثلهم كمثل بقية المـذاهب لهم اجتهـاداتهم. أما ما يروونه من أقاصـيص الغلـو، فلا يجـوز أن تنسب إلى الشيعة أو تبوء بها، وإنما هى من آثار ما يتورط فيه كل كفاح سرى يتعرض لاضطهاد طويل. ثم لما أذن الله تعـالى بانتصـارها على يد الدولة الصـفوية. فـإن هـذه الدولة دخلت فى صــراع حيــاة أو مــوت مع الدولة العثمانية ونشر حكامها نوعــاً من الدعاية السياسـية تقـوم على تجـريح المـذهب الحنفى – وهو المـذهب المقـرر للدولة العثمانية – واختلقت أقاويل وادعـاءات لا يمكن أن تفهم إلا فى ضـوء احتـدام العـداوة السياســية بينما هــذه كلها لا تحسب على فكر الشــيعة، ولكن على سياسة الحكــام الصفوين الذين انحرفوا بالمذهب .

والشــيعة اليــوم غــير الشــيعة الصــفوية وهم يضــمون مجموعــات من أفضل المثقفين الــذين يلمــون بفكر العصر وثقافته ويعملــون لتقــويم المــذهب. ودولتهم هى إحـدى آمـال العـالم الإسـلامى، فلا داعى لإثـارة الأحقـاد القديمـة، ونحن نريد أن نوحد العالم الإسلامى. نعيش حاضره ونواجه تحدياته.. لا أن نحيى الماضى المندثر.

* * *

وإذا كنا قد أعرضنا عن الإشارة إلى تفسير الشيعة للاعتبارات التى قدمناها فإننا نرى أن من المهم أن نشير إلى ما أحدثه الخوارج من تفسير، لأن هـذا التفسـير يمكن أن يعد بداية لفكرة التكفـير، الـتى جعلت شـعارها "لا حكم إلا للـه" والـتى طـويت مع الخوارج ثم عادت مرة أخرى مع الجماعات الإسلامية الشاردة – أو الرافضة الجديدة – كما أطلقنا عليها. فقد ذهب الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة يصبح كافراً. ومثلها سـائر الذنوب إن لم يتب منها، إذ لا فرق بين كبيرة وصغيرة، وكذلك اعتبار مخالفيهم كفــاراً، ومن الشاذ العجيب تفسيرهم قول ﴿الله هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَـافِرٌ وَمِنْكُمْ مُـؤْمِنٌ﴾. وهذا يقتضى فيما يرون أن من لم يكن مؤمنا فهو كافر. فالناس فريقان لا ثالث لهمــا، كما فى قوله تعــالى ﴿يَـوْمَ تَبْيَضُّ وُجُـوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُـوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْـوَدَّتْ وُجُـوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقـُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفـُرُونَ﴾. {106 آل عمران}.. وفى آية

﴿وُجُــوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْـفِرَةٌ(38) ضَـاحِكَةٌ مُسْتَبْشِـرَةٌ﴾. {39 عبس}.. قسـموا الوجـوه إلى وجوه مؤمنة، ووجوه كافرة ..

وذهبوا إلى أن قول الله تعالى ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ﴾. يقتضى أن لا يكون جزاء إلا على الكفر.. وقيل مثل ذلك عن ممن ثقلت موازينه ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُـونَ(102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنفُسَـهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِـدُونَ(103) تَلْفَحُ وُجُـوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُـونَ(104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُـونَ﴾. {105 المؤمنون} ..

كما أنهم لم يجـيزوا ما أضـافته السُـنة من تشـريع إلى القـرآن. كتحـريم جمع المـــرأة على عمتها أو خالتهـــا، وعلى تنزيل بنت البنت وبنت الابن منزلة البنت، وأن المعاملة فى الأصول والفروع تجرى على هذا النحو .

وفى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾. أوجبوا حد القذف، ورد الشهادة، والحكم بالفسق على قـاذف المحصـنة فحسب، أما قاذف المحصن فلا حد عليه إذ لم يرد له ذكر فى الآية[29].

وفى قوله سبحانه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَـدَكُمْ الْمَـوْتُ إِنْ تَـرَكَ خَيْـرًا الْوَصِـيَّةُ لِلْوَالِـدَيْنِ وَالأَقْـرَبِينَ﴾. قـرروا أن الوصـية واجبة للوالـدين مع كونهما وارثين، ولا عـبرة عندهم لما تقرر فى حديث: "لا وصية لوارث" فلا يحجب الوالدان عن الميراث ولا عن الوصية فى كل حال[30]

كما لم يــذهبوا إلى رجم الــذانى المحصــن، إذ لا يــذكر له فى القــرآن وحكمــوا بتكفير على وعثمـان والحكمين وأصـحاب الجمل وصـفين وكل من رضا بـالتحكيم مما يستتبع بالطبع عدم الأخذ بمروياتهم .

وإن كان يذكر لهم بالشكر أنهم رأوا وجوب الخروج على السـلطان الجـائر، وأن تكون الخلافة للأكفأ من المسلمين وليس حصرها فى قريش. كما ذهب الجمهور .

وما دمنا قد ذكرنا تفسير بالمعتزلة، والخوارج والحنابلة، فلا بأس بأن نقدم مثالاً لتفسير بعض فلاسفة الإسلام وهو تفسير ابن سينا للآيات ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَا كَـوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُـورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. {53 النور}..

"... فـالنور إما ذاتى أو حقيقى، أو مسـتعار، والمسـتعار إما الخـير وإما السـبب الموصل إلى الخـــير. وفسر الســـموات والأرض بأنها الكـــل. والمشـــكاة هى العقل

---

[29] **(29) انظر مـدخل إلى منـاهج المفسـرين تـأليف الـدكتور محمد السـيد جبريل – أستاذ بكلية أصول الدين ص171 .**

[30] **)30) وقد نقل العلماء مثل الشيخ محمد أبو زهرة فى تاريخ المـذاهب الإسـلامية، والدكتور الذهبى فى: التفسير والمفسرون، هذه الأنمـاط من تفسـيرهم للآيـات القرآنية، وأكثرها من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .**

الهيــولانى ومفتــاح العقل المســتعار والزجاجة بالواســطة، وشــجرة مباركة بــالقوة الفكرية، والنار بالعقل الكلى المدبر للعالم المشاهد. وهو النفس الكلية عند أفلاطون" .

وأدلى الصـوفية بـدلوهم فى التفسـير، ولما كـان التصـوف يقـوم على العاطفة والـذوق فإنه عـادة يفقد الضـوابط الـتى تضـعها الشـريعة، وقد يكشف هـذا لصـاحبه مجالات جديدة، ولكن يغلب أن يجمح به إلى بيداء الفكر.. وما يـؤدى إليه الاجتهـاد إلى خروج وشذوذ قد يصل به إلى وحدة الوجود.. وهذا مذهب فى الفلسفة وليس اجتهـاداً فى الدين وقد أُوتيت الصوفية منـه، ومع أن الـذين ذهبـوا هـذا المـذهب واعتقـدوا "أن ليس فى الجبة إلا الله" على ما قال الحلاج. وابن عربى، وابن سـبعين أوجـدوا تصـوفاً يخرج فعلاً عن الحدود. فقد يكـون لهم جـوانب أخـرى يمكن أن تصل إلى المثالية كما فى أبيـات ابن عـربى المشـهورة عنـدما يقـول "أدين بـدين الحب أنى تـوجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى" كما نجد فى تائية السلوك لابن الفارض ما يماثلها لكن يظل بعد هذا أن الأديـان وإن كـانت شـرعة تحرير إلا أن نظمها ومنهجهـا، وضـوابطها، هو مما لا يمكن صرف النظر عنه كلية وهذا ما نفتقده فى انطلاقة الصوفية فى متاهــات النفس وتيارات العاطفة .

واعتـبر مؤلف "مـدخل إلى منـاهج المفسـرين" تفسـير شـهاب الـدين الألوسى المتوفى سـنة 1270 هــ بـالكرخ (بغـداد) المسـمى روح المعـانى فى تفسـير القـرآن العظيم والسبع مثانى" من التفاسير الصوفية إلى حد ما، وهو من أكـبر التفاسـير "فى ثلاثين جزءاً" فإن صاحبه تـأثر بالطريقة النقشـبندية وتتلمذ على يـدى أحد شـيوخها هو الشـيخ خالد الكـردى الـذى قـال عنه "هو الحـائز للحكمـتين العلمية والعمليـة، الفـائز بالرئاستين الظاهرية والباطنية، فلا يرى مكرمة إلا ومصيرها إليه، ولا منقبة إلا وروافها ممدود وهى مقصورة عليه، وينشد فيه قائلاً :

فلى فيه أستاذ ولى فيه مرشد ولى فيه قطب ذو اتصال ولى ولى

واقتبس مؤلف مناهج المفسـرين بعض مقـاطع توضح التفسـير "الإشـارى" من ذلك فى تفسير الآية 3 من سورة المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَـةُ وَالـدَّمُ وَلَحْمُ الْخِـنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَـةُ وَمَا أَكَـلَ السَّـبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُـبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِـمُوا بِـالأزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْـقٌ الْيَـوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَــرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَــوْهُمْ وَاخْشَــوْنِي الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْـرَ مُتَجَـانِفٍ لِإِثْمٍ فَـإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قال ...

حرمت عليكم الميتة – وهى خمود الشـهوة بالكليـة، فإنه رذيلة التفريط المنافية للعفة – والدم – وهو التمتع بهوى النفس – ولحم الخنزير – أى سـائر وجـوه التمتعـات بالحرص والشره وقلة الغيرة – وما أهل لغير الله به – من الأعمـال الـتى فعلت ريـاءاً

وسمعة – والمنخنقة – وهى الأفعال الحسنة صورة مع كمون الهوى فيها – والموقــوذة – وهى الأفعال التى أجبر عليها الهوى – والمتردية – وهى الأفعـال المائلة إلى التفريط والنقصان – والنطيحة – وهى الأفعال التى تصدر خوف الفضـيحة وزجر المحتسب مثلا – وما أكل السبع – وهى الأفعال التى من ملائمـات القـوة الغضـبية من الأنفة والحمية النفسانية – إلا ما ذكيتم – من الأفعال الحسنة الـتى تصـدر بـإرادة قلبية لم يمازجها ما يشينها – وما ذبح على النصب – وهو ما يفعله أبناء العادات لا لغرض عقلى أو شــرعى – وان تستقسموا بالأزلام – بأن تطلبوا السعادة والكمال بـالحظوظ والطوالع وتـتركوا العمل، وتقولوا: لو كان مقدراً لنا لعملنا، فإنه ربما كان القـدر معلقـاً بالسـعى – ذلكم فسق – خروج عن الدين الحق، لأن فيه الأمر والنهى والاتكـال على المقـدر – اليـوم – وهو وقت حصول الكمال – أكملت لكم دينكم – ببيان ما بينت – وأتممت عليكم نعمتى – بذلك أو بالهداية إلى – ورضيت لكم الإسلام دينا – أى الانقياد للإمحاء – فمن اضــطر – إلى تناول لذة فى مخمصة، وهى الهيجان الشديد للنفس – غير متجـانف لإثم – غـير منحرف لرذيلة – فإن الله غفور رحيم – فيستر ذلك ويرحم بمدد التوفيق"[31] .

واستشهد مؤلف "مدخل إلى مناهج المفسـرين" بآيـات أخـرى مثل الآيـات ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْـرَاهِيمَ مُصَـلًّى وَعَهِـدْنَا إِلَى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَـاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّـجُودِ**(125)** وَإِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَـالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَـذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِـيرُ﴾. {126 البقـرة}.. وقيل الآية ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيـلٌ صِـنْوَانٌ وَغَيْـرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. {4 الرعد}.. مما يضيق المجال عن إيراده[32] .

وأثر الصوفية بارز بالطبع، وقد اعترف هو نفسه فى مقدمه تفسـيره "وأما كلام السادة الصـوفية فى القـرآن فهو من بـاب الإشـارات إلى دقـائق تنكشف على أربـاب السلوك، ويمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمـال الإيمـان ومحض العرفان لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا، وإنما المراد البــاطن فقط – فهو إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفى للشريعة بالكلية، وحاشى سـادتنا من ذلك"[33] .

وعقب على ذلك الشيخ محمد الفاضل بن عاشـور بعد أن ذكر احتيـاط الآلوسى لنفسه فى إيراده التفسـير الإشـارى.. "ومع ذلك فـإن هـذا الاحتيـاط لم ينفعه لأنه فى إيراد الإشارات متجنباً استفادتها من دلالة اللفظ قد فتح خرقاً جديداً يقتضى أن هنالك طريقاً لاستفادة المراد غير مقتضى الألفاظ، وهو خروج عن قواعد أهل السُـنة فى أن الإلهام ليس من أسباب المعرفة، وإذا كانت تلك المعـانى مقصـودة فكـأن غيرها حائل

---

31 **(31) روح المعانى ج6 ص68 .**

32 **(32) مدخل إلى مناهج المفسرين – مرجع سابق ص227 .**

33 **(33) روح المعانى المقدمة ج1 ص7 .**

دونها، وبذلك صح له أن يسمى الفقهاء والعلماء فى كثير من المقامات بأهل الحجاب، وذلك هو ما أثار على تفسير الآلوسى الطامة الكبرى من العلماء المتمسكين بالمبادئ الأصلية المدركين ما فى تلك الخروق من الأخطار" .

وقد يوضح لنا هذا تفسير ابن عربى لقوله تعـالى ﴿فَـادْخُلِي فِي عِبَـادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. يقول: "... وادخلى جنتى التى هى سترى، وليست جنتى سواك، فأنت تسترنى بـذاتك الإنسـانية، فلا أعـرف إلا بـك، كما لا تكـون إلا بى فمن عرفك عرفـنى، وأنا لا أعرف فأنت لا تعـرف. فـإذا دخلت جنتك دخلت نفسـك، فتعـرف نفسك معرفة أخـرى غير التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكـون صـاحب معرفـتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت رباً. وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له فى الخطاب عهد"[34] .

وقد فـرق الـدكتور الـذهبى الـذى اقتبسـنا منه الفقـرة السـابقة بين نـوعين من التفسير الصوفى نـوع أطلق عليه الصـوفى الإشـارى.. ونـوع آخر أطلق عليه النظـرى ورأى "أولاً: أن التفسير الصوفى النظـرى ينبـنى على مقـدمات علمية تنقـدح فى ذهن الصـوفى أولاً، ثم يـنزل القـرآن عليها بعد ذلـك، أما التفسـير الإشـارى فلا يرتكز على مقدمات علميـة، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصـوفى نفسه حـتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من كيف العبارات هذه الإشارات القدسـية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية .

واستبعد مؤلف "مناهج المفسرين" التفسير الصوفى النظـرى، ورأى فيها جـرأة على الله وقول بغير علم وإلحاد.. فلا يعد من قبيل التفسير، بل هو فكر الحادى .

أما النوع الثـانى – وهو التفسـير الإشـارى أو الفيضي فقد تقبل بعضـه، وضـرب المثل بتفسير روح المعانى الذى سبقت الإشارة إليه .

(4)

مزالق المفسرين القدامى

ج. لأخباريون ورواة المأثور

والمجموعة الثالثة الـتى عـنيت بالتفسـير وكتبت عنه هى مجموعة الإخبـاريين ورواة الآثار الذين عنوا بالأخبار الـتى تضـمنها القـرآن وتتبعها منذ خلق آدم حـتى قيـام الساعة وجمع الآثار التى تفسر آيات القرآن وهو ما يطلق عليه "التفسير بالمأثور" .

وتضم كلمة المأثور كل ما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسـلم وعن التـابعين. وقد اختلف فى المأثور عن الرسول، فذهبت عائشة وبعض الصحابة والفقهـاء أنه نـذر قليل ورأى آخـرون أنه أكـثر من ذلك وقد ألف البخـارى منه جـزءً مسـتقلا. وقد يخضع

---

34 **(34) انظر ما نقله عنه الدكتور محمد حسين الذهبى فى التفسير والمفسرون ج 2 ص324 .**

هذا – أى حجم المأثور – لتقدير المحدثين وقواعدهم فى ضبط الحـديث. أما الصـحابة فهم مراتب فالأحـاديث المنقولة عن الخلفـاء الأربعة فى التفسـير قليلة وقد لا يبلغ ما روى عن أبى بكر عشـرة. وأكـثرهم هو على بن أبى طـالب ولكن كثـيرا مما روى عنه مما دس عليه .

وقد ارتأى بعض الفقهاء أن الآية 44 من سورة النحل ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْـكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. تتضمن تفسير أو بيان الرسول لكل القرآن لأنه هو ما نـــزل إليهم.. ورووا فى ذلك كلمـــات لابن تيمية كما قـــال الفخر الـــرازى عند تفسيره لهذه الآية "ظاهر الكلام يقتضى أن هـذا الـذكر مفتقر إلى بيـان رسـول اللـه، والمفتقر إلى البيان مجمـل، فظـاهر هـذا النص يقتضى أن القـرآن كله مجمـل، فلهـذا المعنى قال بعضهم: متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخــبر، لأن القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية، والخبر مبين له بدلالة هذه الآية، والمبين مقــدم على المجمل والجواب: أن القرآن منه محكم ومنه متشابه، والمحكم يجب كونه مبينا، فثبت أن القرآن ليس كله مجملا، بل فيه ما يكون مجملا، فقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. محمول على المجملات"[35] .

وهذه هى جناية المنطق المجرد، والأحكام المطلقة دون فكر أو عقل. فلا يمكن لمن لديه ذرة من العقل أن يقول إنه عنـدما يحـدث التعـارض بين الخـبر وبين القـرآن يقدم الخبر ! .

لأن من الثابت ..

أولاً: أن الله تعالى قال ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ﴾. فـدل على تيسير القرآن للذكر بما لا يحتاج – ضرورة – لتـبين وأكـثر من هـذا وضـوحاً وصف الله تعالى للقرآن بأنه "مبين" والمبين لا يحتاج إلى بيان .

ثانياً: أن الأغلبية العظمى من الآيات واضحة، بينة لا تحتاج إلى بيـان. فقد حــدد القرآن نفسه الموقف منها ﴿هُوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَــةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾. {7 آل عمران} ..

ثالثــاً: إننا إذا اســتبعدنا مما قيل أن الرســول قد فســره الحــديث الضــعيف والمنحول فلا يبقى إلا النذر الطليق وهذا هو ما صرح به السيوطى فى الاتقان "والذى صح من ذلك (أى تفسير الرسول للقرآن) قليل جـداً بل أصل المرفـوع منه غلبة القلة (ج2 ص223). ويلحظ فى هذا النذر القليل أن الرسول لم يكن يفسر برأيه، وإنما كان يفسر القرآن بالقرآن. كما حدث عنـدما نـزلت الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. شق ذلك على المسلمين فقـالوا يا رسـول الله أبنا لا يظلم نفسه قـال ليس الأمر ذلـك. إنما هو الشـرك ألم تسـمعوا ما قـال لقمـان

---

[35] **(35) تفسير الفخر الرازى ج20 ص38 .**

لأبنه وهو يعظه "يا بــنى لا تشــرك بالله إن الشـــرك لظلم عظيم" وقد كـــانت بعض أحاديثه شرحاً لما جاء فى الكتاب أى عرض المعنى بأسـلوب الحـديث – وهو أسـلوب السرد العادى – وليس بأسلوب القرآن الذى قد يشكل مع بعض الناس ممثلاً قوله "لا يِفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خصلة رضى الله منها خصلة أخـرى" هو شـرح لقـول الله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَـلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. {19 النساء}.. وحكمه بـأن الله يضـاعف الحسـنات سـبعمائة ضـعف مأخوذ من قوله تعـالى ﴿مَثَـلُ الَّذِينَ يُنفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ كَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. {261 البقــرة}.. وقد جــاءت كلمة الــروح والســاعة مــراراً فى القــرآن. فلما سـئل عنهما الرسول أمسك حتى جاءه الوحى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الـرُّوحِ قُـلْ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾. {85 الإسراء}.. ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُـلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْـدَ اللَّهِ وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّـاعَةَ تَكُـونُ قَرِيبًا﴾. {63 الأحـزاب}.. فالرسـول لم يكن يفسر القرآن برأيه، وإنما بالقرآن نفسه إما بالرجوع إلى آيات فيها الكلمة الـتى غمض معناها أو بانتظار الـوحى – وهو قـرآن – حـتى يقوله وقد رويت حـالات عديـدة عن أن الرسـول كـان يتوقف عن الإجابة على أسـئلة حـتى يـنزل عليه وحى. فيطلب السـائل ليبلغه ما جاء به الوحى .

إن هذه الوقائع الثابتـة، وأعـنى نـدرة ما فسـرة الرسـول، وأنه فى هذه الحالات النـدرة كـان يرجع إلى القـرآن نفسه أو إلى وحى قـرآنى.. فى منتهى الأهمية لأنها تكـاد تسـتتبع. أن كل ما تسـرده كتب التفسـير سرداً كأنه قضية مسلمة وتخالف ما ذهب إليه المفسرون من أن طريقة التفسير هى أن تعود إلى القرآن. فإن لم تجد فتعود إلى السُنة فــإن لم تجد فتعود إلى الصحابة وقد يلحقون بالصحابة التابعين .

ما هـذا أيها السـادة! كيف تحّكمـون الأخبـار الركيكة والأحـاديث الموضـوعة فى كلام الله ثم تأتون بكلام من زيد أو عمر من الصحابة – ثم لا تقفـون بل تضـمون إليهم النابغين؟ هل جعلتم كلام الله – تجاريب وتمـارين ومجـالات يـذهب فيها من يشـاء كما يشـاء! ألا اتقيتم الله وجعلتم لكم فى رسـول الله أسـوة حسـنة، وقد رأيتم كيف كـان يعرف للقرآن قـدره لا يحكم فيه برأيه أو جعلتم فى أبى بكر أسـوه وهو الـذى لم يجد أرضـاً تقلـه، ولا سـماء تظله إذا قـال فى القـرآن برأيـه. وأنتم تهرعـون وفى كل واد تهيمون ..

ومعنى هـذا عـدم الالـتزام بما رووه من أحـاديث عن الرسـول، ومن بـاب أولى عدم الالتزام بما جاء من كلام الصحابة لأن الصحابة ليسوا مشـرعين، بل أن الرسـول نفسه ليس مشرعاً إلا فيما كلفه الله به صراحة دون تأويل، وحصيلة هذا. هدم تفسـير المأثور، وهو أكبر مراجع التفسير .

فإذا كان التفسير بالمأثور منسوبا إلى الرسول، وقد أوردنا تحفظاتنا عليه، فـإن ما يورد عن الصحابة أجدر بالتحفظ أما عن التابعين فيفترض أن لا ينظر فيه أحد إلا إذا كان تفسيراً بـالرأى لأن الشـقة قد بعـدت ما بين الرسـول والتـابعين بحيث يكـون من الصعب على ما يرويه هؤلاء إن يقال عنه تفسير بالمأثور .

وقد دافع الفقهاء والمفسرون عن تفسير الصـحابة، وأنه يؤخذ به عنـدما لا يوجد فى القرآن والسُنة. وادعوا لهذا دعاوى لا تثبت أمـام النقد السـليم لأنه لا يمكن تحكيم آحاد من البشر – مهما كانوا – فى النص المعجز، فهذا خطأ أصولى ولا يمكن الاعتــذار عنه وإذا كان أبو بكر يقول "أى سماء تظلنى وأى أرض تقلـنى إن قلت فى كتـاب الله بما لا أعلم" فكيف يجـوز أن نأخذ بـأقوال آحـاد الصـحابة – خاصة إذا أخـذنا بقاعـدة المحدثين أن الصحابة جميعا عدول بتعديل الله" فأول ما يثير الاعتراض صحة نسـبة ما ينسب إلى الصـحابة عـبر السـند الطويـل، ثم يـأتى ما يقـال – أنه ليس للصـحابة ولا لغيرهم من آحاد الناس أن يحكموا ويفسروا، فهذا إذا أبيح لأحد فللرسـول وحـده، وقد رأينا الرسول يتريث حتى ينزل عليه وحى، أو يفسر القرآن بالقرآن ثم ما صح عنه نذر قليل .

نحن لا ندخل فى صراع فكرى مع الفقهاء فى قبولهم تفسير الصحابة والتـابعين لاختلاف المناهج التى يدور عليها النقاش فنحن نأخذ بمنهج طبائع الأشياء والأمر الثابت القطعى والعقل والمنطق وهم يأخذون بالأقوال فيـدافعون عن المرويـات بالمرويـات، وهذا لا يستقيم ولا يعملون ذهنهم أو فكرهم أبداً، وإنما هو قيل وقال ..

ولعل أكبر دليل على ما ذهبنا إليه ما يساق من تفسير عن ابن عباس

والحديث عن بن عباس يجب أن يشمل ابن عباس نفسـه. ومن روى عنهم ومن رووا عنه حتى تتكامل الصورة عما ينسب إليه من تفسير .

ولا ريب أن ابن عباس – هـذا الفـرع الـوارف من الدوحة النبوية كـان نابغة وقد رزق ذكـاءً وقـادا وذاكـرة لاقطة وثقافة عربية ولغوية ضـليعة وتـذوقا فنيـا. كما كـان حريصا على العلم وتلمسه من كافة مظانه، وأنه كأبى هريـرة كـانت له حسـنة التفـرغ والتخصص ويفضل أبا هريرة أنه بدأ من السن البـاكرة الـتى يكـون فيها الـذهن متفتحا والذاكرة حافظة. وهذه المزايا كلها جعلته "ترجمان القرآن" وأكسـبته التقـدير وأدخلته وهو فى ريعان الشـباب بين شـيوخ الصـحابة وكبـارهم، وقيل إن الرسـول قد دعا لـه، وشهد له عمر بن الخطـاب، ولكن هـذا كله لا ينفى أنه – كـأبى هريـرة – وقع فيما يقع فيه المكثرون والحريصـون على تلمس المعرفة من كافة مظانهـا. فـإن رغبتهم تلك – حتى عندما تكون خالصة لوجه الله والمعرفة يمكن أن تغرب بصـاحبها وتـذهب به إلى مسالك نائية وموحشة وقد كان هذا فى أصل "شواذ" ابن عباس التى لحظها أبو جعفر المنصور ووجه الإمام مالك لتوقيها فى كتابه "الموطأ" كما كـان ذلك فى أصل مروياته عن كعب الأخبــار ونقله للكثــير من الإســرائيليات الــتى لم ير فيها مخالفة لأصــول الشريعة وفاته أن عدم المخالفة لا يستتبع ضـرورة الاتفـاق أو يكفل الصـحة وقد كـان كعب الأحبــار الداهية حريصا على التقــرب إلى ابن عبــاس وكــان ابن عبــاس شــديد

التقدير لبعض مسـلمة يهـود وحسـبك أنه فسر الآية "لكن الراسـخون فى العلم" أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه، وروى أن ابن عبـاس كـان يرجع إلى أبى الجعد غيلان بمن يسأله عن بعض هذه الإسرائيليات وأنه كان يتلقاها منه تلقيا حسنا. وأوجد ذلك صـعيدا مشتركا ما بين ابن عباس وكعب الأحبار، على أن هذا لا يعنى أن ابن عباس كان يسلم بكل ما يدعيه كعب فإن فطنة ابن عباس كانت تـأبى هـذا وثمة حـالات كشف فيها ابن عباس ادعاءات كعب، بل لقد روى عنه النهى عن سـؤال أهل الكتـاب فـروى البخـارى فى كتاب الاعتصام باب قول النبى لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء أن ابن عباس قـال "يا معشر المسلمين تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله تقرأونه محضا ولم يُشَـب[36] وقد حـدثكم أن أهل الكتـاب قد بـدلوا من كتب الله وغـيروا وكتبـوا بأيـديهم الكتب فقـالوا ﴿هَـذَا مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ لِيَشْـتَرُوا بِـهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾. ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم" ومن العسـير أن يتفق هـذا القـول مع ما قيل عن أخـذه عن كعب ووهب وتأثره بهما اللهم إلا إذا كان الرواة عنه قد كذبوا عليه وهو احتمال قوى لما سـيلى من البراهين .

هذا عن ابن عبـاس نفســه.. أما من روى عنهم فهم كثـيرون وهم يصـعدون إلى القمة التى لا غاية وراءها – النبى صلى الله عليه وسـلم ثم يتـابعون حـتى يصـلوا إلى كعب الأخبار ووهب بن منبه على ما روت عنه كتب السُنة وما ألقى ظلا من الشــبهات على كثير من مروياته .

ويجب أن نذكر أن ابن عباس كان طفلاً فى حياة الرسول وأن مروياته نقلاً عن الصحابة وليست سماعاً عن الرسول، وروى أنه كـان ينـام على عتبة أبـواب الصـحابة ليلقاهم ويسمع منهم .

أما من روى عنه فهم كثيرون ولكن مما يلفت الانتباه وقد لا يخلو من مغـزى أن الشبهات قد ثارت حـول معظمهم حـتى عكرمة وهو أكـبر رواته وأفضـلهم أما السـدى الصــغير ومقاتل وعبد الله بن جــريج وعطية العــوفى فــإن الشــبهات تكتنفهم وتصل ببعضهم إلى الكذب الصراح .

وحتى لا نتهم بالتحامل فإننا ننقل هنا ما جاء عن هذه النقطة من الإتقان :

"وقد ورد عن ابن عبـاس فى التفسـير ما لا يحصى كـثرة وفيه روايـات وطـرق مختلفة فمن جيـــدها طريق على بن أبى طلحة الهاشـــمى عنه قـــال أحمد بن حنبل "بمصر صـــحيفة فى التفســـير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا" أسنده أبو جعفر النحاس فى ناسخه قال ابن حجر وهذه النسـخة كـانت عند إبى صـالح كـاتب الليث رواها عن معاوية بن صـالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عبـاس وهى عند البخـارى عن أبى صـالح وقد اعتمد عليها فى صـحيحه كثـيراً فيما يعلقه عن ابن عبـاس، وأخــرج منها ابن جرير وابن أبى حـاتم وابن المنـذر كثـيرا بوسـائط بينهم وبين أبى صـالح وقـال قــوم لم يسـمع ابن أبى طلحة من ابن عبـاس

36 **(36) أى يُخَلط بغيره .**

التفســير وإنما أخــذه عن مجاهد أو ســعيد بن جبــير قــال ابن حجر بعد أن عُــرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك وقال الخليلى فى الإرشاد تفسير معاوية بن صـالح قاضى الأندلس عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رواه الكبار عن أبى صالح كاتب الليث عن معاوية وأجمع الحفــاظ على أن ابن أبى طلحة لم يســمعه من ابن عبــاس قال وهذه التفاسير الطوال التى اسندها إلى ابن عبـاس غـير مرضـية ورواتها مجاهيل كتفسير جويبر عن الضحاك عن ابن عبـاس وعن ابن جـريج فى التفســير جماعة رووا عنه وأطولها ما يرويه بكر بن سهل الدمياطى عن عبد الغنى بن ســعيد عن موسى بن محمد عن بن جريج وفيه نظر. وروى محمد بن ثور عن ابن جريج نحو ثلاثة أجزاء كبـار وذلك صححه وروى الحجاج بن محمد عن ابن جريج نحو جزء وذلك صــحيح متفق عليه وتفســير شــبل بن عبــاد المكى عن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عبــاس قــريب إلى الصحة وتفسـير عطـاء بن دينـار يكتب ويحتج به وتفسـير أبى روق نحو جـزء صـححوه وتفسـير إسـماعيل السـدى يـورده بأسـانيد إلى ابن مسـعود وابن عبـاس. وروى عن السـدى الأئمة مثل الثـورى وشـعبه لكن التفسـير الـذى جمعه رواه أسـباط بن نصـر، وأسباط لم يتفقوا عليه غير أن أمثل التفاسير تفسـير السـدى فأما ابن جـريج فإنه لم يقصد الصحة وإنما روى ما ذكره فى كل آية من الصحيح والسـقيم وتفسـير مقاتل بن سليمان فمقاتل فى نفسه ضعفوه وقد أدرك الكبار من التابعين والشـافعى أشـار إلى أن تفسيره صالح انتهى كلام الإرشاد، وتفسير السدى أشـار إليه يـورد منه جرير كثـيرا من طريق الســدى عن أبى مالك عن أبى صــالح عن ابن عبــاس وعن مــرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة هكذا ولم يورد منه ابن أبى حاتم شيئاً لأنه التزم أن يخــرج أصح ما ورد والحاكم يخرج منه فى مستدركه أشياء ويصححه لكن من طريق مرة عن ابن مسعود وناس فقط دون الطريق الأول وقد قال ابن كثير إن هذا الإسناد يــروى به السدى أشياء فيها غرابة ومن جيد الطـرق عن ابن عبـاس طريق قيس عن عطـاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه وهذه الطرق صحيحة على شـرط الشـيخين وكثـيرا ما يخرج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه ومن ذلك طريق ابن إسـحاق عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عنه هكـذا بالترديد وهى طريق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً وفى معجم الطبرانى الكبير منها أشياء وأوهى طرقه طريق الكلبى عن ابن صـالح عن ابن عبـاس فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهى سلسلة الكذب وكثـيراً ما يخـرج منها الثعلـبى والواحـدى لكن ابن عـدى فى الكامل للكلـبى أحـاديث صـالحة وخاصة عن أبى صالح وهو معروف بالتفسـير وليس لأحد تفسـير أطـول منه ولا أشـبع وبعده مقاتل بن سليمان إلا أن الكلبى يفضل عليه لما فى مقاتل من المــذاهب الردية وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عبـاس منقطعة فـإن الضـحاك لم يلقه فـإن انضم رواية بشر بن عمــارة عن أبى روق عنه فضــعيفة لضــعف بشر وقد أخــرج من هــذه النسخة كثيرا ابن جرير وابن أبى حـاتم وإن كـان من رواية جويـبر عن الضـحاك فأشد ضعفا لأن جويبر شديد الضعف متروك ولم يخـرج ابن جرير ولا ابن أبى حـاتم من هـذا الطريق شـيئاً إنما خرجها ابن مردويه وأبو الشـيخ ابن حبـان وطريق العـوفى عن ابن

عباس وأخرج منها ابن جرير وابن أبى حـاتم كثـيرا والعـوفى ضـعيف ليس بـواه وربما حسن له الترمذى، ورأيت فى فضائل الإمام الشافعى لأبى عبد الله بن أحمد بن شاكر القطان أنه أخرج بسـنده من طريق ابن عبد الحكم قـال سـمعت الشـافعى يقـول لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث"[37] .

وقال السيد رشيد رضا رحمه الله عن تفسير ابن عباس ..

وأما ما روى عن ابن عباس فى تفسيره فأكثره موضـوع لا يصح لأنه مـروى من طريق الكذابين الوضـاعين كـالكلبى والسـدى ومقاتل بن سـليمان. وذكر ذلك الحافظ السيوطى وسبقه إليه شـيخ الإسـلام بن تيمية بل إن رواية هـؤلاء وأضـرابهم التفسـير عنه وعن غـيره هى المقصـودة من قـول الإمـام أحمد رحمه الله تعـالى "ثلاث كتب لا اصل لها المغازى والملاحم والتفسير" قـالوا إنه أراد كتبا مخصوصة فى هـذه المعـانى الثلاثة غير معتمد عليها لعدم عدالة ناقليها ولزيادة القصـاص فيها وذكـروا منها تفسـير هؤلاء بل نقلوا عن الإمام أنه قال فى تفسير الكلبى "من أوله إلى آخـره كـذب لا يحل النظر فيــه" وقــالوا إن كل من ينقل فى تفســيره من الأحــاديث الموضــوعة لا يوثق بتفسيره بالمأثور ومن هؤلاء الثعلبى والواحدى والزمخشرى والبيضاوى"[38] .

"وهذه الكتب التى يسميها كثير من الناس التفسـير فيها كثـير من التفسير منقـولات عن السـلف مكذوبة عليهم وقـول على الله ورسـوله بالرأى بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية .

وأما كونه ثابتا عن ابن عبـاس أو غـيره فهـذا مما لم يثبت ومعلـوم أن فى كتب التفسـير من النقل عن ابن عبـاس من الكـذب شـىء كثـير من رواية الكلـبى عن أبى صالح وغيره فلابد من تصحيح النقل لتقوم الحجة"[39] .

وهذه الكلمات صريحة فى أن كثـيرا من المنقـولات عن السـلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأى المجرد بشبهة قياسية أو شـبهة أدبية ومن يطـالع كتب التفســـير يجد الكثـــير مما يصـــدق عليه إطلاق الآراء، أو الاجتهـــادات الركيكة أو الاستشهادات الباطلة بأبيات من الشعر ما انزل الله بها من سلطان .

ومن المحتمل أن يصــور موقف ابن عبــاس والصــادقين من رواته إزاء هــذه الإسرائيليات ما أورده مؤلف "الحديث والمحدثون" إذ قال :

"وفى تفسـير كبـار الأئمة كثـير من الإسـرائيليات المنسـوبة إلى كعب ووهب وغيرهما كما تراه فى تفسـير ابن جرير وغـيره ولا ينبغى أن يـذم هـؤلاء الأئمة بـذكرها فى كتبهم لأنهم رووها على أنها إسـرائيليات تـوزن بمـيزان الشـرع. ولأنهم قد ذكـروا

---

37 **(38) الإتقان للسيوطى ص188-189 الجزء الثانى .**

38 **(38) السيد محمد رشيد رضا رحمه الله فى "الوحدة الإسـلامية والأخـوة الدينيـة" (نشرت فى المجلد الثالث والرابع والسادس من المنار) ص11 .**

39 **(39) تفسير سورة النور لابن تيمية حققه وخرج أحاديثه محمد إبراهيم زايد وعبد المعطى (دار الوعى – حلب) ص190-191 .**

أسـانيدها إلى قائليها تـاركين تميـيز صـحيحها من باطلها لمن يـأتى بعـدهم كما فعل المحـدثون عند تـدوين الحـديث ولأنهم بـذكر الإسـناد قد برئـوا من عهـدتها لأن أحـوال الرجال كانت معروفة لمعاصريهم على خلاف ما نحن عليه اليوم .

هـذا وليس كل ما ينسب إلى كعب ووهب وأضـرابهما صـحيحا فقد اختلق عليهم الوضـاعون كثـيرا لـيروجوا بـاطلهم بنسـبته إليهم وتناقل هـذه الأخبـار المكذوبة بعض القصاص والمؤرخين والأدباء وبعض القاصرين من المفسرين على أنها حقائق من غير أن يتثبتوا من صحة نسبتها إلى من عزيت له وبـدون أن يفطنـوا إلى أنهم كـانوا يرونها على أنها إسرائيليات بتقدير صحتها عنهم فضلوا وأضلوا والذنب ليس ذنب كعب ووهب ولكنه ذنب القصور والتقصير"[40] .

فهذه الفقرة تمثل أصدق تمثيل الملابسـات الـتى دفعت بكبـار الأئمة إلى إدراج الإسـرائيليات بصـدد تفسـير القـرآن، كما تصـور نفسـية السـلفيين إزاء ذلك والـورع والحرج الذى حملهم على الدفاع عن هذا المذهب وعدم المساس به. وأن الذنب ليس ذنب كعب ووهب ولكنه ذنب القصـور والتقصـير رغم أن كعب ووهب هما اللـذان زجا بهذه الأقاويل المدعاة وكان لهما عن هـذا مندوحة فضـلاً عن أن اختصـاص الوضـاعين بهـذين وما حـاط بهما يثـير الشـبهات القوية الـتى تجعل حسن الظن بهما أقـرب إلى الغفلة منه إلى الفطنــة، والمــؤمن كيس فطن وليس كما صــحفوا – وفعلــوا "كيس قطن" ..

وقد رفض مؤلف "الحــديث والمحــدثون" بقــوة من زعم أن كعب ووهب من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام ليكيدوا له وأن هذا انطلى على المحـدثين وقـال "وهـذا الزعم بنوعيه لا يصدر إلا عن جاهل قد ملأه الغـرور أو مجنـون لا يـدرى ما يقـول. ولو أنه كلف نفسه النظر فى أسانيد هذه الروايات التى تنسب إليهما ليتـبين أصـحيحة هى عنهما أم هى باطلة، ثم تأمل بعد ذلك إلى أنهما كـان يرويانها على أنها إسـرائيليات ما رمى الصحابة والتابعين ومن بعـدهما من حـذاق الناقـدين بهـذا البهتـان المـبين" وهـذا العنف – أو القذف – يوضح مدى حساسـية المحـدثين المعاصـرين لما يوجه من نقد أو تمحيص حتى عندما يراد منه الدفاع عن الإسلام والحفاظ على نقاء الحديث .

وفى حياة ابن عباس حدث تـاريخى وقع عنـدما ولاه الإمـام على بن أبى طـالب ولاية البصرة، ولم يرسل ابن عباس "ميزانية" هذا المصر الهـام فاسـتحثه الإمـام على فتثاقل فدارت بينهما مراسلات مؤثرة انتهت بان اسـتحوز ابن عبـاس على ما فى بيت المال وأخذه ثم ذهب إلى مكة فابتنى قصـراً، واشـترى جـوارى الخ... إن هـذا الحـدث يلقى ظلالاً كثيفة على شخصية ابن عباس وعلى المرويات التى تكون قد صـدرت عنه فعلاً (وليست مكذوبة عليه) لأن لهذا الحدث، بل السـقطة الجسـيمة، دلالاتها السـيئة، ولا ينجيه منه أى تأويـل، ولا نـرى ذكـراً لهـذا الحـدث فى تـراجم ابن عبـاس لـدى

---

40 **(40) الحديث والمحدثون للشيخ محمد أبو زهو ص191 .**

المحدثين، إما جهلاً منهم وإما تستراً، وإذا كانوا يرفضـون المسـاس بكعب ووهب، فما بالك بابن عباس والحق أحق أن يتبع، وهو يقضى على الرجال كائنا ما كانوا

* * *

وقد ولع الإخباريون ورواة الآثـار بثلاثة مجـالات ملأوا بها التفسـير بالمـأثور.. هى أولا: الأخبار عن آدم وحواء والأنبياء، وبوجه خاص بنى إسـرائيل والفتن والملاحم ويـوم القيامة والجنة والنار مما يمكن أن يطلق عليه الإسـرائيليات لأن معظمه – إن لم يكن كله – هو من روايات أهل الكتاب. ثانيا: تعيين المبهمـات الـتى أبهمها القـرآن عن عمد بالطبع وذكر من أريد بها.. ثالثا: أسباب النزول .

ولا يتسع المجـال لإيـراد، ولو نمـاذج من الإسـرائيليات لأن هـذا يتطلب كتابـاً مستقلاً، وقد لفتت الظاهرة ابن تيمية وابن خلدون. ففند ابن تيمية الاستشهاد بحـديث استشفاع آدم بـالنبى وقـال أنه "إنما نقل عن مثل كعب ووهب وابن إسـحاق ونحـوهم ممن أخذوا ذلك عن مسلمة أهل الكتاب"

وشرح ابن خلدون فى مقدمته أسباب نقل المفسرين هـذه الإسـرائيليات فقـال "والسـبب هو أن العـرب لم يكونـوا أهل كتـاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البـداوة والأمية، وإذا تشـوقوا إلى معرفة شئ مما تتشـوق إليه النفـوس البشـرية فى أسـباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجـود فإنما يسألون أهل الكتاب قبلهم، ويسـتفيدونه منهم، وهم أهل التـوراة من اليهـود ومن تبع دينهم من النصـارى، وأهل الكتـاب الـذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عنـدهم مما لا تعلق له بالأحكـام الشـرعية الـتى يحتـاطون لها – مثل أخبـار بـدء الخليقـة، وما يرجع إلى الحدثان، والملاحم، وأمثال ذلك، وهؤلاء مثـل: كعب الأحبـار ووهب بن منبـه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وفى أمثـال هـذه الأغـراض أخبـار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكـام، فتتحـرى فيها الصـحة الـتى يجب بها العمل وتسـاهل المفسـرون فى مثل ذلـك، وملأوا كتب التفسـير بهـذه المنقولات وأصلها، كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون الباديـة، ولا تحقيق عنـدهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلـك، إلا أنه بَعُد صـيتهم، وعظمت أقـدارهم لما كـانوا عليه من المقامات فى الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ"[41] .

وفى كتب التفسير من الإسرائيليات "طامـات وظلمـات" لا يتسع المجـال لـذكر نمـاذج منها وقد يكفى لإعطـاء الفكـرة المطلوبة أن نستشـهد هنا ببعض ما جـاء فى فهرس كتاب "الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير" للأستاذ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة .

"الإسـرائيليات فى قصة أصـحاب أهل الكهف – الإسـرائيليات فى قصه ذى القرنـيين – الإسـرائيليات فى قصة يـأجوج ومـأجوج – الإسـرائيليات فى قصة بلقيس

---

41 **(41) مقدمة ابن خلدون ص404 طبعة كتاب الشعب .**

ملكة سبأ - الإسرائيليات فى قصة الذبيح وأنه إسحاق وليس إسـماعيل عليه السـلام – الإســـرائيليات فى قصة إليـــاس عليه الســـلام - الإســـرائيليات فى قصة داود – الإسرائيليات فى قصة سليمان – الإسرائيليات فى قصة أيوب – الإسرائيليات فى قصة إرم ذات العمـاد – الإسـرائيليات فيما يتعلق بعمر الـدنيا وبـدء الخلق الخ.. – ما يتعلق بعمر الـدنيا – ما يتعلق بخلق الشـمس – ما يتعلق بتعليل بعض الظـواهر الكونية – ما ذكره المفسرون فى الرعد والبرق – جبل ق المزعوم وحدوث الزلازل – الإسرائيليات فى تفسير (ن والقلم) الخ ..." .

ومن باب الأهم قبل المهم، من هذا الركام المتعالى يكفى أن نشـير إلى حـديث "خلق الله آدم على صورته" وحديث أن المرأة خلقت من ضـلع الرجل وأن الـذبيح هو اسحق وليس إسـماعيل مع أن أدنى صـورة للتوحيد تسـتبعد خلقه مخلـوق على مثـال اللـه، ولأن الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. ترفض هذا التفسير التوراتى، لأن النفس تختلف عن الجسد أو البـدن وما فيه من عظام.. ولأن آيات القـرآن تـذكر أن إسـماعيل هو الابن البكر لإبـراهيم الـذى كـان محل تجربة واختبار إبراهيـم وأن الله تعالى كافأه على ذلك بتبشـيره أولا أسحــاق ثـم يعقــوب ﴿وَبَشَّـرْنَاهُ بِإِسْـحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّـالِحِينَ﴾. {112 الصـافات}.. ولكن قـوة وأثر الإسرائيليات جعلت الزمخشرى يذهب إلى ما ذهب إليه الإسرائيليون لأنه روى خطابــاً "من يعقوب إسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله" .

* * *

والقـرآن لا يلجأ إلى الإبهـام إلا لحكمـة. ولو أراد التصـريح والإعلان لما أعجـزه وكان يجب على المفسرين أن يـدركوا هـذا وأن يتفهمـوا هـذه الحكمة ويقفـوا عنـدها. وحكمة القرآن أنه يريد بهـذا الإضـمار للمعـانى الـتى تتعلق بهـذه المبهمـات أن تكـون عامة وأن يتعظ النـاس بها جميعا دون أن تكـون مخصوصة بصـاحبها ولكن المفسـرين سامحهم الله افتاتوا على القرآن وغلبتهم الطلعة والفضول أو فاتهم المعنى المقصـود واعتقدوا أنهم يحسنون صنعا بالتعيين. وألفوا فى ذلك الكتب ككتــاب التعريف والأعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسـماء والأعلام – لعبد الـرحمن بن على عبد الله السـهيلى الأندلسى وكتاب "الإقران فى مبهمات القـرآن" ولـولا حسن نيتهم وفضل الله ورحمته لدخلوا فيمن قال الله فيهم ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. {16 الحجرات} ..

ولم يُفُتْ بعض المفسرين أن يذكر القرآن أن هـذا الأمر من الأمـور مما اسـتأثر الله بعلمـه. فقد قـال الزركشى فى البرهـان "لا يبحث عن مبهم أخـبر الله اسـتئثاره بعلمه كقوله ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾. وقـال "والعجب ممن تجـرأ وقال إنهم قريظة أو من الجن" ولكن السيوطى عقب على ذلك فقـال "ليس فى الآية ما يدل على أن جنسهم لا يعلم وإنما المنفى على أعيانهم ولا ينافيه العلم بكـونهم من قريظة أو من الجن وهو نظــير قوله فى المنــافقين ﴿وَمِمَّنْ حَــوْلَكُمْ مِنْ الأَعْـرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ مَـرَدُوا عَلَى النِّفَـاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾. فـإن المنفى

علم أعيانهم ثم القول فى أولئك أنهم قريظة أخرجه ابن أبى حاتم عن مجاهد والقــول بـأنهم من الجن أخرجه ابن أبى حـاتم من حـديث عبد الله بن غـريب عن أبيه مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا جراءة"[42] .

فانظر كيف يحدث التحايل والمماحكة، والعجب كيف لم تـثر ريبة السـيوطى أن يروى شخص واحد (ابن أبى حاتم) روايتين متعارضـتين عن واقعة واحـدة. الأمر الـذى يصور مدى هيمنة الإسناد على النفوس .

وقطع المفســـرون أن آية ما تخص شخصا بعينه اعتمــــادا على بعض القواعد النحوية ثم تطرقوا إلى تعيين هذا الشخص، فالآية ﴿وَسَـيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى. الَّذِي يُـؤْتِي مَالَـهُ يَتَزَكَّى﴾. قـالوا إنها نـزلت فى أبى بكر رضى الله عنه وأنها "تقصر عليه قطعـا" وقـالوا "ووهم من ظن أن الآية عامة فى كل من عمل عمله إجــراء له على القاعـــدة وهـــذا غلط فـإن هـذه الآية ليس فيها صـيغة عمــوم إذ الألف واللام تفيد العمــوم إذا كـانت موصولة أو معرفة فى جمع زاد قوم أو مفرد بشرط أن لا يكـون هنـاك عهد واللام فى الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجماعا و"الأتقى" ليست جمعا بل هو مفرد والعهد موجود خصوصا مع ما يفيده صيغة أفعل من التميـيز وقطع المشـاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصــوص والقصر على من نــزلت فيه رضى الله عنه" .

فهذا الكفاح المرير مع الحروف وقواعد النحو لقصر المعـنى على شـخص بعينه دون أن يكون لديهم دليل قطعى ويقيـنى أنه أبو بكر بصـرف النظر عن مـدى التوفيق والنجــــــاح فيه يمكن أن يوقف دفع الآية واســــتحثاثها على العمل مَنْ تدفعه العاقبة الجميلة والثواب الموعود. فضلاً عن أن سياق السورة يأباه لأن الآيات السابقة تتحدث عن الأشقى بالصـيغة نفسـها الـتى تحـدثت بها عن "الأتقى" فـوجب أن يعين الأشـقى أيضاً كما عينوا الأتقى وقد اختلفوا فيه فقيل وقيـل. وكـان لهم عن هـذا وذاك مندوحة لولا أنهم حكموا قواعد نحوهم فى القرآن والقرآن أعظم منها .

وبـالطبع، فـإن هـذه ليست إلا أمثلة عارضة وإلا فـإن علمـاء التفسـير لم يـدعوا مبهما فى القرآن إلا وعينوه، بل وحددوا اسـمه. وقد خصص السـيوطى ست صـفحات كبار لإيضاح المبهمات .

ولم يقتصر الإبهـام على الأشـخاص عنـدما لا يـذكر القــرآن الاسـم، فـإن بعض المفسرين يرى أن من واجبه أن "يعرف" أى واقعة لم يُعينها أو يحددها القرآن تحديداً تاما، وهم لا يعدمون أقوالاً يسـتندون عليها فى أداء هـذا الـواجب! هى فى الأغلب من مصادر إسرائيلية .

وقد يغربـون مع وضـوح اللفظ وانعـدام الحاجة إلى الأغـراب. فيفسـرون "ويل للمطففين" بأن ويل واد فى جهنم ثم يصفونه، وكذلك عند تفسير "أعوذ بـرب الفلـق" الفلق واد فى جهنم، كأنهم مولعون بأودية جهنم وقد يقطعون الكلمة إلى كلمـات نفى

[42] **(42) الإتقان للسيوطى ص145 ج2 .**

آية "عينا فيها تسمى سلسـبيلاً" يقولـون اخطأ من وصل هـذه الكلمة "سلسـبيلاً" وإنما هى "سل سـبيلاً يا محمـد".. وقـالوا فى "كـانوا يـأكلون الطعـام" كناية عن الغائـط، وكذلك "وقالوا لجلودهم" أى لفروجهم

وقد يطنبون إلى مـدى واضح الزيف والسـخف إلى درجة يسـلمون هم أنفسـهم بها.. كما جاء فى ابن كثير عن سعيد عن قتـادة عن الحسن (وهم من أعلام المحـدثين ويفترض أن تقبل روايتهم) أن اسم النملة التى قالت ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾. هو "حرس" وأنها من قبيلة يقال لهـا: بنو الشيطان وأنها كانت عرجاء! وكانت بقدر الذئب !! .

ويسـتطرد "وقد قـال أبو حـاتم حـدثنا أبى حـدثنا محمد بن بشـار حـدثنا يزيد بن هارون حدثنا مسـعد عن زيد العمى عن أبى الصـديق النـاجى قـال: خـرج سـليمان بن داود يستسـقى فـإذا هو بنملة مسـتلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السـماء وهى تقــول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غــنى بنا عن ســقياك وإلا تســقنا نهلــك" فقــال: سليمان ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

ويروى كذلك عن هدهد سليمان وأن اسمه كان عنــبر، ورووا عن مجاهد أن الله دفع عنه ببره بأمه .

وبعد أن يسـرد الأذى ابن كثـير صـفحات كثـيرة يقـول. والأقـرب فى مثل هـذه السـياقات أنها متلقـاه من أهل الكتـاب، مما وجد فى صـحفهم كروايـات كعب ووهب سـامحهم الله فيما نقلا إلى هـذه الأمة من أخبـار بـنى إسـرائيل من الأوابد والغـرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن ومما حـرف وبـدل ونسخ وقد أغنانا الله عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنـة.." على أن هـذا لم يجعله يكف من قبل، أو حتى من بعد، فأخذ يورد أمثال ذلك فى بقية السور لأن مذهبه هو كما قال هو نفسـه: "أن تسـتوعب الأقـوال فى ذلك المقـام. وأن ننبه على الصـحيح منها ونبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته". وتحـدث مفسـرون آخـرون عن الدابة الـتى جـاء ذكرها فى الآية ﴿وَإِذَا وَقَـعَ الْقَـوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾. فيقولون أن رأسـها رأس الثـور وعينها عين الخـنزير وأذنها فيل وقرناها قرن أيل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة الخ ...

وهذه الفقرات تصور المناخ الذى سيطر على المفسرين وجعلهم يـوردون هـذه الخرافـات فى حين أن ذلك يمكن أن يغـرس الشك فى صـحة ما يرويه هـؤلاء الـرواة وبعضهم من كبار وتقاة الرواة – خاصة، وأن ما أوردناه ليس إلا مثالاً عارضاً، وإلا فـإن معظم كتب التفسير حافلة بأمثال هذه المنكرات.. حتى كاد هذا المسلك يكون تقليـدا. وقد تحدث الأستاذ الشيخ متولى الشـعراوى عن "الفـرس" الـتى كـان يركبها فرعـون وتقحمت به البحر حديثا يعيد إلى الذهن ما أورده ابن كثير عن نملة سليمان[43] .

---

43 **(43) جاء فى التفسير الذى تنشره مجلة لواء الإسلام للشيخ الشـعراوى "وأوحى الله لموسى أن يضـرب العصا على الفـرق العظيم فانشـقت فى كل فرقة كـوة**

* * *

أما المجال الثالث فهو أسباب النزول.. وقد كتب عنه كثيرون من أشــهر هذه الكتابات كتاب (لباب النقول فى أسباب النزول) للسيوطى الــذى جمع فيه أفضل ما وجـده فى كتب أسـباب الـنزول فضـلاً عن اجتهـاده الخـاص. ومع هـذا فقد تضـمن الأمثلة الآتية .

1. ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُـلْحًا وَالصُّـلْحُ خَيْـرٌ وَأُحْضِـرَتْ الْأَنفُسُ الشُّـحَّ وَإِنْ تُحْسِـنُوا وَتَتَّقُـوا فَـإِنَّ اللَّهَ كَـانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. {128 النساء} ..

روى أبو داود والحـاكم عن عائشة قـالت َفَـرقَتْ سـوده أن يفارقها رسـول الله حين أسنت فقالت يومى لعائشة فنزلت الآية .

وروى الترمذى مثله عن ابن عباس .

ونقول إن هذا سبب لا يمكن أن ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسـلم ولا إلى أم المؤمنين سوده وصياغة الآية تستبعد أن يقصد بها الرسول وأم المؤمنين .

2. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. {24 الحجر} ..

روى الترمذى والنسائى والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال كانت امرأة تصـلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس – فكـان بعض القـوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها ويسـتأخر بعضـهم حـتى يكـون فى الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت أبطية فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين الآية .

وأخرج ابن مردويه عن داوود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصارى "ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين" أنزلت فى سبيل الله قال لا، ولكنها فى صفوف الصلاة .

ونقول أن ذلك يخالف الوقائع. ويناقض السـياق وقد فسر السـيوطى نفسه فى تفسـير الجلالين الشق الأول من الآية "أى من تقـدم من الخلق من لـدن آدم" والشق الثانى "المتأخرين إلى يوم القيامة" ..

3. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. {92 النحل} ..

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى حفص قال كانت سيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنـزلت ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها!! ..

يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها ويقال إن فرعـون كـان قد ركب "فرسـة" أتاها الشـبق وهى تمخر فى البحـر. كـانت الفـرس قد ملأها الهيـاج الخ... ص13 مجلة اللواء الإسلامى – 6 ربيع ثان 1403هـ - 20 يناير 1983 م .

4. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. {25 الكهف}.. أخــرج ابن مردويه عن ابن عباس قالت أنزلت "ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة" فقالوا يا رسول الله سنين أو شهوراً فانزل الله "سنين وازدادوا تسعا" .

5. ﴿وَمَا أَرْسَــلْنَا مِنْ قَبْلِــكَ مِنْ رَسُــولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّــيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِــهِ فَيَنْسَــخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّــيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِــهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. {52 الحج} ..

أخرج ابن أبى حـاتم وابن المنـذر من طريق بسـند صـحيح عن سـعيد ابن جبـير قال: قرأ النبى صلى الله عليه وسلم بمكة "والنجم" فلما بلغ ﴿أَفَـرَأَيْتُمْ اللاتَ وَالْعُـزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾. ألقى الشيطان على لسانه "تلك الغرانيق العلى وإن شــفاعتهن لترتجى" فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم – فسجد وسجدوا فـنزلت ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾

وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحســبه وقــال لا يــروى متصلا إلا بهـذا الإســناد وتفــرد بوصــله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور .

وأخرجه البخــارى عن ابن عبــاس بســند فيه الواقــدى وابن مردويه عن طريق الكلبى عن ابن صالح عن ابن عباس وابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس .

وأورده ابن إســحق فى الســيرة عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بن قيس وابن أبى حاتم عن السدى كلهم بمعنى واحد .

وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأولى .

قال الحافظ بن حجر ولكن كثرة الطرق تـدل على أن للقصة أصـلا، على أن لها طريقين صحيحين مرسلين أخرجهما ابن جرير أحدهما من طريق الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحـارث بن هشـام والآخر عن طريق داود عن هند عن أبى العالية ولا عبرة بقول ابن العربى وعياض إن هذه الروايات باطلة ولا أصل لها .

ونقول إن هذا الكلام يوضح لنا مرة أخرى هيمنة الإسناد، فمع أن بعض الروايات اعتبرت باطلة، إلا أن الطرق الأخرى التى ظاهرها رواة أخـرون أقـوى (رغم أنهما كانا مرسلين) كانا سببا لاستبعاد كل ما وجه لها من نقد، مع أن الأمر يتعلق بشخص النــبى وأدائه للرسالة، وليس هناك ما هو أخطر من هـذا وأدعى لـدفع مثل هـذه المفتريـات، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات، أفما كان واجبا أن تسـتبعد هـذه الشـبهات المتكاثفة ما جـاءت به الرواية من ادعـاءات بعيـدة فى حد ذاتها عن الحقيقـة. وقد علق مصـحح لبـاب المنقـول "المطبـوع على هـامش تفسـير الجلالين بمطبعة البـابى الحلـبى سـنة 1342 هـ" .

"العقيدة تعتمد اليقين أو ما يقاربه فى السند لأنها يقين فى موضعها وإذن الحق مع عياض وابن العـربى وغـيرهم من المحققين، بل العقل فى هـذا الموضـوع ينفر كل النفور من صحة هذه الرواية" .

6. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْـدِهِ أَبَـدًا﴾. {53 الأحزاب} ..

عن السدى قـال بلغنا أن طلحه بن عبيد الله قـال أيحجبنا محمد عن بنـات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت الآية .

وأخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمد بن عمـرو بن حـزم نـزلت فى طلحه بن عبيد الله لأنه قال إذا توفى رسول الله تزوجت عائشة .

وهــذا كلام لا يقبل وطلحه بن عبيد من الســابقين إلى الإيمــان، ومن العشــرة المشهود لهم بالجنة، ومعاذ الله أن يقول ما افتراه عليه الرواه، وما لا يقوله إلا عــربى جاف مشرك، كما جاء فى بعض الروايات الأخرى.

7. ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِـدَانِنِي أَنْ أُخْـرَجَ وَقَـدْ خَلَتْ الْقُـرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُـولُ مَا هَـذَا إِلا أَسَـاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾. { 17 الأحقاف} .

أخرج ابن أبى حـاتم عن السـدى أنها نـزلت فى عبد الـرحمن ابن أبى بكر قـال لأبويه وكانا قد اسلما وأبى هو أن يسلم فكانا يأمرانه بالإسـلام فـيرد عليهما ويكـذبهما ويقـول فـأين فلان وفلان يعـنى مشـايخ قـريش ممن قد مـات، ثم أسـلم بعد فحسن إسلامه فـنزلت توبته فى هـذه الآية ﴿لِيُـوَفِّيَهُمْ أُجُـورَهُمْ وَيَزِيـدَهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّهُ غَفُـورٌ شَكُورٌ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس مثله .

ونقول إن وقائع التاريخ وسياق الآية يكذبان هذا الزعم، وقد كـذبت عائشة هـذه الدعوى وقال الحافظ بن حجر ونفى عائشة أصح إسناداً وأولى بالقبول .

8. وعمد هؤلاء إلى سورة من أجمل سور القرآن وأشدها تأثيرا وتعبيرا عن إحدى الفترات النفسية التى تعتور الأنبياء والمفكـرين وأضـفى الله تعـالى على نبيه فيها من كرمه ورعايته ما يعيد إليه الأمل هى سورة الضحى.. فجعلـوا سـببها وجـود جـرو تحت سرير النبى: قـال الحافظ ابن حجر "قصة إبطـاء جبريل بسـبب الجـرو مشـهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما فى الصحيح" وما فى الصـحيح أفضل من هذا، ولكنه يعرض بطريقة تهبط بروعة السـورة وعمق المناسـبة ومناخها النفسى وما توحى به عن معاناه ..

9. وفى تعليل نزول آية ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَا فَـإِنْ بَغَتْ إِحْـدَاهُمَا عَلَى الأُخْـرَى فَقَـاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْـرِ اللَّهِ فَـإِنْ فَـاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. هـذه الآية المعجـزة الـتى تقـدم أساسا لمحكمة عـدل دوليـة، وتضع قواعد عملهـا، يقـول بعض المفسـرين إنها "نزلت فى قضية هى أن النبى ركب حمـارا، ومر على ابن أبى، فبـال الحمـار فسد بن أبى أنفــه، فقــال ابن رواحة والله لبــول حمــاره أطيب ريحا من مســك فكــان بين

قوميهما ضرب بالأيدى والنعال والسعف" فانظر كيف هوى هؤلاء بهـذه الآية من روعة التقنين المحكم إلى بول حمار .

وعندما جوبهوا بروايات متعـددة عن أسـباب نـزول الآية الواحـدة وما يـؤدى إليه هذا من تضارب وتهاوى بعضها. عز عليهم – فيما يبـدو – أن يضـحوا ببعضـها لأنهم نقلة روايات وعبـدة نصـوص فحـاولوا الجمع بينها على أسـاس "الاحتمـال" وبـاب الاحتمـال يمكن أن يحمل كل شىء. فعنـدما تعـددت الروايـات عن أسـباب نـزول الآية ﴿مَا كَـانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُـرْبَى مِنْ بَعْـدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. فقيل إنها نزلت فى أبى طالب عم النبى وحامى الــدعوة الأول وقيل إنها نــزلت فى أمه (أى أم الرســول). وقيل إنها نــزلت فى رجل اســتغفر لأبويه المشركين – قال الحافظ ابن حجر "يحتمل أن يكون لنزول الآية سبب متقدم وهو أمر أبى طـــالب ومتـــأخر وهو أمر آمنة وقصة على" مع أن نص الآية لا يتفق مع هـــذه الروايات لأنها أسست عدم الاستغفار على ظرف معين هو "من بعد ما تــبين لهم أنهم أصحاب الجحيم". وهذا لا يمكن القطع بأنه ينطبق على عم الرسول. أو أمه. أو الأبـوين المشركين فى الرواية الثالثة. ولو فرضـنا أن النـبى صـلى الله عليه وسـلم أنـبىء عن مصـير عمه أو أمه – فـإن الآية لا تقتصر على النـبى ولكنها تضم الـذين آمنـوا وهم لا يعلمــون من هم أصـحاب النـار ومن هم أصـحاب الجنة على وجه اليقين – وبالنسـبة لأفراد بعينهم حتى يستغفروا لهم .

ومن هنا فإن محاولة تعيين فيمن نزلت هذه الآية يتنافى مع الآية نفسه والأصول الأولية للإسلام وهو يكشف كيف أن طلعة التعيين تنتهك هذه الأصـول والسـياق، حـتى عندما تكون ما انتهت إليه متضاربة، وبالنسبة لعم النبى وأمه ..

ولو لم يستعبدهم الإسناد، لما ساورهم شك فى أن الله تعالى الـرحمن الـرحيم لا يمكن أن يجعل من أصـحاب الجحيم أم الرسـول الـتى حملته ثم مـاتت وهو طفل – أى قبل نبوته. أو عم الرسول الذى حماه من عدوان قريش، حتى وإن لم يؤمن .

وأسـباب الـنزول بعد هـذا كله ليست لها الأهمية المظنونـة. اللهم إلا إذا كـانت الآيات تتعلق بحالة خاصة أو شخص معين يذكر بالاسم أو تحدده القـرائن القوية كقوله تعالى "ثـانى اثـنين إذ هما فى الغـار" إذ لم يكن مع النـبى فى الغـار إلا أبو بكر أو "إن فرعـون علاً فى الأرض" فيـدل على أن الأرض هنا هى مصر لأن فرعـون لقب خـاص بملك مصر ولأن الحــادث كله حــدث فى مصــر. ولكن الأغلبية العظمى من الآيــات القرآنية توجيهات وأحكام عامة تكون العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقولون ففى هذه الحالة لا يكون لأسـباب الـنزول أهمية إلا إشـباع الفضـول. بل يمكن أن يـؤدى ذكر سـبب الـنزول إلى جعل الحكم العـام محل المسـاءلة وتحميل عمـوم اللفظ بخصـوص السـبب وهو أمر غـير مطلـوب فـإن القـرآن الكـريم لم يضع أحكـام الظهار واللعـان والقـذف والسـرقة والزنا الخ... كأحكـام لحـالات فردية ولكنه وضـعها كأحكام عامة ووضع القرآن نفسه أو تولت السُنة النبوية تعيين الحدود والتفاصـيل دون أن تشير إلى الحالة التى قيل إن الآيات نزلت فيها .

وظل تـأثير "أسـباب الـنزول" قويـاً حـتى لـدى عـدد كبـير من خـيرة الكتـاب الإسلاميين وممن لا ينقصهم التجديد فقال بعضهم "إن أسباب النزول من الأحكـام هى بمثابة المـذكرة التفسـيرية الـتى تلحق بـالقوانين ويعـاد إليها لفهم ملابسـات صـدور القانون". والأمر هنا يختلف تماماً وقياس غـير دقيق ومعاملة للقـرآن كما لو كـان أحد المراجع القانونية العاديـة. وقد فـات هـؤلاء نقطة هامة أشـار إليها الـدكتور طه جـابر العلـوانى[44]. **هى أن الرسـول قـام قبل وفاته توقيفا بإعـادة تـرتيب آيـات الكتـاب الكـريم وسـوره، فقطعه بـذلك عن أسـباب الـنزول، وعن تـاريخ الـــنزول، وعن الســـياق الزمـــنى وذلك لحكمة بالغة لعل منها أنه – عليه الصلاة والسلام – أراد أن ينبه العالمين كلهم من عصره إلى يوم القيامة إلى أن هذا الكتاب الكريم كتاب مطلق عـام وشـامل لكل البشـرية ولكل ما تحتاجه البشرية، وهو قادر بإطلاقيته هـذه على اسـتيعاب وتجـاوز كل ما يأتى ويستجد من القضايا بعد عصر النبـوة الـتى ختمت بكـريم عطائه المتجدد وبقدرات الاستيعاب المودعة فيه" .**

فأسباب الـنزول، بنـاء على قيـام الرسـول بإعـادة تـرتيب آيـات الكتـاب توقيفـاً فقدت الأهمية المظنونة، **وكذلك ما يظن بعض الكتاب المحدثين من أن إعادة ترتيب السور تبعا لوقت نزولها يلقى الضوء على ملابسات الـنزول** ويعين فى فهمها فهـذا كله قيـاس للقـرآن على الكتب العاديـة. والقـرآن ليس كتابـاً عاديـاً. ومجـرد معاملته ككتـاب ككل الكتب يجعل الأحكـام عن ذلك باطلـة. وهـذا هو النقص الرئيسى فى كتابات المستشرقين لأن ألف باء القرآن أنه كتاب الله. وكل من لا يؤمن بذلك فلا يوثق بما ينتهى إليه لأن المقدمة بنيت باطلة وما بنى على الباطل باطل ...

وقد ادعو أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسـبب وهـذا تلاعب بالألفـاظ. ونحن نـــؤمن أن الله تعـــالى لا يصـــدر أحكامـــاً إلا لعلة أو ســـبب أو حكم له من الســـلامة الموضـوعية ما يجعله أصـلاً لإصـدار هـذا الحكم ويكـون علينا تعـرف هـذه الحكمة (أو السبب) وقد تستبعد التطورات الاقتصـادية والاجتماعية الحكمة الـتى أنـزلت من أجلها الأحكام وعندئذ فإن الحكم ينتفى تلقائيا لأن الحكم يسير مع العلة وجوداً وعدما. وهـذا هو ما ينطبق على أحكـام الـرق والغنـائم والجزية وغيرها من الأوضـاع الاجتماعية أو الاقتصـادية الـتى جاوزها التطـور وليس هنـاك غضاضة مطلقا فى القـول إن العلة قد انتفت من هذا الحكم، فانتفى وجوبه لأن الله تعالى جعل الأحكام حلاً لعلل معينة فـإذا جاوزها التطور انتفت الأحكام بالتبعية وقد أمرنا القرآن الكريم بأن نتدبر الآيـات وأن لا نقف أمامها صماً عمياناً. وهذا هو ما فعله عمر بن الخطاب فى اجتهاداته المشهورة .

أما قولهم إن العلم بالسبب يـورث العلم بالمسـبب فحسـبك فى فسـاده المثل الذى ضربوه هم أنفسهم ظناً منهم أنه يؤيدهم فقد قالوا أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَـدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُـوا

44 **(44) بحث الاجتهـاد وهـاجس التأصـيل وتحـدى التحرير "مجلة رؤى الحضـارية بباريس" ص10 السنة الرابعة العدد 17 – 2003 .**

فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب. حين سألهم النبى عن شىء فكتموه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك (أخرجه الشيخان)[45] .

فتفسير الآية طبقاً لما أورده ابن عباس يقصرها على واقعة معينة، خاصة إذا أخذنا بما أوردته روايات أخرى عن أن ابن عباس قال فى صدر كلامه "ما لكم ولهذه الآية..." ويفرغها من محتواها ومضمونها، بحيث يجعل الذين يفرحون بما أوتو ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب – أى على نقيض ما أرادت الآية. فى حين أن الآية جزء ثمين من التوجيه الخُلقُى الدائم للقرآن. الذى ينطبق على كل من يفرح وأن يُحمد بما لم يعمل ويظن أنه بمفازة من العذاب والآية تضم قسمين: الأول التنديد بالذين يفرحون بما أوتوا،والثانى التنديد بالذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. ومفتاح التوجيه فى القسم الأول من الآية أن القرآن الكريم يستخدم كلمة الفرح – فى أغلب الحالات – بالمعنى السىء لها، أى الزهو والفخر والغرور، كما تدل على ذلك الآيات ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. و﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. و﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾. فالقرآن هنا يجمع ما بين الفرح والفخر، وهما قريبان فى معظم الحالات. وقلما ينجو من ذلك إلا القلة القليلة التى أوتيت الحكمة والنضج أما عامة الناس فهم فى حاجة إلى هذا التأديب والتوجيه من القرآن وإذا تركت الطبيعة البشرية وشأنها فإن الفرح يطغيها وقد صاغ القرآن كلمة "أوتوا" بصيغة المجهول يدل على أنهم ليسوا أصحاب الفضل فيما وصلوا إليه، أو على الأقل ليسوا الوحيدين، لأن الأمر كله لله، فضلاً عن القرآن بحب للمؤمن بصفة عامة أن لا تتملكهم العواطف التى تزل بالأقدام وتؤثر على الأحكام، وخليق بمن يتملكه الفرح بما يصل إليه، أن يتملكه الحزن بما يضيع منه والقرآن يوجه المؤمنين ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. وأوضح الحديث النبوى الموقف النمطى إيجابا وسلبا للمؤمن فقال أن المؤمن إذا أصابته ضراء صبر، وإذا أصابته سراء شكر، ولم يقل فرح. وشتان بين الشكر والفرح .

والقسم الثانى من الآية وهو التنديد بالذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وما أكثر هؤلاء الأدعياء الذين يسرقون عمل الآخرين، ويدعون لأنفسهم ما لم يفعلوا، ويسلطون الأضواء على أشخاصهم، وأشخاصهم هواء

ويوحى تعبير "بمفازة من العذاب" بأن الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا يرون مسلكهم هذا هينا بعيداً عن المساءلة كما تصور مروان فى حين أنه يتضمن بذرة أعظم الموبقات قاطبة إلا وهى الغرور والاستعلاء والإدعاء

فالآية تجمع جمعاً محكماً، يمثل الإعجاز القرآنى فى تركيز اللفظ وتكثيف المعنى والربط بين المشاعر التى تمت إلى أصل واحد. وقد أدت الآية ما أراده الله

45 **(45) الإتقان للسيوطى ص28 ج1 .**

لها عنـدما أثـارت مـروان وأيقظته من غفلتـه، فجـاء هـذا التفسـير الخـاص ليجعل له مخرجا وليفوت ما أراده القرآن ...

والآية تقدم مثالا نمطيا لتفسير يقوم على فهم القـرآن وتفسـير آخر يقـوم على روايات وكيف أن الأول يجعل من القرآن كتاب هداية مطلقة عامة، والثـانى يجعل منه كتاب رواية مقيدة خاصة كما أن استشهاد الكتاب المعاصرين وأساتذة الجامعات بهـذه الواقعة نقلاً عن الكتب القديمة وعرضها كما عرضها القدماء فى كتبهم المقررة لطلبة الجامعــات دون أن يخطر لواحد منهم أن يعمل ذهنه وهم أســاتذة يعلمــون الجيل أو يوجهون الجماهير، يوضح جريرة العقلية النقلية ومدى شلها لبواعث التفكير حتى لـدى أساتذة الجامعة فضلاً عن طلبتها أو عامة الناس .

من ذلك أيضاً ما نقلوه عن أبى يوسف فى قوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا إن نسـينا أو أخطأنا إن ذلك فى الشـرك "لأنهم كـانوا حـديثى عهد بكفر فيريد أحـدهم التوحيد فيهم فيخطئ بـالكفر فعفا لهم عن ذلك كما عفا لهم عن النطق بـالكفر عند الإكـراه قال فهذا على الشرك ليس على الأيمـان فى الطلاق والعتـاق والـبيع والشـراء (حيث لم تكن الأيمان والعتاق زمانهم"[46]. فهل فات هذا العـالم العلامة – إمـام الحنفية وهم سادة القياس أن ما يسرى على هذا الأمر الخطير أمر الإيمان والشرك يسرى على ما هو أقـل.. أو كيف غفل عن أن الآية مدنية واحتمـالات حداثة العهد بـالكفر هى آخر ما يمكن أن يحتج به فى الآيات المدنية وهـذا القـول المنقـول عن أبى يوسف وما رتبـوه عليه من أحكام يذهب بهذه الآية الجميلة والابتهال الـذى يصـدر من أعمـاق قلـوب كل المؤمنين كما يفتات على السياق المحكم لها وما يضعه من مبدأ أصولى عام .

هذه أمثلة عارضة فحسب تبين أن تفسير القرآن طبقا لأسباب النزول يمكن أن يغير المعنى أو يذهب به فإذا كان المعول والعمل هو بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإن أسباب النزول تكون فضولا ولا معـنى لها وككل فضـول فإنها تكـون على حسـاب الهـدف المطلـوب على وجه التحديد بحيث تميعـه، وإذا كـانت أسـباب الـنزول تجعل العبرة بخصوص السبب وهو فى حقيقة الحـال ما يـوحى به أو يـؤدى إليه ذكر السـبب كما يتضح ذلك من أن ابن عباس عندما قدم سبب نزول "لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا.. الآية" قال أولا "ما لكم ولهذه الآية" إنما دعا النبى يهود فسألهم الخ... نقول إذا كانت أسباب الـنزول ستقتصر العمل على "خصـوص السـبب" فإنها سـتذهب بـالقرآن ككتاب هداية للناس كافة إلى يوم يبعثون وتجعله كتاب قصص وحكايات .

ومما يوضح لنا شيئاً من هذا الإسفاف أن المفسرين ارتضوا قول الصـحابى فى الحديث عن أسباب النزول واعتبروا أن قول الصحابى الذى شهد الـوحى والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كـذا.. حـديثا مسـندا، كما أنهم اعتـبروا المرسل من كلام التابعين مرفوعا. وقد يقبل إذا صح المسـند إليه وكـان من أئمة التفسـير الآخـذين عن الصـحابة كمجاهد وعكرمة وسـعيد بن جبـير أو اعتضد بمرسل آخر وبهـذا انفتح البـاب

---

[46] **(46) أصول الفقه للشيخ الخضرى ص211 .**

أمام روايات لا تمثل إلا نقولا من الكتب السابقة اعتقدوا صحتها باعتبارها من علم أهل الكتــاب، وهنــاك رخصة بروايتهــا، ومعظم الــذين رووا عن مجاهد وعكرمة وســعيد بن جبير مطعون فيهم، فضلاً عن أن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أنفسهم لم يســلموا من المآخذ التى تلقى ظللا من الشبهة على روايتهم .

* * *

على أن أسوأ ما وقع فيه المفسرون القدامى هو القول بالنسخ واعتبـارهم هـذا النسخ أهم علوم القرآن المدعاة بحيث كانوا يقولون لمن جهله "هلكت وأهلكت!" .

وما من مفارقة تثــير الــذهول كهــذه، فبــدعوى خدمة القــرآن أعْمَل هــؤلاء المفسرون سكين النسخ قطعاُ وبـتراً فى مئـات الآيـات.. فهل يختلف عملهم هـذا عن عمل "جزار اليهود بالبقر.." كما رأى شوقى "برأها من العيوب.. وعقر!!" ..

لا أدرى كيف واتت هؤلاء المفسرين الجـرأة على هـذا الجـرم العظيم.. وأغـرب من ذلك وأعجب أنهم رأوا فى المفسر الوحيد الــــذى أنكر النسخ – أبو مســـــلم الأصـفهانى – أنه "جاهل بهـذه الشـريعة جهلاً فظيعـاً كما قـال الشـوكانى فى إرشـاد الفحول "أو أن قوله ضعيف مردود مرذول" كما قال ابن كثير .

وجـاء فى "فـواتح الرحمـوت شـرح مسـلم الثبـوت "وأجمع أهل الشـرائع على وقوعه سمعا خلافا لأبى مسلم الأصـفهانى الجاحظ من شـياطين المعتزلة وهو لا يصح ممن يدعى إسلامه إلا بتأويل" .

وقــال الســيوطى "والنــاس فى هــذا بين طــرفى نقيض فمن قائل لا يقبل فى النسخ أخبار الآحاد العدول ومن متسـاهل يكتفى فيه بقـول مفسر أو مجتهد والصـواب خلافهما " .

فأنظر كيف أصبح النسخ لعبة "المتساهلين" ..

ودفع النسخ أحد الشـــيوخ المعاصـــرين لأن يقـــول "فالنسخ يتمشى مع العقل البشـــرى وأنه لا معارضة بينهما أصلا **فـــإن الشـــرائع الســـماوية ما هى إلا كالقوانين التى يضعها الناس لأنفسهم لتحقيق المصلحة العامة والخاصة بالناس** وأن هذه القوانين تعدل وتغير حسب مقتضيات الزم من التقدم البشرى" وقد جاءت هذه الفقرة فى كتاب له صدر سنة 1978 وأعادها بعلاتها فى كتاب آخر له سنة 1980 [47] .

هل قوانين الله من القوانين التى يضمها النـاس لأنفسـهم وقيم الحاجة أذن إلى كتاب الله !! .

وجـاء فى كلام أحد المـدافعين – أو قل المتشـنجين – عن النسخ عند تفسـيره للآية ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نـأت بخـير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير﴾ .

---

[47] **(47) الدكتور شعبان محمد إسماعيل "مع القرآن" ص 510 (1978) و "المدخل لدراسة القرآن" ص 460 (1980) .**

"ووجه الدلالة أن الآية صريحة فى جواز النسخ على الله تعالى" .

والعجب أن الذين يصدرون هذه التعبيرات الفجة يعيرون من ينكر النسخ بإساءة الأدب! لأنه – كما اتهموا أبا مسلم "أساء الأدب مع الله فى تحمسه لرأى قائم على تحاشى لفظ اختياره جلت قدرته ودافع عن معناه بمثل قوله "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها.. وهل بعد اختيار الله اختيار وهل بعد تعبير القرآن تعبير سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. وهذا معنى ذكره بالنص تقريبا عدد من المناصرين لقضية النسخ من المعاصرين الذين ينقلون بعضهم عن بعض، ويتلقف المتأخر ما ذكره المتقدم .

ويماثل ذلك ادعاء بعض العلماء المعاصرين " إن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين اتخذوا من النسخ فى الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة طعنوا بها فى صدر الدين الحنيف ونالوا من قدسية القرآن الكريم وقد أحكموا شراك شبهاتهم واجتهدوا فى ترويج مطاعنهم حتى سحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع وأمعنوا فى هذا الجحود الذى ركبوا له أخشن المراكب من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة "[48] .

فهل الذين يقولون إن القرآن محكم هم الذين ينالون من "قدسية القرآن" أو هم الذين يعطلون المئات من آياته المثبتة وأوامره ونواهيه بدعاوى ثبت زيفها حتى من أنصار النسخ أنفسهم ؟؟.

وأغرب من هذا وأعجب أن يجيزوا للسنة أن تنسخ القرآن! بحجة أنها وحى! وهنا يصل الإغراض أو الغفلة بصاحبها إلى منتهاه، وعندما يرفض الشافعى ذلك، فإن الفقهاء المتأخرين أنكروا عليه هذا ورأوا فيه سقطة كبيرة فقال الكيا الهراسي "هفوات الكبار على أقدارهم ومن عد خطؤه عظم قدره" وكان عبد الجبار بن احمد كثيراً ما ينظر فى مذهب الشافعى فى الأصول والفروع فلما وصل إلى هذا الموضع قال "هذا الرجل كبير ولكن الحق أكبر منه !" وتطلب الأمر أن يتحايل أنصار الشافعى للشافعى وأن يبحثوا عن محامل يحمل عليها كلامه حتى يمكن أن يتفق مع التيار الغالب الذى كان يجيز نسخ السنة للقرآن متعللين بتأويلات متعسفة .

وذهب المفسرون مذاهب شتى فى عدد الآيات المنسوخة فذهب ابن الجوزى أنها {247} آية. وذهب أبو عبد الله بن حزم "وهو غير أبو محمد بن حزم الأندلسى الظاهرى المشهور" إلى أنها {208} آية. وعند أبى القاسم هبة الله بن سلامة {212} آية. وعند أبى جعفر النحاس {134} آية. وعند عبد القادر البغدادى {66} آية .

وقد عالجنا موضوع النسخ فى سبعين صفحة من كتابنا " الأصلان العظيمان الكتاب والسُنة " **وأثبتنا أن القرآن لا يستخدم كلمة آية** كما نستخدمها نحن بمعنى "نص" ولكن بمعنى قرينة أو معجزة أو دلالة وأوردنا كل المواضع التى جاءت

[48] **(48) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ج2 ص 70 .**

فيها كلمة آية فى القـرآن "82 موضـعا" وكلها بلا اسـتثناء بهـذا المعـنى، ومن هنا فـإن بناءهم النسخ على ما جاء فى سورة البقرة ما ننسخ من آية أو ننسها الخ... لا يجــوز الاستدلال به فضلاً عن أن القرآن استخدم كلمة نسخ بمعنى إثبـات أو كتابة فالـدعوى ساقطة تماماً ..

* * *

ولا تقف جريـــرة دعـــوى النسخ على أنها تنسخ كل آيـــات الحكمة والســـماحة والحرية الخ... بل إنها فتحت بابا نعـوذ بالله منـه، ولا يخالجنا أنه كله من كيد شـياطين الأنس من اليهـود أو أعـداء الإسـلام **وأن كل ما تضـمنه من إسـناد يصل إلى عائشة وعمر بن الخطاب هو محض تلفيق وكان** يجب أن لا تـدون، وإذا دونت فعلى أساس أنها أمثلة للدرجة الوقاحة التى وصل إليها الوضع .

ولكى يأخذ القارئ فكرة عنها نورد بعض نماذج منها :

1. قـالت عائشة كـان فيما أنـزل عشر رضـعات معلومـات فنسـخن بخمس معلومـات فتـوفى رسـول الله وهن مما يقـرأ من القـرآن رواه الشـيخان قـال السيوطى "وقد تكلموا فى قولها وهن مما يقرأ من القرآن. فإن ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك وأجيب بأن المراد قارب الوفاة أو أن التلاوة نسخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسـول الله فتـوفى وبعض النـاس يقرؤها وقـال أبو موسى الأشعرى نـزلت ثم رفعت وقـال مكى هـذا المثـال فيه المنسـوخ غـير متلو والناسخ أيضا غير متلو ولا أعلم له نظيرا .

2. ورووا عن ابن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر

3. وعن عائشة قالت كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى مائتى آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن .

4. وعن ذر بن حبيش قال لى أبى بن كعب كم تعد سورة الأحزاب قلت اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية قال إن كـانت لتعـدل سـورة البقـرة وان كنا لنقـرأ فيها آية الرجم قلت وما آية الرجم قال إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم .

5. وعن حميدة بنت أبى يونس قـالت قـرأ علىّ أبى وهو أبن ثمـانين سـنة فى مصحف عائشة أن الله وملائكته يصـلون على النـبى يا أيها الـذين آمنـوا صـلوا عليه وسـلموا تسـليما وعلى الـذين يصـلون الصـفوف الأولى قـالت قبل أن يغـير عثمـان المصاحف .

6. وعن عطاء بن يسار عن أبى واقد الليثى قال كان رسول الله إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا مما أوحى إليه قال فجئت ذات يوم فقال أن الله يقول إنا أنزلنا المــال لإقامة الصــلاة وإيتــاء الزكــاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكــون إليه

الثانى ولو كان إليه الثانى لأحب أن يكـون الثــالث ولا يملأ جـوف بن آدم إلا الـتراب ويتوب الله على من تاب .

7. وأخرج الحاكم فى المستدرك عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله أن الله يأمرنى أن أقرأ عليك القرآن فقرأ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ومن بقيتها لو أن ابن آدم ســأل واديا من مــال فأعطيه ســأل ثانيا وأن ســأل ثانيا فأعطيه سأل ثالثا ولا يملأ جـوف ابن آدم إلا الـتراب ويتـوب الله على من تـاب وأن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل فلن يكفره .

8. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى حرب بن أبى الأســود عن أبى موسى الاشـعرى قـال نـزلت سـورة نحو بـراءة ثم رفعت وحفظت منها أن الله سيؤيد هـذا الـدين بـأقوام لا خلاق لهم ولو أن لإبن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

9. وأخرج بن أبى حاتم عن أبى موسى الاشعرى قال كنا نقـرأ سـورة نشـبهها بإحدى المسبحات ما نسيناها غير أنى حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لا تقولـوا مــالا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة .

10. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن سـعيد عن الحكم بن عتيبة عن عـدى بن عـدى قال عمر كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم ثم قال لزيد ابن ثابت كذلك قال نعم .

11. حــدثنا أبن أبى مــريم عن نــافع بن عمر الجمحى حــدثنى بن أبى مليكه عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الـرحمن بن عـوف ألم تجد فيما أنـزل علينا أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة فأنا لا نجدها قال سقطت فيما أسقط من القرآن .

12. حــدثنا ابن أبى مــريم عن أبن لهيعة عن يزيد بن عمــرو المغــافرى عن أبى سفيان الكلاعى أن مسلمة بن مخلد الأنصـارى قـال لهم ذات يـوم أخـبرونى بـآيتين فى القـرآن لم يكتبا فى المصـحف فلم يخـبروه وعنـدهم أبو الكنـود سـعد بن مالك فقــال ابن مســلمة إن الــذين آمنــوا وهــاجروا وجاهــدوا فى ســبيل الله بــأموالهم وأنفسهم ألا ابشروا أنتم المصلحون والذين آووهم ونصــروهم وجـادلوا عنهم القـوم الــذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قــرة أعين جــزاء بما كانوا يعملون .

13. وأخــرج الطـبرانى فى الكبـير عن ابن عمر قـال قـرأ رجلان سـورة اقرأهما رســول الله فكانا يقــرآن بها فقاما ذات ليلة يصــليان فلم يقــدرا منها على حــرف فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا ذلك له فقال أنها مما نسخ فألهوا عنها .

14. وفى الصـحيحين عن أنس فى قصة أصـحاب بـئر معونة الـذين قتلـوا وقنت يدعو على قاتليهم قال أنس نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع أن بلغــوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا .

15. وفى المستدرك عن حذيفة قال ما تقرأون ربعها يعنى براءة .

16. ورووا عن عبد الله بن زرير الغافقى أنه قال لعبد الملك بن مـروان عن على بن أبى طـالب " لقد علمـنى سـورتين علمهما إيـاه رسـول الله ما علمتهما أنت ولا أبوك اللهم أنا نستعينك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إيــاك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجئو رحمتك ونخشى عذابك بالكفار .

17. وأخرج البيهقى عن طريق سفيان الثورى عن جـريج عن عطـاء عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركـوع فقـال بسم الله الـرحمن الـرحيم اللهم نستعينك ونستغفرك ونثـنى عليك ولا نكفـرك ونخلع ونـترك من يفجـرك اللهم إيـاك نعبد ولك نصــلى ونســجد وإليك نســعى ونحفد ونرجو رحمتك ونخشى نقمتك إن عذابك بالكافرين .

وتطلق بعض المصــادر على هـذا النص سـورتى الحفد والخلع وتـزعم أنهما كانا فى مصحف بعض الصحابة .

نقـول للـذين جـاءوا بهـذه المؤتفكـات تبت أيـديكم! ألم تســمعوا قــول الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الـذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحَـافِظُونَ﴾ فكيف تتـأتى هـذه التخرصـات مع حفظ اللـه؟ إنكم بأكـاذيبكم تلك قدمتم لأعداء الإسلام أقصى الأسلحة للطعن فى القـرآن وفى الإسلام وتحسبون أنكم تحسنون صنعا !!! .

* * *

كيف إذن جـازت دعـوى النسخ على الأئمة الأعلام ؟ جـازت لأنهم تصـوروا أنه لا يصح أن يتضمن القرآن أحكامـاً متفاوتة فى الحالة الواحـدة. لأنهم يريـدون أن يأخـذوا النـاس بحكم واحـد، ولو اسـتطاعوا أن يضـعوهم على مثل حد السـيف لفعلـوا، ولكن القرآن لا يقبل هذا وهو لم يـنزل للعـرب وحـدهم وإنما نـزل للبشـرية جميعـاً، وهو لم يـنزل لعصر واحــد، ولكن نـزل لكل العصـور. فكـان لابد أن يوجد التفـاوت والتعـدد، والبدائل فما يصلح لشـعب وعهد قد لا يصـلح لشـعب وعهد آخر والمسـلم ما دام يأخذ بآية فإنه يأوى إلى ركن حصين ويمسك بدليل مكين أما الرد عليه بالنسخ فمردود، لأن القـرآن لا يضـرب بعضه بعضـاً، فـالقرآن كما قـال الرسـول "القـرآن ذلـول ذو وجـوه فاحملوه على أحسن وجوهه" وكما قال الرسول فى حديث آخر "أن القــرآن لم يـنزل ليكذب بعضه بعضا. فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به" .

وقد نزلت آيات تحريم الخمر بتـدريج لأن العـرب ما كـان يمكن أن يقلعـوا مـرة واحدة عن الخمر ولم تنسخ الآية الأخيرة الآيـات الأولى **لأن من الممكن أن تتكـرر التجربة فيطبق التدريج لا التحريم، وقد حدث هذا بالفعل** عندما أراد القيصر الوثنى فلاديمير قيصر روسيا سنة 987 أن يختـار لشـعبه دينـاً سـماوياً فاسـتقدم ثلاثة من علماء الإسلام والمسيحية واليهوديـة، وكـان ميـالاً للإسـلام ولكن ما أن قيل له إن الإسلام يحرم الخمر حتى قـال "أسف إن شـعبى لا يطيق الاسـتغناء عن الفودكا " فلو

طبق فى روسـيا ما طبق فى العـرب، بمعـنى أن لا يصـدم الـروس بـالتحريم، وإنما يستخدم التدريج حتى يتأصل الإسلام فى قلوبهم ويمكن التحريم لكسب الإسلام شعب روسيا بأسره ولتغير التاريخ[49] .

* * *

من هـذا العـرض لمعالجة المفسـرين يتضح لنا أن اللغـويين منهم افتـاتوا على لغة القـرآن وأسـلوبه، وأسـاءوا فهمـه، وأرادوا تحكيم صـناعتهم وما وضـعوه من قواعـد، وأن الأخبـاريين سـودوا صفحات كتبهم بالإسـرائيليات وبكل ما جـاء من "لغـو" فى القـرآن وأعملوا سكين النسخ دون أن تأخذهم رأفة ..

وبمثل هـــذا الخطأ فى المعالجة أنهم عمـــدوا إلى تقطيع أوصال القرآن كل آية على حدة فى حين أن القرآن لا يحـدث أثـره أو يحقق رســالته إلا نتيجة لتلاحم آياته بعضـــها ببعض، وتقطيع أوصال القرآن كـان يعـنى قتلـه، ثم العكـوف على دراسة كل شـلو من أشـلائه.. وهو ما يمكن أن يقـدم لنا مـادة أو معلومـة، ولكنه لا يقـدم حيـاة، ولا يثـير عاطفة ولا يبعث على عمـل، ولا يـؤدى إلى هداية ...

وهذا هو المضمون الحقيقى لتفريغ القرآن من ثوريته ..

وعندما يفكر الإنسان مليا فيما فعله المفسرون وما عكفوا عليه القرون الطوال فإن الحيرة تتملكه كيف هان عليهم القرآن حتى يقحموا هذه النقول الركيكة والأقـوال السقيمة والمزاعم المسـفة.. وكيف لم تتوقف أيـديهم وهى تعُمل سـكين النسخ بـتراً وتقطيعاً، وكيف يتفق ذلك مع ما روى عن هؤلاء المفسرين من تقوى وإخلاص فـإذا لم يكن قد تحرك فى نفوسهم أو حاك فى قلوبهم شئ فإن هذا يكـون دليلاً فـذاً على أن قوة روح عصرهم المغلق جعلت هؤلاء الأسلاف يرتكبون جريمة شنعاء فى حق القرآن وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وقدموا شـواهد لأعـداء القـرآن وهم يحسـبون أنهم يدافعون عن القرآن .

(5)

قيمة التفاسير السلفية

رأينا أن كتب التفسير بالمأثور قد حشـيت بالإسـرائيليات والروايـات المدسوسة حـتى التبس الصـحيح بالعليل على حد تعبـير السـيوطى.. ولما كـان هـذا التفسـير هو أقرب إلى قلوب الناس على ما فيه من هـذه المؤتفكـات وأكثرها اشـتهارا فقد أصـبح ذلك مشـكلة، وقد قرأنا رأيا فى هـذه النقطة للأسـتاذ الشـيخ عبد المنعم النمر عنـدما كان بصدد الحديث عن تفسـير الطـبرى الـذى عد أفضل التفاسـير وآثرها لـدى النـاس وقيل عنه إنه لو سافر الإنسان إلى الصين لطلبه لما كان كثيرا، فبعد أن أشـار إلى أن

[49] **(49) نوجه الأنظار إلى أن موضـوع النسخ سـيعالج بالتفصـيل فى كتـاب مسـتقل تكون مادته الرئيسية ما جاء فى كتابنا الأصلان العظيمان: الكتاب والسُنة" .**

عصر الطبرى وهو عصر الاعتماد على الرواية وتهيب التفسير بالرأى فَتَحَ الباب واسـعا لدخول حشد هائل من الروايات غير الصحيحة – قال :

"وجاء الطبرى فحشـدها فى تفسـيره وكنا نحب ألا تنقل إلى ما بعد عصـره وألا تحويها الكتب حتى تموت بموت من يحملونها ولو تدريجيا ولكن وجودها مع ذلك يعطينا جانبا من صـورة الجو الفكـرى الـذى راجت فيه رواجا جعل الطـبرى وأمثاله يعنـون بتدوينها ..

ولقد كان الطبرى يورد هذه الروايات وهو عالم بما فيها من تنـاقض أو كـذب أو ضعف ثم ينقدها أحيانا ويأتى أيضاً بالكثير منها ويتركها بلا نقد .

وبعض النقاد يميلون إلى تبرئة ساحة أبى جعفر من النقد لسياقه هذه الروايـات دون نقــدها. قــائلين إنه ذكر لك الســند وعليك أنت أن تبحث عن صــحته أو كذبه أو ضعفه. راوين العبارة المشهورة بين علماء الحديث (من أسـند لك فقد حّملـك) يعنـون من ذكر لك سند الرواية فقد برئت ذمته وحملك أنت مسئولية البحث عن صحته .

ومع أن هذا الكلام صحيح فى حد ذاته وربما كان محتملاً للخاصة أو خاصتهم، إلا أنه يحمّل القراء أمانة فوق طاقتهم. فليس كل قارئ عارفا بالرجـال أو بأسـاليب النقد حـتى يسـتطيع التميـيز بين المقبـول وغـير المقبـول وليس كل قـارئ عنـده الرغبة أو الأمانة التى تحمله على التوقف حتى يتبين .

على أن هذا إن كان ممكنا فى زمن كثرت فيه الكتب المطبوعة المتداولة الـتى عنيت بالرواة ونقـدهم وبيـان غثهم من سـمينهم فإنه لم يكن متيسـراً من قبل شـيوع هذه الكتب ومن أجل هذا كان الارتفاع بهذه الروايـات الـتى كـانت متداولة فى أيامه – ومعروف بين العلماء أنها كانت بضاعة القصاص للتكسب والـرواج عند العامة – أقـول كان رفعها إلى مقام التدوين ووضعها بجـانب كلام الله على أنها تفسـير له مما سـاعد كثيرا على إشاعة الخرافات والأضاليل فى نفوس المسلمين ملصقة بتفسـير كلام الله فقد جاء بعض المفسرين بعد الطبرى ونقلوا هذه الروايات فى كتبهم فأتـاحوا لها جـوا أوسع من الذيوع والانتشار والسيطرة على الأفكار .

بل إنى أقول أكثر من هذا فيما يتصل بالروايات التى نقدها وهى أمنية تمنيت أن لو كـانت قد تحققت فى ذلك الـزمن المبكر فيمن وضع التفسـير. كنت أتمـنى أن لو اقتصر الطبرى وأمثاله على الروايات الصحيحة فى تفاسـيرهم وجردوها من الروايـات الباطلة الــتى كــروا عليها بالنقــد. لأنها كــانت ســتموت فى زمنها أما بعد أن دونت ووضعت بجانب التفسير فقد فتحوا الباب للقصاص وأصـحاب الهـوى أن يطلعـوا عليها ويستندوا إليها فى حكاياتهم للعوام لجذب انتباههم وكسب إعجـابهم. وابـتزاز أمـوالهم كما نـرى الكثـير فى أيامنا ممن يـدورون فى الأريـاف وبين العـوام أو متخلفى الثقافة يتحدثون فى التفسير أو الدين ويستولون على ألبابهم بهذه الروايـات الخيالية الخرافية دون خوف من الله ولا حرج من أصحاب العقل والفهم. ولا مراعاة لما يجب أن يكــون عليه تكوين الأمة العقلى والفكرى .

ولقد روى لنا كيف أن الخرافيين ممن كانوا يعتمدون على هـذه الروايـات كـانوا يسـتولون على قلـوب العامة ويهيجـونهم ضد العلمـاء الـذين ينكرونها حـتى يوجعـونهم ضربا وإهانة ومع ذلك عنى الطبرى بتدوينها .

إننا نجنى من هذا وذاك الآن الكثـير من المـر. والكثـير من التهجم على الإسـلام وكتابه.. ولقد كونت هذه الروايات عقلا خرافيا فى أوساط المسـلمين نحتـاج إلى كثـير من الجهد والوقت للقضاء عليه وبعض أعداء الدين من المسلمين أنفســهم مع الأسف ممن تمذهبوا بمذاهب وافدة يتخذون من هذا تكاة لرفض الدين كلية مع أنهم مبطلـون إلا أنهم أصحاب هوى. يستغلون الضعف عند عـدوهم لينقضـوا عليـه، ونحتـاج نحن إلى دفاع وإلى جهد كبيرين لتطهير عقول الناس من هذه الخرافات والروايـات الإسـرائيلية المضللة .

أفما كان من الأولى لهؤلاء السـلف الطيـبين أن يكونـوا بعيـدى النظـر، فـيريحوا أنفسهم والأجيال الـتى بعـدهم من هـذه الخرافـات والأضـاليل ويـذكروا لنا ما صح فى سنده وما رأوه بعقولهم الناضـجة ؟.. نعم كـان من الأولى ولكن مـاذا نفعل الآن وهـذا هو الذى كان ولعل لهم عذرا ؟ ..

إن هذا يحملنا الآن مسئولية ضخمة وإن لم تكن عسـيرة أو صـعبة ولكنها تحتـاج إلى همة وغيرة وجهد يتكاتف فيه العلماء مع الحكومات التى تعنى بهذه الناحية .

هذه المسئولية هى تجريد هذا التفسير وأمثاله من كل رواية غير صحيحة. سواء أكانت إسرائيلية أو موضوعة.. وإخراج الكتاب بعد ذلك للناس بريئا من هـذه العيـوب.. ثم جمع كل النسخ الأصـــلية من الأســـواق ووضع ما أمكن منها فى المكتبـــات العامة ويحظر الإطلاع عليها لغير الخاصة كما يحظر نقل ما لم ينقل منها فى التجريد .

بذلك نقضى على هذه الخرافات والإسرائيليات من العقول ولابد بجوار ذلك من جهد آخر هو عـدم السـماح بطبع أى كتـاب آخر فيه شـىء من هـذه الأضـاليل[50]. فقد تسربت من كتب التفسير وكتب التاريخ كذلك إلى كتب أخـرى بعنـاوين أخـرى وتحتـاج إلى المتابعة المستمرة وإذا كانت هناك رقابة على المطابع فى الأمور السياسية، فمن الواجب أن تفرض هذه الرقابة فى مثل هذه الأمور التى تتدخل قويا فى تكــوين عقلية المسـلمين وإلى أجيـال.. وتفسد تصـوراتهم عن القـرآن والحيـاة، وهـذا شـىء ليس بالقليل. بل هو من الخطورة بمكان كما سبق أن أشرنا إليه .

ولا أظن أن فينا من يعـارض مثل هـذا المشـروع بحجة صـيانة الـتراث أو بحجج أخرى .فـالتراث سـيظل لمن يريد الاطلاع عليه على إننا سـوف نقـدم الـتراث الفعلى حقيقة ولا نحــرم المطلعين من شــيء له فائــدة بل نحــول بينهم وبين ســموم هــذه

[50] **(50) مع اتفاقنا فى الفكرة العامة الـتى ذهب إليها الكـاتب ورغبته فى التجريـد، إلا أننا لا نتفق مع إشارته إلى الحظر وتقييد الطباعة لما قد يسـتتبعه من اعتمـاد على تقـنين مقيد لحرية الفكـر. إن إظهـار الحق هو أكـثر الأسـاليب فعالية فى تفنيد الباطـل. وسـتموت هـذه الأباطيل من تلقـاء نفسـها مع ارتفـاع المسـتوى الفكرى للمسلمين لأنها إنما تعيش على مناخ الجهالة والتخلف .**

الخرافات ونقيهم أضاليلها ونشجع المطلعين على الاطلاع ونقدم الكتاب في حجم أقل كثيراً من حجمه الحالي وبثمن أقل من ثمنه مما يغري بالشراء والاطلاع ..."[(*)]

أوردنا هذه الفقرات علي طولها لأنها تعرض القضية أفضل عـرض ولما تضـمنته من إشارة ذات مغزى بعيد . فقد تمنى الكـاتب عنـدما كـان يكتب هـذه الكلمـات عـام 1969. أن نجرد التفاسير من تلك الحواشي الخرافية ولكن بعد أكثر من عشرة أعوام من ذلك التاريخ أن عددا من دور النشر خاصة فى بيروت يشرف عليها تجار لا يفقهون من شئون الدين شيئاً ولا يفرقون بين التفسير وألف ليلة وليلة. ولا وقت لديهم لتنقيح أو حـتى مراجعـة.. وهـدفهم الوحيد هو الكسب السـريع .. قد سـطوا على مجلـدات الـتراث وصـوروها كما هي بعجرها وبجرها وأخطائها المطبعية "بالأوفسـت" ونشـروها في الأسـواق. وكـأن هـذا لم يكن كافيـاً، إذ ظهـرت في الجامعـات المصـرية ناشـئة متحمسة للإسـلام عجـزت قياداتها عن أن تقـدم لها الرؤية الإسـلامية الـتي يمكن أن تتعامل بها مع هــذا العصر فتملكتها نزعة نكوصــية وعــادوا للــتراث وفعلــوا كما فعل ناشرو بيروت مع الفارق الكبير في المقصد.. وبهذا عادت مرة أخـرى تلك المؤتفكـات لتعيش في هذا العصر وتعشش في أذهان الناشـئة المثقفة وتكـون عقبة جديـدة أمـام التفكير الإسلامى الموضوعي الذي يقوم علي إعمال الفكر والذهن وليس مجرد النقل والرواية .

* * *

على أن الشـيخ المجتهد محمــود شــلتوت لم ير تجريد التفاســير التقليدية من خرافاتهــا، لأنه انتقد طريقة المفســرين القــدامى فقــال: "لتفســير القــرآن الكــريم طريقتــان إحــداها أن يسـير المفسر بتفسـيره مع آيـات الـذكر الحكيم وسـوره علي الترتيب القرآني المعروف فيفسر المفـردات ويربط بين الآيـات ويـبين المعـاني الـتي تدل عليها، وهذه هي الطريقة التي عهدها الناس منذ كان التفسير وكـان المفسـرون، ومن مظاهرها اختلاف طـرق التفسـير بـاختلاف روح المفسـرين فمن غلبت عليه روح العلوم البلاغية عُنيِّ في تفسـيره بـالتطبيق علي قواعـدها، ومن غلبت عليه روح النحو والصــرف عــني في تفســيره بــإعراب الكلمــات وتصــريفها، ومن غلبت عليه الــروح التاريخية عـــني بالقصص والأخبـــار وربما أســـرف فأدخل في التفســـير كثـــيرا من الإسرائيليات دون تحقيق ولا تمحيص، ومن غلبت الروح الفلسفية حبب إليه البحث في الكائنـات وعـني في تفسـيره بهـذا الجـانب، ومن غلبت عليه روح الجـدل الكلامي أو الفقهي تأثر تفسيره بما غلب عليه وهكذا .

واقترح الشيخ شلتوت طريقة جديدة فقال :

أما الطريقة الثانية فهي أن يعمد المفسر أولا إلي جميع الآيـات الـتي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمـواد يحللها ويفقه معانيها ويعـرف النسـبة بين بعضـها وبعض فيتجلى له الحكم ويتبين المرمي الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع .

وبذلك يضع كل شئ موضعه ولا يكـره آية علي معـني لا تريـده كما لا يغفل عن

(*) الشـيخ عبد المنعم النمر . التفسـير والمفسـرون مجلة العـربي العـدد 121 أكتوبر 1969 ص 20-24 .

مزية من مزايا الصـــوغ الإلهي الحكيم وهـــذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلي وخصوصا في التفسـير الـذي يـراد إذاعته علي النـاس بقصد إرشـادهم إلي ما تضـمنه القــرآن من أنــواع الهداية وإلي أن موضــوعات القــرآن الكــريم ليست نظريــات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعـات من أقضيه ويصل بحياتهم من شئون .

وهي تمكن المفسر من علاج موضـوعات عملية كثـيرة كل موضـوع منها قـائم بنفسه لا يتصل بسـواه ولا يختلط بغـيره فيعـرف النـاس موضـوعات القـرآن بعناوينها الواضحة ويعرفون مقـدار صـلة القـرآن بحيـاتهم الواقعيـة: القـرآن وأصـول التشـريع، القرآن والعلم، القرآن والأسـرة، القـرآن وآداب الاجتمـاع، القـرآن والسـياحة، القـرآن والاقتصـاد، القــرآن والتضـحية، القـرآن والـبر، وهكـذا.. إلي آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن الـتي تعتـبر بحق عمـدا قوية في بنـاء الأمة ونهضـتها وبهـذا يطمئن النـاس بطريقة عملية واضـحة إلي أن القـرآن ليس بعيـدا عن حيـاتهم ولا عن نـواحي تفكـيرهم ولا عن مشـكلاتهم الـتي تعـرض لهم في كل حين يطمئنـون إلي أن القـرآن ليس كتابا روحيا فقط مهمته أن يشرح طرق القربى إلي الله من غير أن يعني بشـيء من وسائل الحياة[51].

ورأينا الخاص أن التفاسير التقليدية ليست ضرورية، بل إنها تسئ أكـثر مما تفيد إن القرآن آية فى النسق والصياغة والمضـمون إنه «سـكر معقـود» وسـبيكة محكمة لا شائبة فيها وإعجاز فـنى وأدبى. والإنسـان لا يلتمس للإعجـاز تفسـيراً. إذ لو حـدث لما كان إعجازاً. وشأن القرآن فى هذا هو الشأن فى الجمـال يفتن به الإنسـان بمجـرد أن يراه، ولا يحتاج إلى تفسيرات، لأنه يؤخذ به ويخشع له ويستزيد منه.. وبقـدر ما يحـدث هـذا، بقـدر ما يتحقق الأثر المطلـوب. فـإذا ما يـدخل بين القـارئ وهـذه العاطفة فإنه يفســده لأنه يميعه ويـــذهب بترابطه وإحكامه ويفـــرض عليه فهم أصـــحابه وهو دون مسـتوى القــرآن ويسـتدل عليه بشـعر زيد أو عمـرو. وربما مجاهيل من الأعـراب أو أحاديث مرسلة أو منكرة فضلاً عن أن الفهم والمناخ والعصر الذى وضـعت فيه معظم هذه التفاسير كـان فهمـاً سـقيماً ومناخـاً وبيلاً أثَّر على "نفسـية" وذهنية أعظم الأئمة الذين عاشوا فيه كالغزالى والطبرى وابن تيمية فهؤلاء الأئمة الذين لا يشك فى ذكائهم وفهمهم وإخلاصهم ومعرفتهم الموسـوعية لم يسـتطيعوا أبـداً التخلص من روح العصر وأملى عليهم أحكامـاً لا يمكن تبريرها أو الاعتـذار عنها إلا بأنه كـان من العسـير إن لم يكن من المستحيل أن يتخلص الإنسان من محوطاته ومن المناخ الذى يعيش فيه .

ومطالعة الأجيال المعاصرة لهذه التفاسـير يسئ إسـاءة مضـاعفة إسـاءة تتعلق بفهم القرآن، وإساءة تتعلق بإبعاد الجيل عن عالمه وعصره الذي يعيش فيه. والـذي لا يمكنه تجاهله أو الفرار منه. وسـتكون نتيجة مثل هـذه المطالعة والتعقيد أو الانحـراف أو النكوص ..

---

51 **(51) كتاب قصة التفسير للشيخ أحمد الشرباصى من ص 159 إلى ص 164.**

وإذا كان لابد من تفسير فلا يمكن أن يتصدى لتفسير القرآن إلا القرآن نفسه فالتلاوة المتكررة للقرآن والتفكير فيه يفتح آفاقه ويجلي معانيه ويستكمل بعضه بعضا مع ملاحظة فهم الآيات في السياق أي ملاحظة ما قبلها وما بعدها وعدم بترها بحيث يتغير معناها ويصبح "ويل للمصلين" أو الاستشهاد بها في غير موضعها كما يحدث بالنسبة لآيات عديدة تصف مشاهد من يوم القيامة وأن يربط ما بين الجملة، ومن قالها فالتوجيه الإلهي شئ وما يورده القرآن علي لسان بعض الشخصيات التي تحدث عنها شئ آخر، فجملة "إن كيدهن عظيم" التى يستشهد بها البعض بصدد كيد النساء جاءت فى القرآن على لسان شخصية فرعونية وليست على لسان نبى كريم.. أو حكم يصدره القرآن نفسه. وكذلك قول أم مريم "وليس الذكر كالأنثى" فلا يمكن الاحتجاج بها على أفضلية الذكر كحكم قرآنى لأنه ليس إلا قول سيدة يهودية وكان اليهود يفضلون الذكر على الأنثى بصورة كبيرة. وكذلك لا يجوز الاستشهاد بالآية ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾. {21 الكهف}.. فى جواز بناء القبور واتخاذها مساجد، لأن هذا الرأى إنما أورده القرآن على لسان فريق من الناس دون أن يقرن ذلك بإقرار أو موافقة، **أى أن على الذى يريد تفسيراً للقرآن أن يخوض معركته بين دفتى المصحف نفسه وبين سطوره وآياته دون أن يخرج عنها أو يستعين بغيرها** اللهم إلا إذا كان من نوع "المعجم المفهرس" لألفاظ القرآن الكريم الذى وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، فخدم القرآن خدمة المسلم الغيور، ومكن من الإفادة منه أضعاف ما يمكن أن يفيده أى تفسير آخر. رحمه الله رحمة واسعة.

والحق أن أى تخصيص للقرآن – سواء كان بطريق أسباب النزول أو لتعريف ما أبهمه القرآن ولم يحدده – بأخبار آحاد (كما هو الحال بالفعل) غير جائز، كما ذهب إلى ذلك داود الظاهرى والخوارج لما ذكروه من أسباب منها :

1. أن خبر الواحد ظنى الدلالة. والقرآن قطعى الدلالة ولا يجوز ترجيح الظنى على القطعى واتباع الظن مذموم فى القرآن .

2. لو كان القرآن يحتاج لخبر من أخبار الآحاد لتخصيص عمومه لوجب أن يتواتر ذلك الخبر حتى لا يفوت أحداً من المسلمين العمل به، ولا يكون العامل به عاملاً بالظن. وهو الأمر المذموم فى القرآن الكريم كما تقدم، وحيث أنه لم يتواتر دل ذلك على أن الله لا يريد اتباعه ولا يوجب العمل بمقتضاه على المسلمين .

3. تحريم ما دل القرآن على حِلّه مخالفه للقرآن الشريف. فيجب رد الحديث، كما يشهد به كل ذى عقل صحيح .

نقول إن هذا هو أقوى ما ينسف تفسير المفسرين القدامى وما أبدعوه من فنون افتاتوا بها على القرآن ومن أبرزها تخصيص العموم والنسخ أو أسباب النزول وهى تكاد أن تكون لحمة التفسير وسداه ...

* * *

على أن هـــذا ليس معنـــاه أن تُمتنع الكتابة عن القـــرآن. فهيهات. فالقرآن هو البحر الذى يحوى أسـرار الإسـلام وشـريعته، ولالئيها الثمينـــة. ولكن أن تكـــون الكتابة إلهامـــاً منه وتـــأثراً به فالكـاتب هنا يكتب عما فهمه وتـأثر به ولكنه لا يقـول هـذا تفسـير القـرآن كأنه صـاحبه، والله تعـالى هو صـاحب القـرآن. فمن هـذا الناحية فـإن البحر لا يـرفض صـيد صـائد، ولا يضن على أحـد.. ولا يحـــول دون النظر إليه والتأمل فيه وملاحظة رياحـــه، وأمواجـــه، وامتداده الجميل الرهيب ...

الباب الثانى
تفسير القرآن لدى المحدثين

الفصل الثالث
بعض المفسرين المحدثين

اتسع الوقت طوال الألف سنة التى أعقبت الهجرة وشاهدت ازدهار وتدهور الفكر الإسلامى أمام أئمة التفسير ليؤلفوا مجلداتهم الضخمة. ورغم ضآلة المادة وصعوبة العدة، فقد وجدوا فى الإسرائيليات وفى الأحاديث المنحولة وفى الشعر العربى ما مكنهم من تسويد عشرات الألوف من الصفحات. كما يجب أن نعلم أن المكتبة الإسلامية كانت زاخرة بآلاف الكتب والمراجع عند تدمير بغداد على يد التتار وعند سيطرة الأسبان على الأندلس. ولعلهم استفادوا منها قبل أن تغرق فى نهر دجلة أو تحرق فى أسواق الأندلس. وكان هؤلاء الأئمة رغم كل الصعوبات التى جابهوها ورغم أن عصرهم كان عصراً مغلقاً، يندفعون بقوة الإبداع والإنشاء ونشوة المعرفة والإيمان وأنهم يضعون فنوناً جديدة أمام الناس ويتقربون بها إلى الله. لهذا استطاعوا أن ينجزوا أعمالهم التى مهما كانت تحفظاتنا عليها فلا ينفى هذا أنها تمثل جهداً نبيلاً متصلاً ..

اختلف الأمر بالنسبة للمفسرين المحدثين ففترة الحداثة، إذا اعتبرنا أن بدايتها كانت دخول نابليون القاهرة فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، لم تتسع إلا لقرابة قرنين، ومع أن ظهور المطبعة يسر التأليف إلا أن كلال الهمم وتخاذل العزائم وهيمنة العقلية النقلية والقداسة التى اكتسبتها التفاسير القديمة والفكرة عن أنها مما لا تكاد تدرك فضلاً عن عدد آخر من العوامل قد لا يتسع المجال لشرحها. المهم أنهم لم يحققوا مثل الإنجازات القديمة .

ولكن لما كان تفسير القرآن هو أعظم ما يطمح إليه كاتب إسلامى لأنه يضمن لأسمه الخلود الذى يقترن بالقرآن. فقد ظهر عدد من التفاسير الكاملة أشرنا إلى إحداها وهو روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع والمثانى عند حديثنا عن المذهبيين من المفسرين – ومنهم الصوفية .

وسنشير الآن إلى أبرز التفاسير الأخرى فى نبذه قد تطول أو تقصر بقدر ما رأينا أن المجال يسمح به، بينما ستخصص فقرات كل واحدة فى بضع صفحات لثلاث من التفسيرات رأينا أنها تستحق أهمية خاصة ..

فمن التفاسير التى رزقت شهرة خاصة "فى ظلال القرآن" للكاتب الشهيد سيد قطب وقد بدأه فى الخمسينات من القرن العشرين ونشر بعضه فى مجلة "المسلمون" التى كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان من القاهرة ثم دمشق، وأخيراً

جنيف ولعل أولى طبعاته هى التى طبعتها مطبعة الباب الحلبى فى ثلاثين جزءً صـغيراً حسب أجزاء القرآن الكريم ثم تتابعت طبعاته لما أحاط بقضية الشهيد سيد قطب من شهرة كللت بتاج الشهادة .

ويغلب الأسـلوب الأدبى الممـيز للشـهيد سـيد قطب، وهو بـالطبع بعيد عن الإسـرائيليات والمؤتفكـات ولكن يسـرى فيه من أوله إلى آخـره "عِـرق" مـذهبى هو "الحاكمية الإلهية" الـتى آمن بها ودافع عنها وضـحى بحياته فى سـبيلها. ومن المؤسف أن صيحة الحاكمية الإلهية كانت شئوما عنـدما ارتفعت على أفـواه الخـوارج أول مـرة فى عهد الإمـام على بن أبى طـالب. وكـانت شـؤما عنـدما بعثها قلم سـيد قطب فى العصر الحديث وإيذانا بتحول سيئ فى الدعوة الإسلامية .

تفسـير الشـيخ عبد الحميد بن بـاديس الـذى حفظ للجزائر عروبتها وإسـلامها بفضل القرآن الذى عكف على تفسيره قرابة 25 عاماً. وتفسـير الشـيخ محمد حسـين فضل الله الزعيم الشيعى اللبنانى الذى عرف بدرجة كبيرة من الاستقلالية والإبداع .

ومن المؤسف أن السياسة التى وضـعها الاسـتعمار فى عـزل البلاد الإسـلاميين بعضها والحيلولة دون تواصلها وبوجه خاص فى المجـال الثقـافى لا تـزال متبعة بعد أن رحل المستعمر وترك لنا عصاته المسحورة التى تلمس أثرها فى كل مجـال. فلم تقم النظم التى ادعت الاستقلال بدعم الأواصر مع بعضها بعضا. ونتيجة لعدم التواصل فـإن هذه الكتب القيمة لم تعرف بشكل واسع فى مصر. ولا يتيسر الحصول عليها بسـهولة .

ووضع العلماء المصريون عديداً من التفاسير من أبرزهم الشيخ محمود شـلتوت والشـيخ مصـطفى المـراغى والشـيخ محمد أبو زهـرة والأسـتاذ عبد الكـريم الخطيب "تفسير القرآن بالقرآن" كما أن الكاتب الموسوعى القديم الأستاذ محمد فريد وجـدى وضع تعليقات موجزه على كل سورة من سور القرآن .

وعنى الشيخ محمد الغزالى السـقا، وهو من الكتـاب الأزهـريين النـابغين الـذين التحقوا بدعوة الإخوان المسلمين من سنواتها الأولى فاستفاد منها وكتب فى صـفحتها الأولى ثم أفادها بعد ذلك .

وعنى الشيخ محمد الغـزالى بـالقرآن الكـريم وأصـدر فى ذلك عـدداً من الكتب منهـا: "نظـرات فى القـرآن" (1961) فى 80 صـفحة من القطع الكبـير. و"المحـاور الخمسة" للقرآن الكريم فى 246 صفحة من القطع الكبـير وهو أشـبه شـىء بتفسـير موضـوعى لموضـوعات خمس ارتـأى أنها محـاور القـرآن: المحـور الأول الله تعـالى – المحور الثانى الكون الدال على خالقة المحور الثالث القصص القـرآنى المحـور الرابع البعث والجزاء المحور الخامس التربية والتشريع، وأخيراً أصدر "نحو تفسير موضوعى لسـور القـرآن الكـريم والموضـوعية فيه ليست لموضـوعات القـرآن ولكن فى سـور القرآن سورة سورة .

ويمكن القول أنه ما من عالم إسـلامى نابه إلا وحـاول أن يصل أسـبابه بـالقرآن

الكريم ليحظى ببركته وينتابه حظ من شهرته.. وقد نشرنا فى موضوع سـابق من هـذا الكتاب بعض ما جاء فى كتاب "النبأ العظيم" للشيخ محمد عبد الله دراز تفسير سورة أو سور أو جزء أو أجزاء .

ويستحق التنوية بشكل خاص تفسير سورة الكهف فى ثلاث مقالات كتبها السيد أبو الحسن الندوى فى ثلاثة أعداد من مجلة "المسـلمون فى سـنتها السادسـة" وهـذه كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان من جنيف وأراد بها السير على غرار مجلة الشهاب التى أصدرها الإمام الشهيد حسن البنا وكان سعيد رمضان هو سكرتير تحريرها .

ونحن نعتـذر لأننا لا نسـتطيع أن نتقصى كل ما كتب عن القـرآن. فضـلاً عن أن هذا يضيق به المجال، ولكننا سنفصل القـول شـيئاً ما عن تفسـير الشـيخ محمد عبـده والسـيد رشـيد رضا (تفسـير المنـار) وتفسـير التحرير والتنـوير للعلامة تونسى الشـيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأخـيراً طريقة التفسـير الـتى انتهجها الشـيخ محمد متـولى الشعراوى فى العقود الأخيرة من القرن. واكتسبت شعبيه وشهرة مدوية ..

(1)

تفسير المنار
(الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا)

كان الشيخ محمد عبده هو رائد النهضة فى مجال الفكر الإسـلامى قـدر ما كـان الأفغانى هو الرائد فى مجال اليقظة السياسية .

وكـان من توفيق الله أن قيض للشـيخ محمد عبـده وهو فى قمة النضج مريـداً مخلصاً نابغاً هو السيد محمد رشيد رضا الذى هـاجر من لبنـان إلى القـاهرة وأملاً فى أن يصدر صحيفة إسلامية حرة "هى المنار" وقد تحقق هذا بفضل توجيه ودعم الشـيخ. ثم نشأت فى ذهن السيد رشيد رضا فكرة كتابة تفسير الشيخ الذى كان يلقيه ونشـره فى المنـار، وكـان الشـيخ محمد عبـده زاهـداً أول الأمر فى ذلك ولكنه رضخ لإلحـاح مريده الأثير. وبدأ الشيخ رشيد رضا ينقل ما يقوله الشيخ إما بعبـارة الشـيخ نفسـه، أو بما يقرب منها من وضع السيد رشـيد رضـا، وكـان يطلعه أولاً بـأول، وكـان يتقبله ولم يغير إلا كلمات معدودة.. وظل الشيخ يفسر والسيد رشيد رضا ينقل وينشر حتى توفى الشيخ إلى رحمة الله عام 1905 .

وبـدء الشـيخ محمد عبـده تفسـيره فى غـرة المحـرم 1317 وانتهى منه فى منتصف المحرم سنة 1323 عند تفسير قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾. من الآية 126 من سورة النسـاء. أى زهـاء خمسة أجـزاء فى ست سـنين إذ تـوفى لثمـان خلون من جمادى الأولى منها (1323) .

وبدأ نشر التفسير فى المنار فى أول المحرم سنة 1318 من المجلد الثالث من المنار

بعد وفاة الشيخ محمد عبده استقل السيد رشيد رضا بالعمل واشترك مع الشيخ فى الابتعــاد عن الخرافــات والإســرائيليات، ولكنه لم يــذهب إلى المــدى العقلانى والتحررى للشيخ، وكان كلما يتعمق فى البحث ويعود إلى مراجعة كلما أوغل فى بحـار السلفية وأجوائها وأخذته إليها.. على أنه أبرز بجلاء عدداً من القضايا الهامة التى عُــنى بها القـرآن كيسر الإسـلام ومرونة أحكامه وتكيفه مع الأوضـاع والتطـورات، كما ابـرز الأصول الاجتماعية التى تحكم المجتمعات وعنى بوجه خاص بمقاومة الاستبداد وإبــراز الشورى ..

وعلى هــذا فــإن الحكم على تفســير المنــار يجب أن ينقسم إلى قسمين

الأول ما ينطبق على تفسير الشـيخ محمد عبـده، وتـتركز أهمية هـذا القسم فى أمور منها: أنه وإن سار على طريقة المفسـرين في تفسـيرهم القـرآن سـورة سـورة فـإن طريقة تفسـيره اختلفت اختلافـاً كبـيراً. فاسـتبعدت كل الإسـرائيليات ولم يعد التركيز علي "المأثور" "والمنقول" ولكن المعاني وما تدل عليه الكلمات والسـياق. مع الإفادة في ذلك بثقافة العصر الحديث الـتي ألم بها الشـيخ فتفسـير محمد عبـده كـان الخطوة الأولي علي طريق المحدثين وربما كانت أفضلها في تفسير القرآن .

ومنها أنه بحكم ثقافته وروح العصر رفض التســـليم بكثـــير من الثـــوابت فى التفسير كرفض المعجزة فى تصوير "الطير الأبابيل وحجارة من سجيل" مع أن هذا لم يكن لضـيره كمفكر عقلانى مسـلم لأن من المسـلم به أن وقــوع المعجــزات لا يخل بــالنواميس المقــررة، لأن المعجــزات ليست إلا اسـتثناء وكـان لابد منها فى ظروفها ووقوعها لا يخل بالأسس لأن الاســـتثناء لا حكم له ولا يخل بعقلانية مفكر مســـــلم التسليم بـالمعجزات كمعجـزات وطـوارئ، وقد يكـون هنـاك ما جعل الشـيخ يأخذ هـذا المسلك الذى انتقده طه حسين نفسه[52]. وقد انكر الشـيخ ما حفلت به التفاسـير عن سحر يهـودى للرسـول وقد كـان فى هـذا أدنى إلى الصـواب من معارضـيه (وقد كـان منهم الشيخ رشيد رضا نفسه) .

إن هذا الاتجاه الذى أقدم عليه الشيخ غير هياب ولا وجل هو ما يستحق التقــدير وبصــرف النظر عن مــدى الصــواب والخطأ فيــه، ولو فاته الصــواب فلن يخطئه أجر الاجتهـاد ويكفيه فخـراً أنه أزال تلك الأحجـار والعوائق الـتى كـانت تسد طريق الفكر الجديد .

وأخيراً فـإن أثر الشـيخ وتفسـيره عم العـالم الإسـلامي بفضل زياراته للشـمال الأفـريقي والـدول الأوربية فضلا عن مصر ولبنـان. وبفضل انتشـار المنـار فى العـالم الإسلامى وقد اعتبر كتاب "الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير" أن مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير ضمت الشـيخ عبد القـادر المغـربي والشـيخ محمد مصـطفي

[52] **(52) لعل هذا الانفعـال كـان رداً على تفسـير يقـول أن كل حجـارة من حجـارات السجيل كانت تحمل اسم من نقع عليه بالذات ونهلكه .**

المراغي والشيخ جمال الدين القاسمى (صاحب محاسن التأويـل) والشـيخ عبد الحميد بن باريس علامة الجزائر ومؤسس جمعية العلمـاء والـذي ظل 25 عامـاً يلقي دروسه عن التفسير والشيخ الطاهر بن عاشور علامة تونس وصـاحب (التحـوير والتنـوير) في 12 مجلد. والشيخ محمود شلتوت وبقية التـابعين كالشـيخ المـدني والشـيخ محمد عبد الله دراز وغيرهم[53]. ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء جيل، بل أجيال جاءت بعده .

أما القسم الثانى من التفسير وهو الذى تولاه السيد رشـيد رضا فقد أشـرنا إليه فى النبذة السابقة وقد انسأ الله تعالى له فى العمر حتى أمضى أكثر من ثلاثين عامـاً فى تفسيره .

وقد قلنا فى إحدى المناسبات أن تفسير المنار قـدم للإمـام الشـهيد حسن البنا قاعدة للفكر الإسلامى تبرأ من لوثات عصـور الانحلال ويمكن أن تكـون نقطة بداية له يستطيع أن يسير بها إلى ما يشـاء من التقـدم، ولـولا تفسـيره – وما قدمه المنـار من مراجع – لكان على الإمام الشهيد أن يقـوم بـذلك بنفسه وليضـحى بثلاثين عامـاً.. فى حين أن الله تعالى قدر له أن يستشهد فى أربعينـات العمـر، بعد أن شـيد هـذا الصـرح الممرد "الإخوان المسلمين" ونحن فى هذه الحالة نـرى مـيزة الـتراكم المعـرفى وأن يبدأ الخلف حيث انتهى السلف

من هنا لا يجوز لنا أن نبخس تفسير المنار حقه.. خاصة وانه لم يصدر ما يماثله، ومن حق الإمام محمد عبده أن تقول إنه أكـبر أزهـرى عقلانى – ولم يبلغ عقلانيته أحد آخر لأنه أقامها وأصلها على أسس من القرآن ..

وعندما توفى السيد رشيد رضا وتوقف المنار – صـدوراً وتفسـيراً - أراد الإمـام الشهيد حسن البنا أن يصل ما انقطع فأصدر سـتة أو سـبعة أعـداد من المنـار. قبل أن تتنبه الجهات المختصة إلى عدم قانونية ذلك لأن امتياز المجلة هو باسم الشـيخ رشـيد رضا، فقد مات الشيخ ومات معه امتياز المنار .

وحاول الإمام الشهيد محاولة أخرى عنـدما اصـدر مجلة الشـهاب، متأسـياً باسم المجلة التى أصدرها ابن باديس فى الجزائر وكانت هى التى تشع العربية والإسلام فى ظلمات الاستعمار الفرنسى. وبدأ المجلة بتفسير القرآن. فكتب مقدمة ضـافية ثم بـدأ فى تفسير الفاتحة حتى أتمها، وأخذ فى تفسير آيـات من سـورة البقـرة عنـدما وافـاه المصير المحتوم. وقد قمنا بجمع هذا التفسير فى كتاب مستقل ..

وكان يمكن لهذا التفسير لو استمر أن يقدم إضافة ممـيزة فى هـذا المجـال لما عرف به الإمام الشهيد من ذكاءه ولماحية واستيعاب، وإطلاع مما كـان يجعل تفسـيره نسقاً وجده ..

---

[53] **(53) الأمام محمد عبده ومنهجه في التفسير للدكتور عبد الغفار عبد الـرحيم دار – القاهرة من ص 319-409 .**

(1)

تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور

يتميز هذا التفسير بمقدمات عشر قدم بها مؤلفة تفسيره حتى يكون لدى قارئه فكرة عامة عن أساسيات التفسير، وكيف يتعامل مع ألفاظه ومعانية وصباغته ونظمه. وقد كتب هذه المقدمات بلغة سهلة، سائغة، رغم أنه فى بعض الحالات يـؤثر أسـاليب البلاغة القديمـة، كما أنه سـلك منهجـاً وسـطا واعتقد أن هـذه المقـدمات هى خـير ما يقدم ليس بين يدَّى التفسير – بل بـديلاً عن التفسـير. وأنها فى التفسـير كمقدمة ابن خلدون فى التاريخ .

المقدمة الأولى عن "التفسير والتأويل وكون التفسير علماً" – مع بعض التسـامح – كما قال. وإنما عده المتقدمون علما لوجوه ستة أشـار إليها بما لا يتسع له المجـال، وأبرز أن التفسير هو أول العلـوم الإسـلامية، وتحـدث عن أول من صـنف فيه وهو عبد الملك بن جريج (ولد سنة 80 وتـوفى سـنة 149) وأشـار إلى أن أكـثر رواياته عن ابن عبـاس ولم يفته رغم توثيق بعضـها أن يقـول والحاصل أن الرواية عن ابن عبـاس قد اتخذها الوضاعون والمدلسون ملجأ لتصحيح ما يروونه كدأب الناس فى نسـبة كل أمر مجهـول من الأخبـار والنـوادر لأشـهر النـاس فى ذلك المقصد كما عـالج الفـرق بين التفسير والتأويل .

وتعنى المقدمة الثانية "باستمداد علم التفسير" وهو يعنى باستمداد العلم توقفه على معلومات سابق وجودها على ذلك العلم، فتكون عونا لهم على إتقان تـدوين ذلك العلم وسمى ذلك فى الاصطلاح بالاسـتمداد تشـبها بطلب المـدد. وأهم مـادة فى هـذا العربية متن اللغة والتصريف والنحو والمعانى والبديع الخ... وأبرز الدور الكبير للمجاز، ولكنه اتبع سنة المتقـدمين فى العـودة إلى أشـعار العـرب للتعـرف على بعض ألفـاظ القرآن وهو أمر يحتمل الجـدل، كما أنه أخذ بما ذهب إليه السـلف من اعتبـار "الآثـار" واستبعد أن يكون الفقه وأصوله مما يلزم للمفسـر، لأن علم الفقه فـرع من التفسـير ومتوقف عليه. واستمداد التفسير من هذه العلوم لا ينفى أنه رأس العلوم الإسلامية .

وعالجت المقدمة الثالثة صـحة التفسـير بغـير المـأثور ومعـنى التفسـير بـالرأى ونحـوه: فاسـتبعد من التفسـير بـالرأى الـذى نهى عنه الحـديث وتعـوذ منه أبو بكر استلهام المعـانى القرآنية – وأورد قـول الغـزالى والقرطـبى "لا يصح أن يكـون كل ما قاله الصـحابة فى التفسـير مسـموعاً من النـبى عليه الصـلاة والسـلام. وهو يقـول أن استنباط الأحكام الشرعية من القرآن خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام لم يكن إلا من قبيل التفسـير لآيـات القـرآن بما لم يسـبق تفسـيرها واستشـهد بما قاله شرف الدين الطيبى فى شرح الكشاف فى سورة الشعراء "شـرط التفسـير الصـحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال سـليما من التكلـف!! وما جـاء على خلاف ذلك فهو "بدع التفاسير"

وفى رأى الطيب بن عاشور أن الرأى المذموم هو أن يكـون مجـرد خـاطر دون استناد إلى أدلة العربية أو يكون ميلاً أو نزعة مذهبية .

وفى الوقت نفسه فإنه انتقد الذين يقولون إن تفسـير القـرآن يجب أن لا يعـدو ما هو مأثور فتساءل مأثور عن من إذا كان من الرسـول قـال ذلك سيضـيق من سـعة معانى القرآن وينابيعه وحتى لو كـان المـأثور عن الصـحابة فإنه لن يعـنى إلا قليلاً لأن أكثر الصحابة لا يؤثر عنهم فى التفسير إلا شىء قليل ..

وأشار إلى أن فريقاً من غلاة الشيعة من الإسماعيلية أولوا الآيات بما يخرج عن معناها كما انتقد ما يتكلم به أهل الإشارات الصوفية وقال أنهم لا يعنـون بـذلك تفسـير القرآن ولكنهم يستدلون بها فى الغرض المتكلم فيه .

والمقدمة الرابعة فيما يحق أن يكـــون غـــرض المفسر وهو يوضح فيه – بعد ما قال رأيه فى التفسير بالرأى والمـأثور الخ... فيما يحق للمفسر أن يتطـرق إليه فوضح أن الله أنزل القرآن لصلاح أمر الناس كافة، سواء فى ذلك الفـرد أو الجماعة ومن هنا فيجب على المفسر أن يلم بالعناصر المكونة لهذا الإصلاح وأولها إصلاح الاعتقاد وثانيها تهذيب الأخلاق وثالثها التشريع أى الأحكام والرابع سياسة الأمة الخ ...

وانتقل إلى وصف طـرق المفسـرين ما بين الاقتصـار على الظـاهر واسـتنباط معـان وراء الظـاهر وهى الطريقة الـتى مكنت الأوائل من تفصـيل الأحكـام، كما حـدد علاقة القرآن الكريم بالعلوم .

وخصص المصنف المقدمة الخامسة لأسباب النزول فانتقد ولع بعض المفسرين بأسـباب الـنزول وأوضح أن إرسـال حبله على غاربة خطر جسـيم وأورد خمسة وجـوه لأسباب النزول منها ما تثـيره الآية نفسـها مثل ﴿قَـدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجَادِلُـكَ فِي زَوْجِهَا. الخ...﴾.

والثـانى حـوادث نسـبت إليها تشـريعات، وكـذلك حـوادث تكـثر أمثالها تختص بشـخص منهم والرابع هو حـوادث حـدثت وفى القـرآن آيـات تناسب معانيها سـابقة أو لاحقة فيقع فى بعض عبـارات السـلف ما أن تلك الحـوادث هى المقصـودة والقسم الخـامس يـبين مجملات ويـدفع متشـابهات. وختم الفقـرة بـأن القـرآن كتـاب هدايـة، والهداية هى المطلب دون غيرها ..

وكـانت "القـراءات" هى موضـوع المقدمة السادسـة: وقد رأى أن للقـراءات حـالتين إحـداهما لا تتعلق بالتفسـير والثانية لها تعلق من جهـات فالحالة الأولى هى ما يتعلق باختلاف القراءات فى وجوه النطق بالحروف والحركـات كمقـادير المد والإمالة والتخفيف والجهر والهمس الخ... وهـذا لا يـؤثر على التفسـير لأنه لا يمس المعـانى، وهذا هو ما ذهب إليه الأوائل ومنهم أبو على الفارسى صاحب كتاب الحجة للقراءات .

وأما الحالة الثانية فهى اختلاف القـراءات فى حـروف الكلمـات مثل مالك يـوم الـدين. وملك يـوم الـدين. وننشـرها وننشـزها الخ... ولم ير المؤلف حلاً لما تثيره من

اختلاف فى المعانى إلا أراده الله تعالى تكثير هـذه المعـانى وهـذا نظـير التضـمين فى علم المعانى وهو من زيـادة ملاءمة بلاغة القـرآن. واستشـهد بالحـديث المعـروف عن عمر بن الخطاب الذى سمع هشام بن حكيم بن حـزام يقـرأ سـورة الفرقـان بحـروف غير التى كان يقرأ بها عمر بن الخطاب فأخذه بعد الصلاة إلى الرسول فقال الرسـول أقرأ يا هشام فقرأ كما قرأ أول مرة فقال الرسول كذلك أنـزلت ثم قـال لعمر أقـرأ يا عمر فقرأها فقال الرسول كذلك أنزلت ثم قـال أن هـذا القـرآن قد انـزل على سـبعة أحرف فأقرءوا ما تيسر منه. وقال أن فى الحديث أشكال يرجع إلى اعتبـارين أحـدهما باعتباره منسوخاً والآخر باعتباره محكماً. وبالاعتبار الأول مثل أن هذا كان رخصة أيــام الرسـول ثم نسخ بعد ذلك نحمل النـاس على لغة قـريش لأن بها نـزل القـرآن أما من ذهبوا إلى أن الحديث محكم فأفضل الأقوال أن المراد من الأحرف لهجات العـرب فى كيفيات النطق كالفتح والإطالة الخ... مع المحافظة على كلمات القرآن ..

وهذه المقدمة من أفضل المعالجات لموضـوع القـراءات ولكن لا يتسع المجـال للأسف لمزيد من التفصيل فيها .

وتحــدثت المقدمة الســابقة عن "قصص القــرآن" ورأت أن القــرآن لا يــذكر القصص لمعرفة المعلومة ولكنه يأخذ من كل قصة أشــرف مواضــيعها ويعــرض عما عداه لأن غرضه ليس التفكه لا المسـامرة، ولكن التعليم والهدايـة، ولهـذا ابتعـدت عن السرد والتفصيل وركزت على المغزى والدرس والعظة والاعتبار. ومن الواضح أن هذا عندما يساق فى مضمون قصصى يكون أكـثر تـأثيراً على أن المقدمة اسـتطردت إلى ما تتوصل إليه القصة من إفادة ومن أطـرف ما يسـوقه أن ذلك ينشئ فى المسـلمين همة السـعى إلى سـيادة العـالم وأن يكونـوا سـادته وهم فى خمـول وفرقـة، وكـذلك معرفة أن قوة الله فوق كل قوة الخ ...

والمقدمة الثامنة فى اسم القـرآن، وآياته وسـورة وترتيبها وأسـمائها، فتحـدثت عن "القـرآن" و"الفرقـان" و"الكتـاب" و"الـذكر" و"الـوحى". كما تحـدثت عن الآيـات والفواصل ما بينها الـتى تـؤذن كل فاصـلة بنهاية الآية وإن حـدث خلاف ذلك فى بعض الحالات .

وذهبت المقدمة إلى أن أطول الآيات قوله تعالى ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَـاءٌ مُؤْمِنَـاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِـهِ مَنْ يَشَـاءُ لَـوْ تَزَيَّلُـوا لَعَـذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْهُمْ عَـذَابًا أَلِيمًا﴾ {25 الفتح}.. وقوله ﴿وَاتَّبَعُـوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْـكِ سُـلَيْمَانَ. إلى قوله لو كـانوا يعلمـون.. {102 سـورة البقـرة}.. وهذا غريب لأن المعروف أن أطـول آية فى القـرآن هى آية الـدين فى سـورة البقـرة 281 أما مجموع آيات القرآن فقد قال أبو عمرو الدانى فى كتاب العدد أن عـدد آيـات القرآن يبلغ ستة آلاف آية واختلفـوا. فمنهم من لم يـزد ومنهم من قـال ومـائتين وأربع وقيل مائتين وأربع عشـرة وقيل تسع عشر وقيل خمسة وعشـرين وقيل سـتة وثلاثين

وقيل ستمائة وستة عشرة ويعـود جـزء من الخلاف إلى عـد، أو عـدم عد البسـملة آية فى السور .

ولعل أهم نقطة فى هذه المقدمة هى ترتيب الآيـات وقـال المؤلف إنها بتوقيف من الرسول حسب نزول الوحى ومن المعلوم أن القرآن نزل منجّما آيات وربما نزلت عدة آيـات متتابعة أو سـورة كاملـة، وذلك الـترتيب مما يـدخل فى وجـوه إعجـازه من بداعة أسـلوبه كما سـيأتى فى المقدمة العاشـرة، فلـذلك كـان تـرتيب آيـات السـورة الواحـــدة على ما بلغتْنا عليه متعينا بحيث لو غُيِّر عنه إلى تـــرتيب آخر لـــنزل على حد الإعجاز الذى امتاز به، فلم تختلف قـراءة الرسـول فى تـرتيب آى السـور على نحو ما هو فى المصحف الذى بأيـدى المسـلمين اليـوم، وهو ما اسـتقرت عليه رواية الحفـاظ من الصحابة عن العَرْضات الأخيرة التى كـان يقـرأ بها الرسـول فى أواخر سـنى حياته الشريفة، وحسبك أن زيد بن ثابت حين كتب المصحف لأبى بكر لم يُخالف فى تـــرتيب أى القرآن. وعلى ترتيب قراءة الرسـول فى الصـلوات الجهرية وفى عديد المناسـبات حفظ القــرآن كل من حفظه كلا أو بعضــا، وليس لهم معتمد فى ذلك إلا ما عرفــوا به من قوة الحوافظ، ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة، وإنما كان كتاب الوحى يكتبون ما أنزل من القـرآن بـأمر النـبى، وذلك بتـوقيت إلهى. ولعل حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عندما يحدث لهم شك أو نسيان ولكن ذلك لم يقع .

ولما جُمع القرآن فى عهد أبى بكر لم يـؤثر عنهم أنهم تـرددوا فى تـرتيب آيـات من إحدى السور ولا أثر عنهم إنكار أو اختلاف فيما جُمع من القـرآن فكـان موافقا لما حفظته حوافظهم، قال ابن وهب: سمعت مالكا يقـول إنما ألف القـرآن على ما كـانوا يسمعونه من رسول الله. وقـال ابن الأنبـارى كـانت الآية تـنزل جوابا لمسـتخبر يسـأل ويوقف جبريل رسول الله على موضوع الآية .

واتساقُ الحروف واتساقُ الآيات واتساقُ السور كله عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم .

وعـنيت المقدمة التاسـعة بالمعـانى الـتى تتحملها جمل القـرآن وتعتـبر مـرادة كبعض قضـــايا العلاقة ما بين الأســـلوب والمعـــنى وبعض القضـــايا اللغوية كســـريان "المشترك" الخ ...

وتختم المقـــدمات بالمقدمة العاشـــرة عن إعجـــاز القـــرآن وقد أراد أن يعطى القارئ إلمامه ليست كخطرة طيف ولا هى كإقامة منتجع حتى يظله الصـيف وإنما هى لمحة ترى فيها كيف كان القرآن معجزاً .

ومثل هذه اللمحة تقتضى فى تركيزها من العناء ما يهون أمامه الإسـهاب. وهـذا الإعجـــاز منبثق من أصل أعم هو أن القـــرآن هو معجـــزة الإســـلام الـــتى تحـــدى بها معارضيه، وهذه لمحة فاتت كثيراً من المفسرين الذين شـغلتهم تفاصـيل الإعجـاز عن أصله وجذره كما أنه أيضاً من أسباب اختلافاتهم العديدة فى وجوه الإعجاز وقد استدل – فيما استدل به – على بقاء الآيات الـتى قيل إن حكمها قد نسخ ولكنها ظلت بما فيها

من إعجاز فأرجعها إلى ثلاث جهـات الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصـوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ والجهة الثانية ما أبدعه القرآن من أفانين التصـرف فى نظم الكلام والجهة الثالثة ما أودع فيه من المعانى الحكمية والإشارات إلى الحقائق الفعلية مما لم تبلغه عقول البشر .

ومما أضافه إلى ما ذكره الذين كتبوا عن الإعجاز نبذة عن مبتكرات القرآن التى تميز بها نظمه ومنها أنه لم يلتزم أسلوباً واحداً واختلفت سورة حـتى يكـاد تكـون لكل سورة لهجة خاصة، فإن بعضها بنى على تواصل وبعضها ليس كذلك، وكذلك فواتحها ..

وتوقف عند الإيجاز، وهو غاية ما يتبـارى فيه الفصـحاء فجـاء القـرآن فيه بطـرق مبتكرة، وكذلك الأمر فى الحذف مما جعل صاحب الكشاف يقول "الحـذف والاختصـار هما نهج التنزيل" والحذف والإيجاز هى مما يؤكدان المعنى بالاستغناء عن كل فضــول. كما تكلم عن "عـادات القـرآن" مثل ثنائياته مثل الصـلاة والزكـاة والخشـوع والخـوف والرغبة والرهبة الخ... وأسلوب الحوار وتشبيهاته الرائعة كتشبيه العلم بالنور الخ...

مما لفت انتباهنا أنه لم يخصص إحـــدى مقدماته للنسخ أو حـــتى يتحـــدث عنه بالإطالة المعهودة المفسرين الذين كانوا يرمـون من يجهلـه. "هلكت وأهلكت" وأن لم يكن – فيما يبدو – ينكره تماماً .

وفى نظرنا أن هذه المقدمة للتعريف بالقرآن هى كمقدمة ابن خلـدون للتعريف بالتـاريخ. تكـاد تغنـى عنه وتقـدم الصـورة المنشـودة للـذين يريـدون جـوهر الموضـوع وكلياته وليس تفاصيله وتفريعاته .

(3)

تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى

ليس الشيخ الشـعراوى من فرسـان التـأليف والكتابة ولكنه من فرسـان الكلمة "والحكى"، ولم يعرف عنه تأليف وما فى أيدى الناس من ذلك سـواء كـان تفسـيراً أو فتاوى الخ... هو مما نقله أتباعه ومريدوه وما أكثرهم ..

بدأت شهرة الشيخ مع برنامج نـور على نـور وأحس مقدمه الأسـتاذ أحمد فـراج أنه وقع على نجم فأفسح له المجال.. وفهم الشيخ من جانبه أنه وقع على كـنز فاهتبل الفرصة وتـدفق "واختلب القـول إختلابا[54]" وزادت شـهرته شـيئاً فشـيئاً حـتى أصـبح "إمام الدعاة" وشيخ المفسرين وأصـبح معجبـوه بـالملايين لا فى مصر وحـدها بل فى كل الدول الإسلامية، وأصبحت اذاعاته فى رمضان قبيل الغـروب تنسى النـاس الجـوع والعطش.

---

[54] **(54) هـذا التعبـير من قصـيدة شـوقى إلى العمـال فى ثلاثينـات القـرن الماضى وجـاءت خلال تـوجيههم أن لا يخـدعوا عند اختيـار المرشـحين لمجلس النــواب بالخطباء فقال:**

ليس بالأمر جديراً كل من ألقى خطابـاً
أو رأى أميـــة فاختلب القول اختلابا

ولا جـدال أن هـذه الشـهرة لا يمكن أن تـأتى من فـراغ أو تقـوم على باطـل. فالشيخ لا ينقصه الـذكاء. وقد أونى معرفة دقيقة بنفسـية الجمـاهير وهو يقـدم دروسه القرآنية باللغة العامية رغم معرفته الدقيقة باللغة العربية وأسـرارها ولا يكتفى بالحـديث بل أن كل جسـمه يتحـدث مذراعه ورأسه وجسـمه يميل بحيث تسـهم هـذه الحركـات والسـكنات فى التـأثير على سـامعية، كما يـؤثر الممثل على متفرجيـه. وقد أصدر أحد من الشـانئين له كتيبـاً باسم "الشـيخ الشـعراوى وعدويـة" نسب فيه نجـاح مقولاته بنســبة 90% إلى التمثيل فى الشــرح والأداء، وأنه لو كف عن ذلك كما يفعل كل الوعاظ لما واظب أحد على سماعه وقد يكون فى هذا شـىء من التجـنى، كما قد يكون فيه الشىء الكثير من الحقيقة[55] .

إن إلقاء الشـيخ الشـعراوى أحاديثه باللهجة العالية أمر له دلالتـه. ذلك لأنه كـان ضـليعاً فى العربية بوجه خـاص. وقد تعـرف على الإمـام الشـهيد حسن البنا أول العهد بالإخوان عندما كـان البنا يعلم الشـباب كيف يرتجلـون الخطـاب دون على أو جعفر أو لحن أو قصور، وكان يمكن للشيخ الشعراوى لو بقى بالإخوان أن يصبح كالشـيخ محمد الغزالى أو الشيخ يوسف القرضاوى، وربما فاقهما. ولكنه انفصل عن الإخوان والوفـد. إذ كانت حاسته الوفدية أقوى من حاسته الإخوانية. وهذه أيضا لها دلالتها خاصة عنــدما تأتى من أزهرى، فيفضل الحزب العلمانى على الدعوة الإسلامية. وكـان لابد أن يسـير إلى قدوة وعندما أتيحت له الجماهير العريضة التى تمثل الشعب المصرى بما فيه من أميين وأنصاف متعلمين وغـيرهم. فإنه لجأ إلى العامية حـتى لا يكـون بينه وبينهم حائل "الفصحى" وليمكن أن "يختلب القول اختلاباً" ولإيجاد المشاركة الوجدانية بينه وبينهم، وبصفة عامة فإن هذا لا يعاب على المتحدث وأن كان ينم عن رغبة فى استكثار الاتباع واكتســاب إعجــابهم أو انبهــارهم بما يــروج من تعبــيرات دارجة على حســاب اللغة الفصيحة، وكذلك على حساب المستوى الفكرى الـذى تعجز العامية عن تصـويره فـإذا أضفنا إلى العامية الحركات والسكنات والإشـارات ودرجـات الصـوت، فإنها فى النهاية تثمر "الديماجوجية" أى كسب الجمـاهير العريضة بالـدق على الأوتـار الحساسة وليس بمخاطبة العقل أو هداية النفس .

وكان من المحتمل أن لا ننكر على الشيخ طريقته التى يكسب بها الجمهور لـولا أن الشيخ يأخذ مسـتمعيه إلى متاهـات من التخريجـات اللغوية لا تمثل فائـدة حـتى لو

---

[55] **(55) أظهرت البحوث والدراسات حـول تـأثير الكلمة المنطوقة أن قيمة الدلالة أو المعــنى، لا تمثل إلا 7% (فى بعض التقــديرات) وأن البقية العظمى من التــأثير تعود إلى الصـوت والحركـات والسـكنات. وأن من الممكن أن يتعـاظم الأثر نتيجة لارتفاع أثر أو الدعم بحركـات مؤيـدة. والعكس بـالعكس وقد لاحظنا أنفسـنا فى الستينات عندما كانوا يقـدمون إلينا كمحاضـرين "المعينـات السـمعية والبصـرية" والوسائل العديدة لها، أن نبرة الصدق فى صوت المحاضر هى أعظم ما يؤثر فى السامعين، إن الصوت يرتبط بالقلب كما يرتبط باللسان. وعندما يصدر من القلب فإنه يصل للقلب وفى حالة الشيخ الشـعراوى فلا جـدال فى أنه يـؤمن بصـدق ما يقوله، وهذا هو سر قوته، بالإضافة إلى فطنته الفطرية "واندماجـه" وأنه يشـرك الجمهور معه لا على سبيل الامتحان، ولكن لاكتساب الاهتمام .**

صحت. وهناك طرائف ونوادر تستهوى الجماهير وهى تنـال إعجـابهم ولكنها تنتهى إلى نتائج تخالف فيما نرى روح الإسلام ويقدم توجيهـات لا تقـدم ولكنها تـؤخر منها مثلاً ما قاله إن على كل واحد ممن سـمع إقامة الصـلاة أن يـدع كل شـىء فى يـده ولو كـان طبيباً يجرى عملية جراحية، ويبادر فوراً إلى الصـلاة وأثـار هـذا القـول أحد الأطبـاء هو الـدكتور محمد فيـاض فكتب تعليقـاً فى بريد الأهـرام يـوم 28/4/94 – 18 رمضـان 1414 ص9 تحت عنوان "استفت قلبك" وفى كتابنا "نحو فقه جديد" (الجزء الأول ص 67) رأينا فى هذا دعوة إلى "توثين الصلاة" ومن الفتاوى التى خـالف فيها الشـيخ روح الإسلام ومقاصده فتواه بعدم إباحة التوصية بأعضاء من جسم الإنســان بعد وفاته – أو خلال حياته – ليفيد بها آخـرين كنقل كلية إلى مـريض مصـاب بفشل كلـوى أو بـالتبرع بالعينين بعد الموت الخ... وبنى الشيخ فتواه تلك على أسـاس أن جسم الإنسـان ليس ملكـه، وبالتـالى ليس من حقه التصـرف فيـه.. فهل فاته أن الله تعـالى هو خـالق كل شىء ومالك كل شىء، ولكن هذا لا يعـنى عـدم التصـرف فيما خلق الله لأنه من خلق الله. وأين هذا من أبى بكر الذى أوصى بأن يكفن فى البالى من الثوب لأن الحى أحق بالجديـد.. وللشـيخ كـذلك فتـاوى مذهلة كـأن الأرض لا تـدور على "عهـده" ما نشـرته الأخبار يوم 14/3/1997 وهذا قول يماثل قوله إنه لم يقرأ كتاباً طوال أربعين عاماً إلا القرآن[56] .

وجاء فى كلام للشيخ عن أن حــواء خلقت من أب فقط دون أم، خلقت من أحد أضلاع آدم، وهى قصة توارتية ودست فى الأحاديث والمرويات .

ووقف الشـيخ فى قضـية "تعليل الأحكـام" موقفا سـلفيا متشـدداً فهو يقــول "الحكمة فى كل أمر تكليفى لمن آمن به علته الأمر فالمسلم يفعل كذا لأن الله تعالى قال له "أفعل كذا، ولا يفعل كذا لأن الله قال "لا تفعل" وهل حكمة الأمر عند المـأمور به أم عند الأمــر؟ هل يعلم الطفل الحكمة فى جرعة الــدواء المــرة حين تشــفيه من مرضه. إنما الطبيب الذى وصفها له هو الذى يعلم الحكمة فيها ومنها .

والمسلم يصوم لأن الله تعالى قال له "صم" وحذار من تعليق الحكم على علته والذى يصوم لأن صومه يشفيه من علته نقول له صومك ليس عباده، وليس ناشئا عن إيمـان إنما ذلك صـوم بعلة الصـوم وليس بالصـوم نفسه أذن فالأصل فى المـؤمن أن يقبل الأمر من الله دون علة الأمر ولا يعلق عمله على هــذه العلة حــتى تكــون عبادته خالصة وصومه خالصاً لوجه الله تعالى" .

وهناك فتوى للشيخ انتهى إلها بعد أن كد الذهن وقدح زناد الفكر هى أن أعمــال المسلمين ستعرض على الرسول ليشفع للمسلمين .

وجاء ذلك فى تفسيره الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُـولُ لَوَجَـدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. {64 النساء} ..

---

56 **(56) وأنظر أيضاً ما جاء فى هامش ص من هذا الكتاب.**

وإليك نص ما قاله الشيخ بلغته كما هى مسجلة.. [إذن وجدان الله توابا رحيما مشروط بكم حاجة؟ المسألة الأولنية أنتم أعرضتم عن الرسول تروحوا له... تستغفروا الله لأن ما أرسل الله رسولاً إلا ليطاع بإذن الله.. يبقى لما تقعد تختلف وياه متقلش إنى اختلفت مع الرسول... لا... أنت اختلفت مع الله، تقوم تستغفر مين؟.. الله.. لكنك لو استغفرت الله، ولم يقبل منك الرسول ذلك ولم يستغفر لك يبقى لا مجيئك ولا استغفارك لله نافع... مفيش حد أبدا حيصطلح على ربنا من ورا محمد عليه الصلاة والسلام.. أبدا... مش ممكن حد كده يعمل باب صلح كده ويروح يصطلح مع ربنا من ورا محمد.. يبقى ثلاث أشياء: وجدان الله توابا، ووجدان الله رحيما مشروط بثلاث حاجات: **1.** يجيئونك. **2.** يستغفرون الله. **3.** ويستغفر لهم الرسول حينئذ يجدون الله توابا رحيما" .

ثم قال فضيلته :

"لا أبالغ إذا قلت إنها، يقصد الآية المشار إليها سابقا، شغلتنى أكثر من عشر سنين نعم، هذه الوقفة حول قول الله: "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما". ذلك يا ربى تمحيص من عاصر رسولك فما بال الذين لم يعاصروه؟ أين الممحص الذى يقابل هذا لمن لم يعاصر حضرة النبى.. والرسول إنما جاء للناس جميعا يوجد ممحص لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من التمحيص؟ هذه مسألة ظلت فى ذهنى ولم أجد لها جوابا إلا أنى قلت: لقد ثبت عندى وعند بعض أهل العلم أن رسول الله قال: حياتى خير لكم ومماتى خير لكم.. شوف التطمين.. تعرض على أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله وإن رأيت غير ذلك عملت إيه؟ استغفرت لكم. آه كان حتة استغفار الرسول دى بيستغفرها، يبقى ما بقى منها إلا أن نستغفر الله... وما بقى منها إلا جاءوك... طيب يجيئون لسنتك يجيئون لما تركت... إذا كان هو قال: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، فكما أن الأحياء يجيئونه نحن نجئ إلى حكمه نجئ على سنته، نجئ إلى تشريعه... وهو يستغفر جاهز... بيستغفر لنا كلنا... يبقى دى حتة وانتهت، يبقى بقى نعمل إيه، نستغفر الله] انتهى[57] .

ولا جدال فى أن الشيخ قد شط بعيداً وخالف أصول الإسلام التى تجعل العمل هو مبرر الحساب والعقاب، والتى تجعل التوبة والحسنات تجُب الأثم والسيئات والتى لا تعلق ذلك فى العديد من الآيات على شفاعة الرسول

ولما كان للشيخ نفوذ على الجماهير (نسبه أحد الكتب إلى أن الأمية هى ما بين 60 و70 وأن المتعلمين أنفسهم ليس لديهم سوى ثقافة سطحية) فإن من شأن هذه الفتاوى أن تحول دون تقدم المجتمع، ودون استخدام العقول، فكأنه يوحى الناس السير عميانا، لأن العقل هو النور الذى يهدى السبيل .

وقد أدى نفـــوذه الشـــعبى بكوكبه من ألمع بطلات التمثيل والغنـــاء ومختلف الفنون، بأن يعتزلن وأن ينزوين فى بيوتهن أو يجتمعن للصلاة فى المساجد وإلقاء

[57] **(57) من كتاب "إشكاليات الخطاب الدينى – الأستاذ محمد السعيد ص109، 110 .**

الدروس أو الاستماع إليها. ولو رزق الشيخ سعة الأفق وصحة النظر لوجههم لخدمة المجتمع وللإفادة من حب الجمهور لهن وإعجابه بهم فى تقبل ما يقمن به من خدمة وإصلاح ولأصبحن خير سفيرات للإصلاح والخدمة الاجتماعية والتوعية والرعاية ..

وقد كان رأينا أن لكل واحد طريقته التى هو ميسر لها. ومن حقه أن يتبعها. وأن الجمهور لدينا كبير ولكل ساقطة لاقطة أو كما يقال "كل فوله ولها كيال" **وأن الحكم فى النهاية لا يعود إلى الشخص ولا إلى الطريقة، ولكن إلى المقولة التى ينطق بها** ويدعو إليها فإذا كانت سليمة فإنه يقدم إضافة والمجال يتسع لكل إضافة ويحتاج لكل إضافة، ولكن إذا كانت المقولة خاطئة، مضللة، فهنا يحق لنا أن ننقده على أساس موضوعى نزيه يعالج الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ..

(4)

تفاسير تطويع الآيات لتحقيق الغايات

لئن كان الشيخ شعراوى قد أوتى براعة كبرى فى تطويع الآيات لما ينتهى إليه اجتهاده للتقرب إلى الله.. فقد ظهر قبله، وبعده.. كتاب يفسرون القرآن تبعا لفكرة معينة سبقت إلى أذهانهم وسيطرت عليهم وجعلتهم يرون أن القضية الحقيقية هى تطويع الآيات بحيث تحقق لهم فكرتهم ...

وقد لا يعرف هذا الجيل أن أحد الشيوخ أصدر من ثلثى قرن تفسيرا يمكن أن يعد الأول والأخير من نوعه فى هذا العصر لأنه ذهب فيه إلى أبعد ما يتصور فى التأويل الذى يقسر أو يخالف ظاهر النص. الأمر الذى أثار ثائرة المجتمع ودفع السلطات لمصادرة الكتاب، كما رفعت دعوى على الرجل أمام إحدى المحاكم فحكمت ابتدائيا بكفره وارتداده، وإن تغير الحكم النهائى بعد ذلك عندما أعلن توبته وإنابته. ذلكم هو الشيخ محمد أبو زيد الذى التحق مدة بالأزهر، ومدة أخرى بدار الدعوة والإرشاد التى كان قد أسسها بالقاهرة الشيخ رشيد رضا وأصدر عددا من الأبحاث اتسمت بالجرأة سواء كانت هذه الجرأة طلبا للشهرة أو انعكاسا لفكره واجتهاده. فأصدر كتيبا باسم "الزواج المدنى" أنكر فيه التسرى وملك اليمين وأخيراً وفى الفترة ما بين 1347 و1349 (1930-1931) أصدر كتابه "الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن" والكتاب ليس لدينا لأنه صودر وأعدم فى حينه ولكن لدينا كتابا أصدرته جمعية حياة الإسلام بدمنهور فى شهر ذى الحجة سنة 1349 بعنوان "تنوير الأذهان وتبصرة أهل الإيمان فى الرد على كتاب أبى زيد المسمى الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن" ومن هذا الرد يمكن أخذ فكرة عن تأويلات الكاتب .

فهو يؤول قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾. بأنه "مثال من قوة حجته وظهور برهانه". وعن الآيات الخاصة بضرب البحر بعصاه يقول "أضرب بمعنى أطرق. والبحر الماء الكثير

فانفلق بيان لكون المياه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة والقصد أن الله هدى موسى إلى الطريق اليابس بين البحار" .

وقال فى قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْـدِ وَكَهْلاً﴾. أن المهد هو دور التمهيد للحياة، علامة على الجرأة وقوة الاستعداد اللازمين لشأن الرسالة ثم قال ويصح أن يكون المعنى يكلم الناس الصغير منهم الكبير علامة على تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه .

أما معجزات عيسى فقد فسر الآية ﴿أَنِّي أَخْلُـقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْـرِ فَـأَنفُخُ فِيـهِ فَيَكُـونُ طَيْـرًا بِـإِذْنِ اللَّهِ﴾. "يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره" وعن قوله تعالى ﴿وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأَبْـرَصَ﴾. الأكمه من ليس عنده بصر.. والأبرص المتلون بما يشوه الفطرة.. وعن "وأحيى الموتى" "معناه مشترك بين موتى الأجساد وموتى القلوب والنفوس وموتى الجهل والاستعباد وموتى الاتهام والحكم بالإعدام .

وهو ينكر معجزة الإسراء، ويرى أن المقصود بالآية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْـرَى بِعَبْـدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأقْصَى﴾. "أنه الهجرة من مكة إلى المدينة وأن المسجد الأقصى هو مسجد المدينة" ..

أما عن الملائكة فهم عنده "رسل النظام وعالم السنن" فإذا جوبه بالنص ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾. أو ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَـةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَـاعَ﴾. فإنه يقول عن الأولى "وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له" وعن الثانى "يمثل لك السرعة فى إجراء سننه فى الكون وتنفيذ أوامره فى العالم" .

وفى تفسير قوله تعالى ﴿فَسَـجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى﴾. إبليس اسم لكى مستكبر على الحق ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو النوع المستعصى على الإنسان تسخيره وفى تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ مِنْ صَلْصَـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْـنُونٍ. وَالْجَـانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. "الإنسان النوع الهادئ صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد. والجان النوع المتشرد صاحب الطبع النارى الذى إذا قاربته يؤذيك ويغويك ولا تستطيع أن تمسكه وتعدله والنوعان موجدان فى كل أمة" وقال فى تفسير قوله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَـرًا مِنْ الْجِنِّ﴾. يفهمك أن هؤلاء النفر من زعماء بنى إسرائيل. وعن تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. يحيل على كثير من سور القرآن ثم يقول: "من هذا نفهم أنه يطلق الجن والجنة على الزعماء والمتكبرين من السادة المتبوعين، ويعبر عن الإنس بسائر الناس المقلدين والتابعين المستضعفين" .

ولما كان الشيخ ينكر الرق، فقد أوَّل كل الآيات التى تضمنت إشارة إليه ففى تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَـاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ مِنْ فَتَيَـاتِكُمْ الْمُؤْمِنَـاتِ﴾. يقول: "فيه عناية بالخادمات وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات وفى هذه الآية رد على

الذين يتخذون ملك اليمين من الخادمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجـات بحجة أنهن مشتريات بالمال أو أسيرات بـالحرب، فليس فى الإسـلام عـرض امـرأة يسـتباح بغـير الزواج مملوكة كانت أو مالكـة" وفى قوله تعـالى ﴿وَأَنكِحُـوا الأَيَـامَى مِنْكُمْ وَالصَّـالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾. "خادميكم وخادماتكم" .

ويفسر الربا فى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَـأْكُلُوا الرِّبَا أَضْـعَافًا مُضَـاعَفَةً﴾ بأنه "الربا الفاحش وبمعنى آخر الربح الزائد على حده فى رأس المال وتقدره كل أمه بعرفها" .

وقد أول آيتى عقوبة السرقة والزنا تأويلاً خاصا فعن الآية ﴿وَالسَّـارِقُ وَالسَّـارِقَةُ فَـاقْطَعُوا أَيْـدِيَهُمَا جَـزَاءً بِمَا كَسَـبَا نَكَـالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾. "المتعـود أى أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنى أن من يسرق مرة أو مرتين ولا يستمر فى السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يــده، لأن قطعها فيه تعجـيز لـه، ولا يكـون ذلك إلا عند اليـأس من علاجـه" وعن الآية ﴿الزَّانِيَـةُ وَالـزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْـدَةٍ﴾. يقـول: "يطلق هـذا الوصف على المـرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنا، وكان من عادتهما وخلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد"[58] .

وأورد الشــيخ رأيه فى السُــنة فى مقدمه كتابه فتحت عنــوان "السُــنة" قــال: (والسُــنة هى الطريقة العملية فى تطـبيق الكتابـات، فوظيفة الرســول تبليغ الكتــاب وهداية الناس بالعمل به) .

* * *

وأســوأ مما ذهب إليه الشــيخ أبو زيـد، واكـثر إغراقا فى الانحــراف ما فسر به متنبئ السودان محمود محمد طه آيات القـرآن الكـريم فى تضـاعيف كتاباته مما قد لا يتسع له المجال، ولكن يكفى فحسب أن نورد هذا التفسير لسـورة الزيتـون، كما أثبته الدكتور المكاشفى فى كتابه عن ردة محمود محمد طه قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(1) وَطُورِ سِينِينَ(2) وَهَـذَا الْبَلَـدِ الأَمِينِ(3) لَقَـدْ خَلَقْنَا الإنسَـانَ فِي أَحْسَـنِ تَقْـوِيمٍ(4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. {5 التين} ..

الـــتين والزيتـــون والبلد الأمين يعـــنى العقل والجسد والقلب أى توحيد العقل والجسد والقلب يكون الإنسان فى أحسن تقويم (وهى مرتبة الذات الإلهية) أما أسفل سافلين فهى ذرة غاز الأيدروجين، وهى بداية سلم الترقى يقول "وفى أسفل سـافلين كان آدم فى أدنى درجـات التجسـيد – ذرة غـاز الأيـدروجين ثم أنه اسـتأنف سـيره فى

---

[58] **(58) بالإضافة إلى ما ذكرناه من رجوعنا إلى كتاب "تنـوير الأذهـان وتبصـره أهل الإيمــان فى الــرد على كتــاب أبى زيد المســمى الهداية والفرقــان فى تفســير القــرآن بـالقرآن، والـذى أشـرنا إليه فى مسـتهل الفقـرة، فإننا عـدنا أيضـاً إلى تقرير اللجنة الأزهرية الـتى تكـونت للنظر فى هـذا الكتـاب وضـمت الشـيخ عبد الهـادى الفرغـانى والشـيخ محمد العنـانى، والشـيخ محمد عبد اللطيف السـبكى والشيخ محمد عبد السلام والشيخ محمد محيى الـدين. وقد رفعت اللجنة تقريرها إلى الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الأزهر ونشرت مجلة نور الإسـلام هـذا التقرير فى عددين من أعدادها أولهما الصـادر فى صـفر 1350 – 1931 من ص 162 إلى ص205 والثانى الصادر فى ربيع الثانى من ص249 إلى ص281 .**

طريق الـرجعى إلى موطنه القـديم أو المصب القـديم – الـذات الإلهية – وهى منزلة أحسن تقويم" .

"والمعـنى البعيد لهـذه الآيـة، وهو معـنى بعيد حقـاً – فكـان فى إحـدى كفـتى المـيزان "اللـه" الحقيقة وفى الأخـرى "الإلـه" وفكـرة الإله تبـدأ من الباطل وتـدخل مداخل الحـق. وإنما يطلب الحق الحقيقـة، يطلب الحق أن ينطبق على الحقيقة تمـام الانطباق، فالإله بمعنى آخر هو ما تصورنا "الله" وهو تصور مهما بلغ من الكمـال قاصر قصوراً مزريا، وبإيجاز من الناحية العلمية والتطبيقية، فإن إله كل إنسان نفسه"[(59)] .

وهناك اختلاف بين ما ذهب إليه الشـيخ محمد أبو زيـد، وما ذهب إليه المهنـدس محمود محمد طه. فالشيخ أبو زيد كان يجتهد دفاعاً عن الإسـلام. ومحاولة منه لإثبـات اتفاقه مع المبـــادئ والأصـــول الحديثة فى فـــترة انحســـار الفكر الإســـلامى ما بين العشرينات والأربعينات وهيمنة المد الاسـتعمارى والفكر الأوربى. وقد يشـفع لـه، على انحرافه حسن النية، أما محمود محمد طه فقد قام بدعوته بعد نهضة الفكر الإســلامى ليقـــدم رؤية للإســـلام من عندياته وقـــذف بنفسه فى اللجج والمتاهــات ما بين فرويد

---

59 **(59) كان الـدكتور المكاشـفى هو قاضى المحكمة الـتى حكمت بـردة محمـود طه وبإعدامه. وعندما ثارت ضجة بعد تجميد قـوانين الشـريعة – أصـدر كتابه هـذا عن المحاكمة وأثبتت بالـدليل القـاطع أنه مرتـد، كما عـرض – بإفاضة – وجهة النظر التقليدية التى يأخذ بها الجمهور عن الاسـتتابة فالقتـل. كما أورد فتـاوى هيئـات مصرية وسعودية بردته وقد لفتت دعوة محمـود محمد طه نظرنا عنـدما كنا نـزور الســودان فى الســبعينات، وحاصــرتنا مريداته من النســاء بالمطبوعــات الــتى ينشـرها، وكن يعرضـها للـبيع بكل حماسة وإلحـاح. وأشـرنا فى كتابنا "الـدعوات الإسلامية المعاصرة" الـذى صـدر سـنة 1978 إلى دعـوة "الإخـوان الجمهـوريين" وزعيمهم محمود محمد طه. وقلنا دعوه ما دام يقول "لا إله إلا الله محمد رسـول اللـه" وكنا نظن أنه مجتهد أخطـأه التوفيق ولكن قراءتنا لبقية كتبه لم تـدع شـكا فى أنه فرغ "لا إله إلا الله" من مضـمونها لأنه ذهب مـذهب الحلـول وصـرح أكـثر من مرة بالإنسان الإله، وأن لكل شـخص شـريعته الخاصة ويأخذ من الله مباشـرة أو "كفاحاً" على حد تعبير وأن مرحلة الإنسـان الكامل "تجعل هـذا الإنسـان" يحيا حياة الله عالماً علم الله مريداً إرادة الله قادراً قـدرة الله ويكـون اللـه".. كما أنه فرغ الشطر الثانى من الشهادة "محمد رسول الله" لادعائه أنه رسـول "الرسـالة الثانية" وهذه الأقوال وأمثالها تخالف العقيـدة وتنحـرف بهـا، على أننا لو فرضـنا أن هـذا التجـاوز وصل إلى حد الـردة فنحن لا نـرى قتل المرتـد، بعد اسـتتابته، فالأحكام التى توردها كتب الفقه تجافى الآيات العديدة فى القـرآن الكـريم عمن يرتد، وتناقض روح الإسلام وجوهره. والأحاديث الـتى يعتمـدون عليها لا تحقق ما يريدون، وقتال أبى بكر "للمرتدين" شىء آخر تماماً، فقد كان فيهم من يؤمنـــون بالإسلام، ويرددون الشـهادتين ويقيمـون الصـلاة – لكن دون الزكـاة أو الاعـتراف بالخلافة فهم فى حقيقة الحـــال خـــوارج، يتعين على الدولة قتـــالهم على هـــذا الأساس. وقد أصدرنا كتاباً خاصاً بوجهة نظرنا هو "حرية الاعتقـاد فى الإسـلام"، وهو. يقرر حرية الاعتقاد إيمانا وكفراً فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفــر. دون أى عقوبة أو ضغط ولكن الرد عليه الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .**

ودارون وماركس من ناحية، والحلوليين من المتصوفة والفلاسفة فضل، ودعا لنفســه. وقد أوتى لحنا وجدلاً وذكاءً، ولكنه أخلد إلى الأرض، وهو يظن أنه ارتفع إلى السماء .

الفصل الرابع
مجالات جديدة للتفسير

(1)
التفسير العصرى للقرآن

بقدر ما أدى انحسار الفكر الإسـلامى فى النصف الأول من القـرن التاسع عشر إلى محاولات التطويع التى أشـرنا إلى بعضـها، بقـدر ما ازدهر الفكر الإسـلامى بفضل نجاح الإخوان فى تقديم الإسلام كمنهج حياة. وما تلا ذلك من أحداث مثل حرب أكتوبر التى شنت تحت لـواء "الله أكـبر" ومثل المرحلة النفطية فى السـعودية ومثل الثـورة الإيرانية الإسلامية الخ...

ولا ريب أن هذا الاتجاه له حسناته ومأخذه، وهو بعد لا يعد بدعا لأن من الممكن أن يـدخل في أحد مـذهبى التفسـير القـديمين، مـذهب النقل ومـذهب الـرأي، ويمكن للضوابط القديمة أن تضبط هذا الاتجـاه الجديد حـتى وأن كـان يمثل نزعة جديـدة مما سمح بظهور مجالات جديدة للتفسير أبرزها التفسير العصرى للقرآن والإعجاز العلمى للقرآن .

وأبرز المعاصرين من دعاة التفسير العصرى هو الدكتور مصطفى محمود الــذى بـدأ حياته بالشك والإلحـاد وقطع مسـيرة طويلة حـتى بلغ شـاطئ الإسـلام والإيمـان، ومكنته ثقافته وصـلاته الوثيقة بالصـحافة ووسـائل الإعلام الأخـرى أن يكتسب شـهرة كبيرة، وأن يعرض أفكاره عن هـذا الموضـوع فى برنامجه التليفزيـونى العلم والإيمـان وأن يسجلها فى عدد من الكتب لاقت رواجاً كبيراً، فضـلاً عن كتاباته العديـدة وإذاعاته الكثيرة .

ولكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن أو "بنت الشاطئ" كما توقع كتاباتها كان لها رأى آخــر، وما أن شــرع الــدكتور مصــطفى محمــود فى نشر مقالاته عن التفســير العصرى حتى تصدت بسلسلة من المقالات وصـفته "بـالأفيون العصـرى" نشـرتها فى الأهرام جاء فيها :

"عبثــاً حــاول الغــزو الإلحــادى أن يفض المســلمين عن دينهم القيم بالمقولة الرائجة المشهورة: الدين أفيون الشعوب .

وأخشى ما أخشـاه هو أن الصـياغة المبتدعة لفهم القـرآن الكـريم وتأويله بغـير علم أن تئول بالجماهير، مع إدمان تعاطيها، إلى أن يكون الدين، في صياغته المحدثـة، هو الأفيون المخدر لوعيها، من حيث لا تدرى ..

لقد دخلت هــذه البضــاعة ســوق الكتــاب والكلمــة، بضـجيج إعلامي صــاخب، فزاحمت فيها مخدرات الجنس والجريمة، الـتي تعـزف عنها الجمـاهير المتدينة لظـاهر

جرأتها على الدين وخروجها على التقاليد والأعراف

لكن المتدينين لا يجدون أى حرج على الإطلاق من تعـاطي ما يقـدم إليهم باسم الدين والعلم، بتمويه خبيث ماكر، يفوت على غير الراسخين في العلم .

وما أيسر رواج هذا المخدر العصرى .

إن مورديه ليسوا كتجار الحشيش والأفيون، يطـاردهم رجـال المخـابرات بجهـاز مكافحة المخدرات، ويتعقبون حركاتهم وإشارتهم .

ثم إن المجتمع يغض عادة، ممن يـدمنون على تعـاطى الحشـيش والأفيـون، ولا يرى فيمن يتعاطى الأفيون العصرى، إلا سمات الصلاح والتقوى .

فباسم الـدين والعلم. راحت مخـدرات الصـياغة الجديـدة لفهم الإسـلام وتأويل كتابه، في السنوات التي أعقبت كارثة الساعات الخمس من شهر يونيو المشئوم سنة 1967 وتعاطاها المسـلمون- الشـباب منهم بخاصـة- فما زالت عليهم وهم في خشـية دوار الصدمة، بجاذبية الاستهواء وخلابة العرض ومكر الاستدراج، حتى أدمنوها .

وبلغت بهم فتنة الاستهواء، أن جـازت عليهم في غفلة من الـوعي دعـوى "أمـير الجماعة التي سترث الأرض ومن عليها" .

كما جـــازت عليهم، وعلي ملايين مثلهم، في غفلة من الــوعي، دعــوى كـــاتب صحافي، إن:

"جبريل يمكن أن يـنزل إلي الأرض في أية صـورة، ويحمل الـوحي إلي أي نـبي في أي عصر وبأي لغة" .

وألقي الناس سمعهم وهو يقول :

"إذا توكلنا علي الله فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ،فإننا أدركنا وحدة الفاعل، وإنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله.." .

أفق إلي نفسك فـأنت غـير موجـود، أنت ظل شـانك شـان الظل موجـود علي الأرض مادامت الشمس في كبد السماء، فإذا غربت لم يعد لك وجود" .

"في أية: "وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون" من القوانين الإلية التي نعرف الآن الكثـير منهـا: قـانون الضـغط الأزمـوزى، قـانون التـوتر السطحي، وتماسك العمود المائي،والتوازن الكهربـائي والأيـوني في المحاليل وقـانون التفاضل الكيميائي، وقانون رفض الفراغ، وقانون رد الفعل" .

وفي ثنايا هــذه الألفــاظ الرنانة الخلابــة، تعــاطي النــاس مخــدرات ســامة من مدسوس الإسرائيليات وبدع التأويل رجما بالغيب وزور الفتاوي :

"كان عقاب أدم علي خطيئته هو الطرد والإحباط من الجنة إلي الأرض والـنزول إلي أسفل سافلين وهي هاوية التيه المادي إلي طين المسـتنقعات إلي مجـرد جرثومة في طين الأرض: وكان علي آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في انبثاق متـدرج عـبر

خمسة آلاف مليون سـنة كما تقـول لنا علـوم البيولوجيـا، عـبر مراحل وأطـوار بـدأت: بالخلية الأولى والأميبيا، صعدا إلي: الأسفنج والرخويات والقشريات" .

"فرض الحجاب علي النساء. إرهاف لغريزة الرجل الجنسـية" كما تعلم الكـاتب من رحلته إلي قبائل العراة في أعماق أفريقية .

"لو أخذنا آية الأمر بغض البصر، بظاهر حروفها.. فسوف نجد إن الحياة الطبيعية في زماننا، زمن المينى جيب والديكولتيه والجابونيز والصدر العريـان والشـعر المرسل والباروكات الذهب، أمر صعب والسير في شارع عماد الدين أو فـؤاد أو سـليمان باشا "كذا" سيرا مطابقا لحروف الآية، هو الأمر العسير. ونحن قد نرى وجها فنهتف بـالقلب إعجابا: الله: ونقصد الخالق الذي صـور، وليس المخلـوق فلا تكـون هـذه النظـرة حلالا فقط وإنما تكتب لنا حسنة" .

مع قوله باحتمال أن تنتهي الحيـاة علي الأرض بحـرب ذرية من الصـين، فيكـون قيام الساعة بعد نحو ثلاثين سنة، كتأويل رؤيا يوحنا اللاهوتى

وتقريره إبطال الجزاء في الآخرة بنص قوله :

"إن كل ما جــاء عن الجنة والجحيم- في القــرآن- ما هو إلا ألــوان من ضــرب المثـال وألـوان من الرمز☺ والنـذير للضـالين بعـذاب جهنم "مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له: إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فان الفئران سوف تأكل أسنانك وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانك".

"حتى الحساب هنا، يبدو أنه حساب النفس للنفس، تعالي ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعـذب أمثالنـا: ولكن هـذه المعـاني تضـيع في النظـرة المتعجلة والقـراءة السطحية والوقوف عند الحروف وعند جلجلة الألفاظ: أكاد أجـزم بـأن ألفـاظ القـرآن بما فيها من جلجلة وصلصـلة حينما تصف الجحيم، إنما هي نـذير حقيقي لأنفسـنا عـدلا وصدقا.. وأكاد أضع يدي علي الحقيقة لا ريب فيها" .

وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . صدق الله العظيم[60]

وبعد ثلاث سـنوات تقريبا عــاودت الــدكتورة بنت الشــاطئ هجومها المعهــود. فنشرت في جريدة الأهرام كلمة تحت عنوان ذلك مبلغهم من العلم جاء فيها.[61] .

"لطف الله بأمتنـا، ما إن يهل الشـهر المعظم[62] حـتى تفـرز لنا أجهـزة الإذاعة والنشر صنفين من العلمانيين :

الصنف الأول: وحديث اليوم عنه، مذيعون وصـحفيون،يخوضـون فيما لا علم لهم به من القرآن الكريم والحـديث الشـريف وعلـوم العصر ومجهـول الغيب، في وجبـات يومية علي موائد الصـحف، ومسلسـلات رمضـانية مذاعة علي أوسع نطـاق، تلح علي

---

60 **(60) جريدة الأهرام 8/9/1977.**

61 **(61) الأهرام 8/9/1980 ص13.**

62 **(62) أي شهر رمضان.**

الناس بذرائع تشويه عقلي وديني فادح بما تبث فيهم من بدع تأويل للقرآن الكريم.

في مقال علماني مثلا، يلتقط أحـدهم حـديثا رواه الترمـذى كـذا في الحشـرات تسمعنا ولا نسمعها – وقد يكون الترمذى ضعف الحديث بعلة من علل الإسناد أو المتن ويهيم بنا المقــال العلمــاني في صــحراء كاليفورنيا ليفرجنا على صــندوق العجب من تجـارب مسـبيرو[63] ففي مسلسل "الإعجـاز العلمى للقـرآن الكـريم" تقـدم بـدع من التأويلات العلمانية، في كل حلقة ثلاث آيات، أو كلمات منها مبتـورة من سـياقها تـؤول بآخر ما وصل إليه العلم الحديث عند علماء مسـبيرو، منها مثلاً: تأويل قوله تعـالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾. {11 الصــافات}.. بما اكتشف العلم الحــديث من عناصر تكــوين التربة المماثلة تمامــاً لتكــوين الجسم البشــرى: النــتروجين والهيــدروجين والأكسجين والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والأزوت والحديد والهرمون والبروتين والسـيروتونين.. إلى نحو عشـرين عنصـراً رددتها الفرقة الإذاعية العلمانيـة، فى سـرد ابلـه، وقوله تعـالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيـدَ فِيـهِ بَـأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ﴾ {25 الحديد}.. إعجازه العلمى أن العلم الحديث اكتشف أن عناصر الحديد تنزل من السماء. بقــوانين الهيدروليكا والديناميكا "والبوليتيكا" وما لا أدري مما أخره "يكا".

ولقوله تعــالى: ﴿وَالسَّــمَاءِ ذَاتِ الرَّجْــعِ **(11)** وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّــدْعِ﴾. {12 الطارق} ..

بـترت الآيـات من سـياقهما مع الآيـات قبلهما وبعـدهما في رجع الإنسـان ليـوم البعث والحســـــــاب، لنســـــــمع من إعجازها العلمى ما تقوله الجيولوجيا والانثروبولوجيا (والمنولوجيــا) من إرجــاع الســماء ما تمتصه من بخــار ميــاه المحيطات والبحـار، ومقـداره كـذا من ألـوف الأطنـان في السـاعة إلى شـقوق الأرض بمقتضى قوانين البخر والتكثيف والامتصاص والجاذبية والرجع والصدع ..

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ {3 الانفطار}.. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ {6 التكوير}.. بـترت الآيتان من سياقهما فى أحداث يوم القيامة حيث تنقض السنن الكونية فتنتشر النجــوم وتبعثر، وترج الأرض وتزلزل وتـدك الجبـال وتنسف لنسـمع ما اكتشف العلمـانيون من إعجازها العلمى آخر ما وصل إليه العلم الحديث من تفجير الذرة فى البحار وما يحدث من عمليات كهربية ومفاعلات" انتهى .

* * *

ونعتقد أن من حق الكاتب الذى وجهت إليه الدكتورة بنت الشاطئ هـذا الهجـوم العـنيف أن يـدافع عن نفسه وأن يـدلى بوجهة نظـره وهـذا ما أتاحته له الهلال عنـدما أجرت له فى عددها الخاص عن القرآن الذى أصدرته فى ديسمبر 1970 لقـاء صـدرته بالكلمة الآتية :

كانت المحاولة الـتى قتم بها مصـطفى محمـود لتفسـير القـرآن من المحـاولات المتميزة فى التفكير الدينى الإسلامى المعاصر، وقد أحــدثت هـذه المحاولة ردود فعل

---

[63] **(63) تشير الكاتبة إلى التليفزيون المصري.**

واسعة فى أوساط رجال الـدين، فكـان هنـاك عـدد كبـير منهم يعـارض هـذه المحاولة ويرى أن مصطفى محمود ليس مـؤهلا لتقـديم تفسـير للقـرآن حيث أن هـذا التفسـير يحتاج إلى ثقافة دينية واسعة لم تتـوفر لمصـطفى محمـود، ووافق قليلـون من رجـال الدين على محاولة مصطفى محمود، وحجتهم فى ذلك أن بـاب الاجتهـاد مفتـوح أمـام كل المسلمين. ولكن المهم فى هـذه المحاولة أنها أخـرجت القضـايا الدينية من حـدود التخصص إلى ميــدان رحب من المناقشــات العامــة، فقد كــان قــراء الصــحف من المواطـنين العـاديين يقـرؤون ما يكتبه مصـطفى محمـود ويناقشـونه ويتفقـون معه أو يختلفـون.. وهـذا فى حد ذاته يعتـبر نتيجة طيبة بالنسـبة للقضـايا الدينية نفسـها فقد تحولت من خلال تفسير مصطفى محمود للقـرآن إلى قضـايا عصـرية يناقشـها النـاس ويتحدثون فيها وذلك ولا شك أفضل بالنسبة لهـذه القضـايا من أن تعيش محبوسة فى المتخصصـين من رجـال الـدين وحـدهم. وفي هـذا اللقـاء مع مصـطفى محمـود يجيب صـاحب "التفسـير العصـرى" على عـدد من الأسـئلة الـتى تحـدد موقفه وتوضح آراءه المختلفة :

فى هذا اللقاء أجـاب الـدكتور مصـطفى محمـود عن تفسـيره لما فى الجنة من أنهار من العسل واللبن ومختلف الطيبات بأنها مجرد رموز فقال :

- أنا لم أنكر اللذة الحسية فى الآخرة، وإنما قلت بأن هذه اللذة الحســية لا أحد يعرفها تفصيلا. فليس العسل المحكى عنه فى القـرآن هو العسل الـذى نعرفـه، ولا اللبن، ولا النساء هن النساء، وإنما هى درجات من اللذة هى بالنسبة إلينا غيب كـأن يقول فنان مثلا :

كانت امرأة جميلة كالضياء .

إن الفنان هنـا، يـورى حلمه ومثله الأعلى، وبالمثل يمكن أن تكـون الجنة ولـذتها هى من نوع هذه المراتب العليا الـتى لا نعـرف لها مـثيلا على الأرض. وأذكر أيضـاً أنى قلت إن نعيم الروح درجات يبدأ من المتع الحسية ويرتفع حتى يصل إلى مقام الأنبيــاء الذين ينعمون بالله ذاته وبجمال وجهه وبحضـرته الجلالية وفى ذلك يقـول القـرآن عن الرجل التقى إنه :

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ {القمر55} ..

فهنا نجد أن الجنة هي الجــوار المطلق للحضــرة الإلهية وهو أقصي ما يمكن أن يتصوره الإنسان من سعادة ولا يجب أن نفهم من القرآن أن آياته نـزلت لإشـباع أحلام الفقراء وإنما القرآن يقدم لنا منتهى العلم .

ومرة أخرى سأله المحرر .

- لقد أثرت قضية هامة هي قضية الدين والعلم. فهناك اتجـاه يحـاول باسـتمرار أن يربط بين أي كشف علمي جديد وبين نصــوص قرآنية مختلفــة، علي أســاس أن العلم لم يأت بجديد بـدليل وجـود إشـارات إلي العلـوم الحديثة في القـرآن، وأعتقد

أنك لجأت إلي ذلك.. فمثلا تـدلل علي كروية الأرض في القـرآن مستشـهدا بما جـاء في ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَـوِّرُ النَّهَـارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ {5 الزمر}.. وشـرحت ذلك بقولك "وهى آية لا يمكن تفسيرها إلا أن نتصور أن الأرض كروية" وتستشـهد بقـول الله تعـالى "ثم إن علينا بيانـه" وتقـول شـارحا "أي أنه سـوف يشـرحه ويبينه في مستقبل الأعصر".. وغير ذلك من الاستشهادت العلمية الكثـيرة وهـذا الكلام يطـرح عدة تساؤلات مثلا.. ألا يعنى ذلك أن الذين نزل عليهم القرآن وآمنـوا به منذ حـوالي 1400 عام مضت لم يفهموا عددا من آياته لأن الوسـائل العلمية لم تكن متاحة لهم مثلما هي متاحة لنا الآن؟ .

- ما الحكمة في أن ينزل الله آيـات علي قـوم لن يفهموها وإنما سـيفهمها من سيأتون يعد 1400 سنة؟ .

- هل علي العلماء أن يبدءوا بدراسة القرآن أولا قبل أن يدرسوا المؤلفـات العلمية وقبل أن يتوجهوا للمعامل مادام في القرآن كل شيء، عن العلم؟ .

- العلم له مجالـه. وأنا لم أقصد الحجر علي العلمـاء باسم القـرآن وإنما كل ما قصدته أنه لا يوجد تناقض بين القرآن وبين الحقائق العلمية الثابتة ولا يعـني هـذا أن نكف عن البحث العلمي لمجرد أننا نملك "القـرآن". هـذا فهم خـاطئ لكلامي.. وأنا أقول إن القرآن لم يفضي إلينا بكل أسراره إلي الآن .

وحكمة الله واضـحة في أنه لم يـنزل كتابه علي النـاس ليفهم كله وينتهي من أمره في أول جيل. وإنما أنزله للعالمين وليكون سرا يبسط سـلطانه علي كل الـدهور ويتحدى جميع العقول وبالنسبة للنقطة الثالثة. فأنا لم أقل هذا الكلام فـالعلم له مجاله والقرآن له مجاله.والعلم له أدواته والدين له وسائله. ولا يصادر أحـدهما علم الآخر ولا يحتكر أحدهما علم الآخر".[64]

* * *

والذي لا ريب فيه أن التعسف في تأويل القـرآن أو المضي به شـططا وتطويعه ليتفق مع مبدأ علمي ينم عن عدم فهم لجوهر القرآن ورسالته ويصـبح تهافتا لا يكسب القرآن شيئا، فالقرآن قد كـان، وسـيظل دائما أعظم وأبقى من كل هـذه المكتشـفات والمخترعات والنظريات ولن يكون إلا محاولة جديدة فاشـلة كمحـاولات عديـدة قديمة اعتبرت شاذة، ونبذت. وفى الوقت نفسه فإن تجاهل اتفـاق آيـات قرآنية بحكم صـريح ألفاظها مع النواميس الكونية يعد وصولا من النقيض إلى النقيض ومخالفة لنهج القرآن الذى جاء مصدقاً وشارحاً للسنن الإلهية فى الكون ومستدلاً بها على حكمة الله ..

وقد تجدر الإشـارة إلى أن بعض التـأويلات الـتى تضـمنتها التفسـيرات العصـرية ليست جديدة تماماً. وقد تحدث ابن تيمية فى رسالته "الإكليل فى المتشابه والتأويـل" عما فى الجنة من أنهـــار من لبن وخمر وهل هى حقيقة يجـــرى فيها لبن وخمر كما يعرفها الناس أو أنها رمـوز لتفهم "النعيم الروحـانى" ورأى أنها من المتشـابه، لأن الله

---

[64] **(64) مجلة الهلال عدد خاص عن القرآن ديسمبر 1970 الصفحات 152-157**

تعـالى يقـول ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ {17 السـجدة}.. ويقـول "أعددت لعبادى الصـالحين مـالا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشـر". وقد قال ابن عباس "ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء فإن الله قد أخـبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريـراً وذهبـاً وفضة وغـير ذلك ونحن نعلم قطعـاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينهما تبـاين عظيم مع التشابه كما فى قـوله ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ {25 البقرة}.. على أحد القولين أن يشبه ما في الدنيا وليس مثلـه، فأشـبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق من بعض الوجوه. فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسـماء من جهة القـدر المشـترك بينهمـا، ولكن لتلك الحقـائق خاصـية لا نـدركها فى الدنيا ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه. وتلك الحقائق على ما هى عليه تأويل ما أخبر الله به. وهـذا فيه رد على اليهـود والنصـارى الصـائبين من المتفلسفة وغيرهم فإنهم ينكرون أن يكـون فى الجنة أكل وشـرب ولبـاس ونكـاح ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن. ومن دخل فى الإسـلام ونـافق المؤمـنين تـأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحـانى إن كـان من المتفلسـفة الصـائبة المنكرة لحشر الأجساد وإن كان من منافقة الملتين المقرين بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهيم النعيم الذى فى الجنة من الروحانى والسـماع الطيب والـروائح المعطـرة. كل ضـال يحـرف الكلم عن موضـعه إلى ما اعتقد ثبوته ، وكـان فى هـذا أيضـاً متبعـاً للمتشابه إذ الأسماء تشبه الأسـماء والمسـميات تشـبه المسـميات ولكن تخالفها أكـثر مما تشابهها فهؤلاء يتبعون هـذا المتشـابه ابتغـاء الفتنة بما يوردونه من الشـبهات على امتنـاع أن يكـون فى الجنة هـذه الحقـائق وابتغـاء تأويله لـيردوه إلى المعهـود الـذى يعلمونه فى الدنيا قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ﴾ {7 آل عمران}.. فإن تلك الحقائق قال الله فيها ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. {17 السـجدة}.. لا ملك مقرب ولا نبى مرسل[65].

بل أن ما أورده الـدكتور مصـطفى محمـود عن الحسـنة الـتى تكتب لمن يـرى امرأة جميلة فيهتف "الله" باعتبار ذلك إعجاب بقدرة الله جاء بنصه تقريباً فى تفسـير سورة النـور لابن تيمية "وإذا قـال أحد أنا ما انظر إلى المليح الأمـرد لأجل شئ ولكن إذا رأيته قلت سبحان الله تبارك الله أحسن الخالقين"[66].

وبالنسبة لعلوم الفلك والطبيعة واسـتلهام تفسـيرها من القـرآن نجد هـذا النص "روى البيهقى أن بعض الفقهاء قال يوماً لأبى الحسن الأنبارى الحكيم المهندس الـذى كان يقرر كتاب المجسطى لعمر الخيام ما تدرس فقال أفسر آية من كتاب الله فقـال

65 **(65) الإكليل فى المتشـابه والتأويل تـأليف شـيخ الإسـلام ابن تيمية نشر مكتبة أنصار السنة المحمدية (1366-1947) ص 12-13.**

66 **(66) وقد رفض ابن تيمية هذه الـدعوى ورأى أن جعل هـذا النظر المحـرم عبـادة بمثابة جعل الفواحش عبادة وأن تخصيص عبادة التسبيح عند رؤية المرأة الجميلة إنما يعـود إلى أن الجمـال يغـير قلبه وعقله وقد يذهله لما حصل فى نفسه من الهوى.**

(تفسير سورة النور لابن تيمية مققه وشرح أحاديثه محمود إبراهيم زايد ودكتور عبد المعطى قلعجى – دار الوعى – حلب 1977 ص 138).

له الفقيه وما تلك الآية قال الأنبارى قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ {6 قّ}.. فأنا أفسر كيفية بنائها[67].

ولكن للقضية جانباً آخر لا يدور حول الموضوع ومدى صحة وسلامة المبدأ أو خطأ وصواب المنهج، أو توفيق هذا الكاتب أو عدم توفيقه، ولكنه يدور حول الذين يكون لهم الحق فى تفسير القرآن وأن هذا الحق يجب أن يقصر على المتخصصين وقد شرحت هذه الفكرة الدكتورة بنت الشاطئ أكثر من مرة كان آخرها كلمتها فى جريدة الأهرام تحت عنوان "هذا بلاغ للناس" جاء فيها :

"حديث اليوم عن صنف آخر من موردى بضاعة العلمانية، أطباء وزراعيون وعلماء فى القانون والفلك والطبيعيات يتصدون لتأويل القرآن بعلوم العصر وليسوا من أهل العلم بالقرآن ولا فكرة لديهم عن علومه التى جاوزت ثمانين علماً ..

البلاء بهم أفدح والفتنة بهم أشد .

العوام يتلقون بضاعتهم العلمانية مأخوذين بألقابهم العلمية ذات القيمة والاعتبار مبهورين بما يخرجون من جرابهم العلمانى من عجائب ما اكتشفوه فى القرآن الكريم من نظريات ومعادلات وقوانين علمية موضحة برسوم بيانية لمسار الأفلاك وطبقات الجو وجيولوجيا القمر وقوائم إحصائية لمقاييس الأبعاد وأوزان العناصر وذبذبات الأذن وطاقة تفجير الذرة وأعمار العصور الجيولوجية وحركة الأجرام السماوية .

والمتخصصون فى هذه العلوم يزدرون تزييف العلمانية العصرية لملصقات قرآنية على علوم الطبيعيات والرياضيات. مقابلة على ما يفنون أعمارهم فى دراسة قانون أو نظرية منها على علماء الاختصاص فيها، ويعجبون لمقتطفات من كلمات قرآنية مبتورة من سياقها تؤول بعلوم لم تقف عند المعروف منها اليوم، بل تظل أبدا تتلقى جديداً فيها من جهود الأجيال المتعاقبة من العلماء والمكتشفين .

مقال فى الجاذبية وقوانينها يلصق عليه بعض الآية :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. {2 الرعد} ..

وبحوث فى علم الأجنة منقولة من عشرات المراجع الأمريكية تقدم فى تفسير قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. {2 العلق}.. ومقال فى سفن الفضاء تلصق عليه آية مبتورة من سياقها فى الوعيد: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ **(16)** وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ **(17)** وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ **(18)** لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾. {19 الانشقاق} ..

ويقال: يجتهدون ولهم أجرٌ إذا أخطأوا وأجران إن أصابوا .

الاجتهاد مباح لأهله محظور على غيرهم. يجتهد الطبيب والمحامى ويخطئان فلا

---

67 **(67) تاريخ حكماء الإسلام – ظهير الدين البيهقى تحقيق الأستاذ كرد على ص 104 (استشهد بها فى بحث جهود العرب فى الفلك للأستاذ حسن ملا عثمان – حلب سوريا فى أبحاث المؤتمر العلمى العربى الأول الإسكندرية سبتمبر 1952 نشر الجامعة العربية ص 195.**

يحرمان الأجر ويضاعف الأجر إذا نجحت العملية أو كسبت القضية .

ويعـاقب من يمـارس الطب أو المحامـاة بغـير مؤهل وأن أصـابا فى اجتهادهما فنجحت العملية وكسبت القضية .

ولم نسمع بطبيب رمد يجتهد فى طب القلب أو المسـالك البولية فضـلاً عن أن يجتهد فى الطب البيطرى أو اللوغاريتمات. ولا عهد لنا بأستاذ فى القـانون الدسـتورى يحاضر فى القـانون الجنـائى فضـلاً عن أن يجتهد فى الـديناميكا أو الهيـدروليكا أو الاسـتاتيكا، ولا بعـالم نبـات يؤلف فى علم الحيـوان فضـلاً عن أن يجتهد فى الفلك والرياضيات ..

كتاب الإسـلام وحـده هو المسـتباح وكـأن ليس له علمـاء ذوو دراية واختصـاص. وفى الدولة مناصب كبرى لمشيخة الأزهر والفتوى والإقـراء. وأسـاتذة الاختصـاص من كليـات أصـول الـدين والشـريعة والحـديث واللغة العربيـة. لا يحاضر أسـتاذ التـاريخ الإسلامى فى الفقه والأحكام أو التفسير وعلوم القرآن أو الحديث وعلومه، فضـلاً عن أن يجتهد أحد هؤلاء، ولو كان شيخ الإسلام، فى الطب أو الصيدلة .

ويقال: هل يتجمد فهمنا للقرآن عند فهم النبى الأمى فى عصر بدائى لم يسـمح بالتكنولوجيا والديناميكا والانثروبولوجيا.. وبيئة يدوية تركب الناقة وتسـتقى من العيـون والآبار وتستضئ بالزيت والحطب ..

القرآن كتاب عقيدة وشريعة ومنهاج. أى تفسير له محكـوم بنصه الثـابت وبيـان مبلِّغه عليه الصـلاة والسـلام، فـأى إسـلام هـذا الـذى يـراد لأمة فيه أن تأخـذه من العلمانيين لا من علم نبى الإسلام؟ .

ليست علوم القرآن العقيدة والشريعة كسبية يستحدث فيها العصر جديداً ينسخ القرآن وعلم النبوة .

وكل علم كسبى يظل أبداً عرضه للإضافة والتغيير والتبديل والنسخ

وقد وضع القـرآن لأمته منهج كسب العلم والمبـادئ والغايـات ولم يقيـدها بحد تتجمد عنده بل ترك الطريق مفتوحاً لجديد العلم.

وقـال عليه الصـلاة والسـلام: "ما كـان من دنيـاكم فـإليكم، وما كـان من دينكم فإلى.." .

وردة عقلية ودينية أن يؤخذ أى علم من غـــير أهله وأن يرسخ العلمـــانيون فى أذهان الناس. أن لديهم من علم القرآن والدين ما لم يعلمه نبى الإسـلام عليه الصـلاة والسلام .

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. {28 فاطر}[68].

* * *

---

[68] **(68) جريدة الأهرام 10/8/1980.**

ونحن نؤمن إيماناً تامـاً أن هـذه النقلة من الموضـوع إلى الـذات، ومن المبـادئ إلى الأشـخاص نقلة خطـيرة وسـيئة، وأن القيـاس الـذى أوردته الـدكتورة – فى بلاغة يحسـدها عليها أبلغ المحـامين – قيـاس فاسد لا يسـتقيم، فضـلاً عن أنه هو نفسه لا يتمشى مع ما أرادته، وما قصدت إليه ..

فبادئ ذى بدء، ومن ناحية المبدأ نقول إن الـذى يهم دائمـاً هو الموضـوع ويجب أن نطلب الحكمة بصرف النظر عن المكان الذى توجد فيه، والشخص الـذى ينطق بها والشكل الذى تتلبس به ويجب أن نصدر أحكاماً عن هذا وحده ونعرف الرجـال بـالحق فإذا انعكست الآية فاشترطنا الشـروط فى المكـان الـذى تطلب منه الحكمة والأفـراد الـذين تتلبس بـه، فأننا نحجر على الحقيقة ونصـدر عن الهـوى ونشـرك بالحقيقة الموضوعية المجردة هوى النفوس.. وأغراض الأفراد والفئـات ونعـرف الحق بالرجـال ...

هـذا مبـدأ قـديم عرفه اليونـان عنـدما لم يسـمح فلاسـفتهم العظـام للعلاقـات الخاصة سـواء كـانت تلمـذة أو صـداقة بـأن تـؤثر على منـاهجهم وما تنتهى إليه هـذه المنـاهج.. وعرفه العـرب عنـدما ترجمـوا عن اليونـان فتخـيروا، ولم يمنعهم إعجـابهم بالمعلم الأول أن يختلفـوا معه أو ينتهـوا إلى غـير ما انتهى، وعرفها الإسـلام ودعا إليها أحر دعـــوة عنـــدما قـــرن ما بين الوثنية والأشـــخاص، وربط بين الديانة والحقيقة الموضوعية، وجعل من الأنبياء – وهم أعلى نماذج البشرية، نقلة للرسالة وحـذرهم من أن يحيـدوا قيد أنملة عما أوحى إليهم واسـتبعد منهم كل المعـانى الذاتية من نسب أو جاه أو ثروة وندد بمن شاء أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم .

وعرفته العصور الحديثة، وكـان فى أصل مبـدء عظيم أشـاعته أكـثر من غيرهـا، ويعد أكبر حسنات الحضارة الأوربية هو الحريـة، وبالـذات حرية الفكر وهى ما يتفق مع موضـوعية المعرفة ولأنها السـبيل إلى الحكمة المجـردة والمطلقة وإلى التحـرر من المصالح والأهواء وإرادات الأفراد والفئات والحكام والملاك وسـدنةٌ المعرفة وحجابهـا، سـواء كـانوا كهنة كنيسة أو أسـاتذة جامعـة، وما يتلبس بالمعرفة من مكاسب ومزايا يحرص عليها ويستأثر بها بعض الأفراد .

بل أكثر من هذا إن حرية البحث حنى عندما يسـتغلها مسـتغل أو يركبها انتهـازى أو يتعسفها متعسف بحيث تنتهى إلى أخطاء أو مغالطات فـإن الأمر لا يخلو من فائـدة لقضـية الحقيقـة، لأنه يـبين ركاكة الانحـراف وسـوء الاسـتغلال ومغبة التعسف ويعطى الفرصة لإظهـار الحقيقة وتفنيد الشـبهات الـتى قد تـراود النفـوس دون أن تظهر على السطوح..وكلام الدكتورة بنت الشاطئ عن الأشـخاص الـذين يحق لهم التفسـير حجر على الحرية، وسـبق إلى الحكم قبل تـبين الوقـائع وهو مرفـوض من ناحية المبـدأ لأن المفروض أن نركز أحكامنا على ما يقال، وليس على من يقول، فنحن لسنا من رجـال تحقيق الشخصية أو الضبطية. ونحن نفتح باب النقد والمحاورة على مصراعيه للقضـايا التى تثار.. دون الأشخاص لأنهم هم خارج موضوع القضية صدد البحث.

وقد توضع تلك الدعوى فى قالب موضوعى يبدو بريئاً ومنطقياً ولكنه ينتهى إلى العـواقب الخطـيرة نفسـها فالأسـتاذ الشـيخ محمد الغـزالى يقـول ((لم يـزعم أحد أن تفسـير القـرآن الكـريم حكر على عصر من العصـور ولا وقف على طائفة من النـاس ولكن الذى قيل إن الإحصائيين فى شأن ما هم الذين يسألون عنه ويتحدثون فيه .

والأمر هنا لا يتطلب أكثر من الأهلية العلمية والإحاطة الواعية .

ولما كان القرآن الكريم كتاباً عربياً على درجة مرموقة من البلاغة فـإن العـوام لا يسوغ أن يتعرضوا لشرحه .

ولما كان قد استغرق فى تكامله بضعا وعشرين سنة فـإن تكـوين حكم منه فى إحدى القضايا المهمة لا يجوز لمن يجهل تواريخ نزول الآيات والسور .

ولما كان صاحب الرسالة وعليه نـزل القـرآن قد بين الغـوامض وفصل المجمل وهو أحق الناس بتفسير ما نزِّل عليه فإنه لا يليق بمن يجهل حديث الرسول أن يتصدر لتفسير كتابه .

وعند تمام المسـوغات العلمية للتفسـير يبقى أمر آخر نـذكره دون غضاضة وهو أن الذكاء النظرى المجرد لا يرفع صاحبه إلى مسـتوى التفسـير فقد يكـون المـرء من الناحية العلمية متفوقـــاً ولكنه من الناحية الخلقية مـــريب تســـتولى على ضـــميره الشهوات ويصرفه عن تقدير الحق هوى عاجل فكيف يؤتمن على كتاب الله .

فإذا احتـاط العلمـاء لمكانة الـوحى وجلال القـرآن ورأوا ألا يتعـرض للتفسـير إلا رجل يجمع إلى الفقه العالى تديناً رفيعاً وتقـوى عالية وعبـادة خاشـعة فهم لم يـذهبوا بعيداً ولم يطلبوا شططاً .

والحق أن التفسير لا يطاق من جاهل بالدين واللغة .

ولا يطاق كذلك من شخص آثم يرتكب الموبقـات أو ليّن الذمة يـبيع دينه بعـرض من الدنيا"[69].

فهذا الكلام الذى يبدو بريئاً ومنطقيـاً يثـير قضـايا لا تظهر خلال السـطور ولكنها تبرز عند التطبيق وتؤدى إلى الحكر والتحكم فمن ذا يحكم فى تـوفر هـذه "الأهليـة" ؟ لعل أسهل الطرق للتوصل إلى ذلك هو الحصول على إجـازة دراسـية وهـذا حكم على التفسير بأن يسير تبعاً لمناهج دراسية تتحكم فيها الدولة وتـؤثر عليها المصـالح وينتهى بـالعقم وأى معيـار آخر يتطلب نوعـاً من "تحقيق الشخصـية" ويفسح المجـال لتـدخل العوامل الذاتية ولا يمكن مطلقـاً التوصل إلى الضـابط فى مثل هــذه الموضــوعات وتطلبها هو كتطلب المشركين ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ {الزخـرف 31}.. والوضع الصـحيح للقضـية هو التركـيز على "المقولـة" وليس على "القائـل" ورب مهنـدس أو ميكـانيكى أو فلاح يصل بنـور القريحة أو هـدى البصـيرة أو بدراسته الذاتية والخاصة إلى مالا يدركه الشيخ المعمم من برنـامج تلقـاه فى الأزهـر،

[69] **(69) الهلال عـدد خـاص عن القـرآن (ديسـمبر 1970) ((هل يتنـاقض القـرآن والعلم)) للشيخ محمد الغزالى ص 42-43 .**

وما تعنينا "صفات" وهوية الكاتبين فنحن لسنا من رجال الضبطية وإنما ننشد الحقيقة والحكمة أنى كانت ومن أى شخص جاءت.

وقياس العلوم الإسلامية على الطب والهندسة الخ... الذى أوردته الدكتورة بنت الشاطئ وغيرها فاسد لأن هذه مهن وصناعات وفى أصل احتكارها حق ممارسة المهنة كما يعرف ذلك كل من تقصى تاريخ ظهور النقابات المهنية وهى تستهدف الهدف المادى وكفالة المورد ومنع المنافسة وهى تتطرق من هذا إلى بقية المسارب والمنزلقات الذاتية كأن يكون أبناء الطبيب أطباء، وأن يمنح أبناء المدرسين امتيازات فى دخول المدارس الخ... فهذه القيود والاشتراطات ليست لحساب المهنة، ولكن لحساب المهنيين، وبقدر ما كان بعضهاً مفيداً تطبيقاً لمبدأ التخصص، بقدر ما حافت على الحرية والمرونة، وبقدر ما أغلقت من أبواب التجديد والابتكار ونعوذ بالله أن نجعل من القرآن والحديث حانوتاً يتعيش منه البعض ثم لا يكتفون بذلك، بل يحجرون على غيرهم أن يخدموا القرآن والحديث إيماناً واحتساباً .

ونغمة الإخلاص والغيرة والحرص على الحقيقة فى كلام الدكتورة تختلط بشىء من الأكاديمية والأرستقراطية والمشيخية تبعد عن روح الإسلام وجوهره وتواضعه بقدر ما تقرب من الكهنوت والسدانة والاستعلاء والاستئثار. وما أشبه الدكتورة والشيوخ الذين يضيقون بهذا النشء الجديد من "الهواة" و "العلمانيين" الذين يكتبون بطريقة جديدة بالأرستقراطيات التى حدثنا عنها القرآن وكانت تضيق بمن يتبع الأنبياء من الفقراء والمستضعفين والشباب ويطالبون الأنبياء بطردهم. وهذا كله بعيد عن مذهب الإسلام وخلق العلماء وهو وأد لملكات يمكن أن تتفتح ولمحاولات يمكن أن تنجح. ولقد قال العرب عن أكثر من شاعر "مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر.." فما ضر الدكتورة وأمثالها.. لو تركوهم إن حسابهم إلا على الله.، وهذا أضعف الإيمان، ولو أحسنوا لشجعوهم بالكلمة الطيبة حيناً، والتوجيه السليم حينا آخر ولشكروا لهم هذا الاتجاه الإسلامى فى وقت أخذت فيه الدنيا زينتها وتبرجت وشاعت فيها الشهوات وتفحشت وقد يكون منهم بعد من يدافع عن الإسلام فى مجالات لا يستطيع غيرهم الدفاع عنه فيها، ومن يغنى غناء لا يقوم به غيره .

وفضلا عن هذا، فليس من الصحيح دائماً أن المتخصصين هم أفضل من يعرض موضوعات تخصصهم أو يلم بأطرافها، ذلك لأنهم رغم إحكامهم للتفاصيل وتعمقهم فى الجزئيات والفروع يتسمون عادة بضيق الأفق والجمود ويفقدون الأصالة والابتكار والسعة والمرونة ومن الصلة الوثيقة بأعضاء الجسم بعضها ببعض وجوانب المجتمع بعضها ببعض مما يحتمل أن يؤدى تخصصهم إلى المساس بجوانب لا تخطر لهم على بال، وهذا أمر ملحوظ فيما يصدر عن الشيوخ المتخصصين ولولا تيار الآراء المبدعة التى تسمح بها منافذ الحرية وتصدر عن مؤمنين بحكم قلوبهم وضمائرهم ومثالياتهم، وليس بحكم الوظيفة، ومثقفين حبا فى الحقيقة وشغفاً بالمعرفة، وليس طمعاً فى الشهادات أو نيل المناصب لحجر الشيوخ على دين الله وتحكموا فيه بما يضيق سعته، ويعسر يسره. وها هو ذا الأزهر، وهو قمة التخصص الإسلامى وقلعته. كم من أساتذته

وشـيوخه دعا إلى الله إيمانـاً واحتسـاباً، وكم منهم نبه فى الكتابة أو نبغ فى الفكر أو برز فى الدفاع عن الإسلام أو أصدر ما يكون إضـافة حقيقية إلى الفكر الإسـلامى.. إن العدد ضئيل إلى درجة تبعث على الأسـى، لا يمثل إلا النـدرة من بين عشـرات الألـوف الـذين تخـرجهم كليـات الأزهر وليس لهم هم إلا الاطمئنـان على وظـائفهم ودرجـاتهم الخ... إن الأغلبية العظمى من الكتابات الإسلامية المبدعة هى بأقلام كتاب لم يتعلمـوا فى الأزهر، بما فى ذلك الدكتورة بنت الشاطئ نفسـها. ولقد تتبعنا ما تخرجه المطـابع بأقلام هؤلاء المتخصصين، وما تنشره لهم الصحف. وما يقضـون به من "فتـاوى" فلم نجد عمقـاً أو إبـداعاً أو أصـالة لو حـتى أسـلوباً وإنما وجـدنا السـطحية فى التفكـير والركاكة فى التعبير. والاعتماد على النقول واستبعاد أى تقدير للعالم الذى يعيش فيه، والكثير منها يثير التقزز حقاً. فـإذا ارتفع أحـدهم عن هـذا المسـتوى تعرضـوا له بالنقد والتجريح .

وهناك جانب آخر هام لا أدرى كيف غفل عنه الذين يريدون أن يحصروا التفسـير أو الفقه فى المتخصصـين هو أنه سـيؤدى إلى إيجـاد «كنيسة» إسـلامية وإكلـيروس إسلامى وقسس يكون لهم وحدهم حق الحـديث والبحث والنشر ويمكنهم أن يصـدروا أحكام الحرمان على غيرهم وبذلك يهدمون أحد مفاخر الإسلام وأسرار حيويته .

وأخيراً فلو افترضنا مع الدكتورة بنت الشاطئ ضرورة اشتراط التخصـص، فـإن هذا نفسه يرد عليها، لأن فى القرآن من الآيات التى تتحدث عن الشمس والقمر الليل والنهار.. الأرض والسماء أضعاف ما فيه من آيات الأحكام، ولا يمكن المرور على هـذه الآيـات دون أى تعليـق، ولابد لأى تعليق من المعرفة العلمية بهـذه الموضـوعات، وفيه من سنن الاجتماع وقواعد العمران مالا يمكن تفسيره إلا للذين يحكمون علم الاجتماع ومن الجمع ما بين العلم والفن.. الأدب والفلسـفة مـالا يمكن أن يتفهمه إلا العقـول الذكية المثقفة ثقافة خصبه متعددة المجالات والنفوس السـمحة الرضـية الرحبة الـتى تتسع لها وتستوعبها ..

وليست ابنه الشاطئ هى الأولى التى رفعت هـذه الصـيحة "المشـيخية" ولا هى الأخيرة فكل يوم يكتب أحد الشيوخ بلا حياء ولا خجل عن الكلأ المباح!! أى الـدين وأن من الضرورى إحاطته بالأسيجة كما يفعل أصحاب الأملاك، كأن الدين أصبح "دكانـا" أو اسـترزاقا لا تجـوز المنافسة فيه إلا لأبنـاء المهنة وأكد فضـيلة شـيخ الأزهر تعليقا فى أهرام يوم 27/1/89 على رأى نشره أحد الكتاب .

"وفضلاً عن هذا فإن الشرع الحنيف قد وكل أمر النظر فى الأحكـام لطائفة من الأمة فقهت فى دين الله. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ وَلِيُنـذِرُوا قَـوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُـوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْـذَرُونَ﴾. فـالتمييز بين الصواب وغير الصواب من القول فى أمور الـدين بوجه عـام، إنما هو لهـذه الطائفة لا للمجتمع بمعـنى الـرأى العـام – كإنسـان فى أى تخصص علمى له أبعـاده ومقوماته العلمية وله خصائصه ذلك أن الأمر فى التشريع الإسـلامى والاسـتنباط من نصوصه له ضوابطه الـتى يجب الالـتزام بها والـتى لا يتسع المقـام حـتى لإجمالهـا". أن إصـرارهم

على تـــوفر هـــذه الاشـــتراطات المزعومة قبل النظر فى أى مقولة هو مصـــادرة للمطلوب. وتعليق المضـمون على الشـكل، وما ينسـاه هـؤلاء، أو يتناسـوه، هو أن من أول الضوابط التى أشار إليها فضيلة الشيخ هو حرية النقـاش وعـدم احتكـاره، حـتى لا تتحكم فيه الأغراض والأهواء والضغط والسياسات الخ ...

وما مثل هؤلاء الشـيوخ الـذين يشـترطون مقـدماً ضـمانات بالمشـتركين الـذين طلبـوا من الرسـول طـرد المستضـعفين والإذلاء من صـحبته ووجهه الله تعـالى لعـدم طردهم.. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْـرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾. فمتى يتخلص هؤلاء الشيوخ من هـذا الـداء العضـال: داء الذاتية القميئة البعيدة عن روح العلم والاحتكار الذى يرفض حتى من التجار ومتى يعلمون أن الله تعالى لم يخصهم بعلمه دون سائر العـالمين، وأن رب أشـعث أغـبر لو أقسم على الله لأبره. وأنه ما من عـالم إلا وهنـاك من هو أعلم منـه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. شفاهم الله ...

(2)

الأعجاز العلمى للقرآن

فى مجال الإعجـاز العلمى للقـرآن الكـريم ت تضم الصـفحات المنسـية أسـماء علمين سبقا فى الحديث عن جوانب من الإعجاز العقلى للقـرآن لا يكـاد الجيل الجديد أن يعرفهما هما الشـيخ طنطـاوى جـوهرى والـدكتور محمد توفيق صـدقى 1881 – 1960 .

أول هذين عالم جليل عرف بروحه المتفتحة الـتى دعته فى الثلاثينـات إلى تأييد دعوة الإخوان المسلمين الناشئة وقبل أن يوضع اسـمه كـرئيس تحرير لبعض صـحفها. وكـان من ثمـرات هـذا الانفتـاح تفسـيره "الجـواهر" الـذى تحـدث فيه عن عجـائب مخلوقـات الله فى حيـاة أقل الكائنـات شـأنا – الحشـرات. كالنمل والنحل والعنكبـوت الخ... وقد قـال عن نفسه أنه "خلق مغرما بالعجـائب الكونية معجبا بالبـدائع الطبيعية مشوقا إلى ما فى السماء من جمال وما فى الأرض من بهاء وكمال "ويستطرد الشيخ متحسـرا" أن أكـثر العقلاء وبعض أجلة العلمـاء عن تلك المعـانى معرضـين".. وتبلغ حسرته أوجها فى قوله "أن عدد الآيات الكونية الصريحة يزيد على سبعمائة وخمسـين آية فى حين لا تزيد آيـات علم الفقه عن مائة وخمسـين.. وقد أشـبعها الفقهـاء بحثا وتمحيصا مخلفين وراءهم آلاف المجلدات.. ويمضى متسائلاً "لماذا لا نعمل العقل فى الآيات الكونية". ويمضى مطالبا بارتقاء نظـام التعليم الإسـلامى "فعلـوم البلاغة ليست نهاية علوم القرآن بل هى علوم لفظه فقط".

وأما الثانى فهو الدكتور محمد توفيق صدقى الذى كان طبيبـاً فى سـجن طـرة، وابتداء من سنة 1905 أخذ ينشر فى مجلة "المنار" الـتى كـان يصـدرها السـيد رشـيد رضا والتى تعد سلفية إلى حد كبير سلسلة من المقـالات عن الفلك والقـرآن دلل فيها

على أن تعـاليم القـرآن تتفق مع ما وصل إليه العلم الحـديث فقد ورد فى القـرآن أن هناك مجموعات من الكواكب تربط بينها قـوة الجاذبية وهـذه حقيقة يـدعى الأوربيـون أنهم مكتشـفوها مع أن القـرآن قد سـبقهم إليها وتلك معجـزة من معجـزات القـرآن الظاهرة .

ويقول الدكتور صدقى انه عند نهاية العـالم سـتتراخى قـوة الجاذبية الـتى تربط الأفلاك معا وستتناثر النجوم كما ورد فى القرآن فى سورتى الانفطار والانشقاق .

ويذهب الدكتور صدقى إلى أن السموات السـبع الـتى يكـثر ورودها فى القـرآن هى الأفلاك السـبعة لأن السـماء فى اللغة هى كل ما يعلو الإنسـان أو يرتفع عن رأسه وقيل فى السماوات أنها طبقات فوق بعض وذلك لأن مدار كل واحدة منها فـوق مـدار الأخرى .

ولما كـــان نظامنا الشمسى يـــدور حـــول فلك معين لا نعـــرف كنهه على وجه التدقيق فمن الواضح أن الأفلاك الأخرى تدور حول كوكب ثابت وليس بعيـداً أن تكـون كل هـذه الأفلاك الـتى تـدور حـول مركز واحد مشـترك بالنسـبة للجميع يجـذب الكل ويديره ويضبط نظامه ذلك المركز هو العرش أو كرسى السماوات والأرض .

يروى الدكتور صدقى أن هـذا المركز هو على الـراجح الـذى وصـفه القـرآن بأنه عــرش الله ويثبته فى مكانه قــوى خاصة جعلها الله فيه ولســنا نعــرف طبيعتها ولكن القرآن يقول ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّـكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾{17 الحاقة}..[70].

وقـدم الأسـتاذ محمد أحمد الغمـراوى وهو أحد الشخصـيات البـارزة فى جمعية الشبان المسـلمين وأحد محـررى مجلتهـا. وهو عـالم الكيميـاء الحيوية تفسـيراً لبعض الآيـــات القرآنية فى كتابه "الإســـلام فى عصر العلم منتقـــداً على قصر فهم الآيـــات الكونية على ما فهمه العرب القدامى، مشيرا إلى أن القرآن ليس للعـرب وحـدهم بل للإنسـانية كلهـا، "يفهم من آياته أهل كل عصر بقـدر ما ثبت لـديهم من العلم، فتتجـدد بذلك حجة الله على الناس بتجدد إعجاز القرآن العلى من غـير تكلف أو تعسـف". نعم أن المتعــرض لتفسـير شــىء من الكتــاب العزيز عرضه للخطأ وعليه وحــده تقع تبعة خطأه وليس على الكتـاب، وإلا لـوجب أن يكـون المفسر معصـوما عن الخطـأ.. وذلك شرط لا يتحقق إلا فى نبى .

اعتراضات وتحفظات.. ضوابط الكتابة عن الإعجــاز العلمى فى القرآن :

قد حـدد كـاتب إسـلامي في مقـال نشـرته إحـدى المجلات تحت عنـوان "لمـاذا التعسف الباطل في تفسير القرآن بجر العلم إليه أو حجبه عنه" فقال إنها دلالة اللغة،

70 **(70) نشرت مقـالات الـدكتور صـدقى أولا فى المنـار ج 8 سـنة 1905 ثم طبعت أول مرة قبيل وفاته (1920) وأعيد طبعها بعد ذلك سـنة 1927 وقد اعتمـدنا فى هذه الفقـرة على كتـاب ((الإسـلام والتجديد فى مصـر)) تـأليف الـدكتور تشـارلز ادامس – ترجمة عباس محمود ص 233-234.**

وقواعد التفسير وعدم معارضة التفسير مع أى آية أخرى أو حديث ثابت. فإذا انطبقت هــذه الضــوابط على التفســير العلمي فيمكن الأخذ به لأن المســلك الأمثل هو عــدم التعسف في محاولة جر العلم إلى القــرآن أو حجبه عنه وطبق هـــذه الضـــوابط على بعض الآيـــات الـــتي تناولها التفســـير العلمى مثل الآية "يا معشر الجن والإنس، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فأنفذوا، لا تنفـذوا إلا بسـلطان" فقد قيل إن هذه الآية تدل على إمكـان التخلص من الجاذبية الأرضـية والوصـول إلى القمر وغـيره من الأجـرام السـماوية ولكن الكـاتب يلحظ أن الآية تقـول ﴿إِنِ اسْـتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ﴾ {33 الرحمن}.. ولم تقل "إلى أقطار السموات" وفـرق كبير في الدلالة اللغوية بين التعبيرين. إن «من» لا تصلح في هذا المقام إلا لمعنى واحد هو التجاوز فالمعنى إذن إن استطعتم أن تتجاوزوا أقطار الســموات والأرض وتخرجـوا عن دائرة الكونات .

وفي رأى الكاتب أن الآية هي للتعجيز وأن المعنى المـراد الـذي تكـنى عنه الآية هو "أن الإنسان لن ينجو من قبضة الله تعالى وما قد ينتظره يـوم القيامة من حسـاب وجزاء مهما حاول ومهما أوتى من قوة إلا بسلطان من الإرادة الإلهية يتعلق بنجاته" .

ويستطرد نعم لو جاء التعبير "إلى" بدلا من "من" لكان التفسير الشائع مقبولا .

ويستطرد :

وكذلك فإن الآية "مـالكم لا ترجـون لله وقـارا وقد خلقكم أطـوارا" لا تـدل على مبدأ التطور ولا تعد سبقا لما جاء به لامارك وداروين لأن صرف كلمة أطوارا إلى هــذه المعاني يتناقض مع آيات صريحة أخرى مثل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ {4 التين}.. وإن كلمة أطوارا تفسرها آية أخرى هي ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾. {6 الزمر}.. وفي مقابل هذا فـإن الكـاتب يـرى أت الآية ﴿أَلَمْ نَجْـــعَلِ الأَرْضَ كِفَاتــاً **(25)** أَحْيَــاءً وَأَمْوَاتــاً﴾{26 المرســلات}.. تنم عن الجاذبية الأرضـية لأن كفاتا هي الجـذب والضم – كـذلك لاحظ أن القـرآن يصف الشـمس بأنها سراج مضئ وإذا تحدث عن القمر وصفة بأنه منير. وأن هذا لغويـاً يجعل القمر جرمــاً بـارداً لا حـرارة فيه يكتسب نـوره من جـرم آخـر، بعكس الشــمس. ويــرى أن الآية ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَـازِنِينَ﴾ {22 الحجر}.. بأنها تعبـير عن الحقيقة العلمية الخاصة بتلقيح الريـاح السـحاب بالشـحنات الكهربائية الأمر الذي يؤدي إلى سقوط الأمطار، وأننا لا نستطيع أن نفر بهـذه الآية من هذه الحقيقة العلمية[71].

وتعرض لهذا الموضوع الأستاذ الــدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه "الحرية فى الإســلام" إذ خصص فصــلاً مــوجزاً عن "تعسف بعض الكتــاب فى تفســير آيــات القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة وانحرافهم فى هــذا عن مـدلول اللغة وأغـراض الكتاب الكريم". أشار فيه إلى "الجناية الكـبرى الـتى جناها بعض من أقحمـوا أنفسـهم

---

[71] **(71) انظر المقال المشـار إليه بقلم الـدكتور محمد سـعيد رمضـان البـوطي في مجلة العربي العدد 246 جمادى الثانية 1399- مايو 1979 ص 55- 59.**

فى الدراسـات الإسـلامية إذ يحـاولون أن يفسـروا بعض آيـات القـرآن تفسـيراً يجعلها منطوية على النظريات العلمية الحديثة، ويسيئون بذلك أبلغ إساءة من حيث لا يعلمون إلى الإسلام والقرآن من عدة وجوه .

1. فهم أولاً يتعسفون كل التعسف في تفسير آيات الكتاب الكريم، وتحميلها مالا تحتمل من المعـاني وما لم يفهمه العـرب منهـا، ولا يمكن أن يفهمه منها ملم باللغة العربية وأساليبها في البيان، حتى يتاح لهم أن يقرروا أن القـرآن قد سـبق البحـوث الحديثة فيما قالت به من نظريـات وما اكتشـفت من قـوانين، أو قد تُنْبِئ بما عسى أن ينتهى إليه من نتــائج. والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فيما يخرجه هــؤلاء من كتب وما ينشرونه من مقالات .

فمن ذلك مثلاً ما يقوله أحــدهم في فصل عقــده فى كتابه عن وحــدة الخلق إذ يفسر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَـلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْـكُنَ إِلَيْهَا﴾ {189 لأعــراف}.. بـأن النفس الـبروتون وأن زوجها هو الالكـترون، وهما العنصـران اللذان تتألف منهما الذرة. وفى ذلك يقول، بعد كلام كثير عن الجسـيمات الـتى تتـألف منها الـذرة: "هـذه الحقيقة العلمية الـتى يتيه بها العصر الحـديث قد جـاء بها القـرآن الكـريم منذ ألف وأربعمائة سـنة فى صـراحة ووضـوح، إذ تقـرر الآية 189 من سـورة الأعراف أن كل ما خلق الله إنما من نفس واحدة وجعل منها زوجها أليست هــذه هي البروتونـات والإلكترونـات.. الكهـارب الواحـدة موجبة وسـالبة، أى النفس الواحـدة .. الزوجية الجنس بين موجب وسـالب "ومن الغـريب أنه كـان يكفي هـذا الكـاتب لاتقـاء تخبطه هذا وتعسفه في تفسـير الآية الكريمة أن يقرأها كاملة ويتأمل معناها إذ تقـول: هو الذى خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشــاها حملت حملاً خفيفــاً فمــرت بــه، فلما أثقلت دعــوا الله ربهما لئن أتيتنا صــالحاً لنكــونن من الشاكرين" .

ومن ذلك أيضاً ما يقوله المؤلف نفسه في فصل عقده عن الأقمار الصـناعية إذ يفسر قوله تعــالى ﴿وَإِذَا وَقَــعَ الْقَــوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَـانُوا بِآياتِنَا لا يُوقِنُــونَ﴾ {82 النمــل}.. فــيزعم أن الآية تشــير إلى الأقمــار الصناعية وسفن الفضاء وما تحمله من دواب. وفى ذلك يقول: "أطلقت روسيا أجهـزة علمية سميت بالأقمار الصناعية تدور حـول الأرض، واتبعتها أجهـزة أخـرى تحمل نوعـاً من الكائنات الحية لتدريس تأثير الانطلاق والارتفاع والاشعاع والضوء والجاذبية.. وهذه الأقمار التى خـرجت من الأرض فى الـوقت الـذى انتشر فيه الإلحـاد لتتحـدث عما فى الكون الغامض وتزيح بعضا من هذا الغموض، ألا يمكن أن تكـون هـذه هى الدابة الـتى تنبأ بها القرآن الكريم فى سورة النحل (صـوابه فى سـورة النمـل) فى الآية 82 الـتى تقول ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآياتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (النمـل:82) فلعله يـزعم أن الكلبة "لايكـا" الـتى وضعـها الـروس فى أول تجربة لسفن الفضاء قبل أن يضـعوا فيها أناسي من البشر قد تكلمت بلغة الكلاب فى أثناء دورانها حول الأرض فنعت على الآدميين عدم إيمانهم بآيـات اللـه.ومن ذلك أيضـاً

ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن الغثاء الأحــوى "إذ يفسـر هـذا الغثـاء فى قـوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ {5 الأعلى}.. بأن المقصود منه الفحم الحجرى. وفى ذلك يقول: لبثت هذه الكتل الضخمة من الأشـجار والنباتـات مطمورة في باطن الأرض سنين عديدة حتى أكتشفها الإنسان واستعملها وقوداً سماه فحماً أليس ذلك ما يقول به القرآن إذ أن الله هو الـذى أخـرج المـرعى ثم جعله غثـاء أحوى" فبحسب ما يراه هذا الكـاتب يكـون الله تعـالى قد من على النـاس فى القـرن السابع الميلادى بتطـور جيولـوجى لم يكونـوا قد عرفـوه بعد ولا يسـتطيعون فهمه من عبارة الآية .

ومن ذلك ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن انشـقاق القمـر، إذ يفسر قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَـقَّ الْقَمَـرُ﴾ {1 القمـر}.. فيقـول: "إن القمر يقـترب من الأرض، وهذا الاقتراب وإن كان يسير حثيثاً (يريد أن يقول بطيئـاً فجـاء بكلمة تفيد ضد المعنى الذى يريده) إلا أنه بتوالى العصور سيجعل القمر يقترب من منطقة تفـوق الجاذبية فيها تلك التى تجعله على بعده من الأرض الذى يحفظه.. وأن أول علامة على دخول منطقة الخطر هو حدوث زلازل مـدمرة فى القمر حـتى يصل الحـال إلى زلزلة عنيفة دائمة تسـبب انشـقاقه وإذا انشق وتهـاوى مكونا طبقـات حـول الأرض كما فى زحل أفلا يؤثر ذلك فى جاذبية الكواكب وأجرام أخرى تمسـكها جاذبية القمر نفسـه؟.. فهلا يكون ذلك دليلاً على قيام الساعة ..؟

وهذا قليل من كثير مما حواه هذا الكتاب العجيب وما تحويه كتب على شــاكلته. وانظر إلى أى مدى يصل التعسف بهؤلاء فى تفسير آيات الذكر الحكيم، وتحميلها مــالا تحتمل، وفى التلاعب بكلام الله واتخاذه هزوا .

2. ولا يقتصر الأمر على تعسف هؤلاء فى تفسير آيات الذكر الحكيم وتحميلها من المعانى مالا تحتمـل، بل أنهم بمسـلكهم هـذا يعرضـون كلام الله للكـذب والتكـذيب تعالت كلمات الله عن ذلك علوا كبيرا، وذلك أن كثيراً من النظريـات العلمية ليست ثابتة، ولم تقل الكلمة النهائية فيما تعالجه من ظواهر. وقد تظهر كشوف أخرى تبين عن خطئها أو عن نقصها. فإذا فسر كتاب الله على وجه يتفق مع نظريـات حاضـره، ثم ظهر عدم صحتها فيما بعد فإن هذا يـدعو إلى تكـذيب كتـاب اللـه، أو على الأقل زعزعة ثقة الناس بحقائقه .

3. وهم بذلك أيضاً يصمون الإسـلام بوصـمة هو منها بـراء، إذ يحـاولون بـذلك أن يظهروا القرآن كتابـاً يقـرر النظريـات العلمية على أنها عقائد دينية نـزل بها الـوحى الأمين من قبل الله تعـالى.وهـذا مخـالف لاتجـاه الإسـلام وروحـه، ولما يحث عليه القـرآن من التأمل فى ظـواهر الكـون واسـتنباط قوانينها العامـة، ولما يقـرره من مبادئ سامية تتعلق بحرية التفكير والتعبير"[72].

---

[72] **(72) كتاب الحرية في الإسلام للـدكتور على عبد الواحد وافى الصـفحات من 83 إلى 88 دار المعارف – سلسة اقرأ.**

* * *

وكـان مما شـوه هـذا الاتجـاه ما يتسـرع به بعض الكتـاب من إبـداء أراء لا تثبت للنقد أو هى واضـحة البطلان كالـذى قاله أحد الاتجـاه مما أشـرنا إليه فيما سـبق وقد ظهر أن لافتة الإعجـاز العلمى للقـرآن يمكن أن تضم تحتها صـنوفاً فكتب أحد الأطبـاء فى تفسـير قوله تعـالى ﴿قَـدْ كَـانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْـرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَـهُ﴾ (الممتحنة: من الآية4) إن ذلك يعود إلى أنه أول من أختتن وقارن عـالم طبيعة معاصر ما بين الطواف حول الكعبة ودورة النجوم فى مساراتها .

وقـال الشـيخ محمد الغـزالى أنه قـرأ كتابـاً يثبت صـاحبه أن الأرض ثابتـة، وأن الشمس هى التى تـدور حولها بـأربعين آيه من آيـات القـرآن، وذكر الـدكتور مصـطفى محمـود فى حديثه العلم والإيمـان الـتى أذاعها تليفزيـون القـاهرة يـوم 20/1/87 أن الشجرة المباركة هى شجرة المجال المغنطيسى .

كما يمكن أن يكون فى تركـيز الحـديث على الإعجـاز العلمى للقـرآن والتبـاهى بذلك – ما تنبه إليه كاتب إسلامى تعبير عن العجز فى التعامل مع الحاضر، أو الهـروب من مسئوليات ومتطلبات الواقع، بمختلف ضغوطه وتعقيداته. فالـدعوة إلى الله وحث الناس على تمثيل قيم الإسـلام فى زماننا معـترك صـعب ومقـام ضـنك، وتحد لا يقـدر عليه إلا أولو العزم من الرجال. فضلاً عن أنه عمل طويل الأجل وباهظ الثمن. وعندما ينوء البعض بذلك الحمل، ويضيقون بأعبائه وتبعاته، فإن المخرج الوحيد والحل السـعيد هو فى مثل هذه الأنشطة، الـتى تظل رافعة راية الإسـلام، لا تبارحهـا، لكنها تصب فى مسارات هامشية، لا تغير من الواقع شيئاً ولا تصطدم به. بل لا تغضب أحداً حسوداً أو عزولاً. لكنها قد تحدث قدراً معقولاً – ومطلوباً من الجلبة والرنين .

هو إذا عمل للإسلام ولا عمل. وضـجيج بلا طحن، وقـول بلا مسـئولية، أو عتب.. وفى ذلك تكمن جاذبيته وخطره! .

ولاحظ الكاتب أن مثل هذا المعنى كان مائلاً فى ذهن الجنرال ضياء الحق الذى قال فى افتتاح المؤتمر الأول الدولى للإعجاز العلمى فى القـرآن والسـنُة عـام 1987 إننا لسنا بحاجة لأن نثبت أن القرآن تضمن قـوى من الإعجـاز العلمى، لآن بقـاءه على الحـال الـتى نـزل بها منذ 14 قرنا هو بحد ذاته معجـزة ودعا علمـاء المسـلمين إلى الانشـغال بالقضـية الأهم، وهى البحث فى أسـباب تفـوق المسـلمين العلمى فى عصورهم الزاهرة وكيفية استعادة هـذه الأسـباب فى واقعنا المعاصر لصـناعة الحاضر ومستقبل أفضل"[(73)].

ولعل الإمـام الشـهيد حسن البنا قد وضع الأمر فى نصـابه عنـدما عـالج هـذه القضية فى المقدمة الـتى وضـعها للتفسـير وكتبها فى العـدد الأول من مجلة الشـهاب (المحرم 1367- نوفمبر 1947) عندما قـال "من المقـرر أن القـرآن لم يـنزل ليكـون

---

[73] **(73) الإعجاز القرآنى: الصالح والفاسد للأسـتاذ فهمى هويـدى – جريـدة الأهـرام ص 7 العدد الصادر فى 3/11/1987.**

كتــاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعة أو صــناعة، ولكنه كتــاب هداية وإرشــاد، وتوجيه اجتمـاعى إلى أمهـات المنـاهج الاجتماعية الـتى إذا سـلكها النـاس سـعدوا فى دنيـاهم وفازوا فى أخرتهم، وهو إنما أشار للعلوم الكونيــة، ولمظـاهر الوجـود المادية الطبيعية بالقدر الذى يعين على الإيمان بعظمة الخالق جل وعلا، ويكشف عن بديع صنعه، وعما أودع فى هذا الكون من المنافع والفوائد لبـنى الإنسـان، حـتى ييسر لهم بـذلك طرائق الاهتداء إلى الاستفادة عن هذه الخـيرات فى الأرض وفى السـماء وفيما بين ذلـك، ثم بعد ذلك للعقل الإنسانى أن يجاهد ويكافح فى سبيل الكشف عن مساتير هـذا الوجـود والاســتفادة مما فيه من قــوى ومنــافع وحثه على ذلك وجعل هـذا من أفضل العبـادة وأعلى أنـواع ذكر الله ﴿قُـلِ انْــظُرُوا مَـاذَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يـونس: من الآية 101) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لَآيـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ(190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ {191 آل عمران} ..

ولقد ذهب كثير من المؤلفين والمفسرين فى القـديم والحـديث إلى أن القـرآن الكريم قد تضمن كل أصول العلوم الكونية، وحاولوا أن يصـلوا إلى ذلك بتطـبيق آيـات الخلق والتكـوين وما إليها على ما عـرف النـاس من هـذه العلـوم، ومن هـؤلاء الإمـام الغـزالى قـديماً فى جـواهر القـرآن، والشـيخ طنطـاوى جـوهرى حـديثاً فى تفسـيره الجواهر، والدكتور عبد العزيز إسـماعيل فى كتابه عن القـرآن والطب، وأمثـالهم. وهو جهد مشكور ولا شك، ولكنه تكليف بما لم يكلفنا الله به قد يصل فى كثير من الأحيـان إلى التكلــف، وخــروج بــالقرآن عما نـزل له من الهداية والإصــلاح الاجتمــاعى وتقرير قواعدهما فى النفوس والمجتمعات، وتعريض لمعانى كتاب الله تبارك وتعالى لاختلاف الآراء، وتضارب المقررات العلمية، واختلاف أقوال العلمـاء؛ ولهـذا كـره بعض السـلف هـذا المعـنى وأشـار إليـه، كما فعل ذلك الشـاطبى فى الجـزء الثـانى من الموافقـات وناقشه مناقشة دقيقة خلص منها إلى «أن القــرآن لم يقصد فيه تقرير لشئ من هــذه العلوم وإن كان قد تضمن علوما هى من جنس علوم العرب أو ما ينــبى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتـداء بأعلامــه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا .

ومن المقرر كذلك أن القرآن قد تعرض لكثير من مظاهر هـذا الوجـود الكونيـة، فتناول خلق الإنسان، وتكـوين الأرض والسـماء، وجريـان الشـمس والقمـر، وتسـتخير الكواكب والنجوم والأفلاك، وتراكم السـحاب ونـزول المطـر، وظـاهرة الرعد والـبرق، ونمو النبات وتنوع أصنافه،وعجائب البحار، وأعلام الطريق والجبال الرواسى على هذه الأرض، وأطــوار الأجنة فى بطــون أمهاتها – إلى غــير ذلك مما يتناوله علمــاء الكــون بالتمحيص والبيان وما هو موضوع بحوثهم ومحل عنايتهم وتجاربهم .

وكثيراً ما تختم هذه الآيات بــالحث على التعقل والتفكر والنظر والتـدبر، إشـارة إلى أن القــرآن الكــريم لم يقصد بهـذا التعـرض تقرير أصـول هـذه العلـوم، أو تنـاول فروعها، ولكنه إنما قصد إلى الهدايـة، وتوجيه الأنظـار والنفـوس إلى ما تـدل عليه من

ولكن الـذى لا يمكن أن يكـون محل نـزاع هو أن القـرآن حين أشـار إلى هـذه النواميس الكونية، والمظاهر الوجودية المادية، كـان من دقة التعبـير وصـدق التصـوير بحيث لا يمكن أبدا أن يصـطدم بما يكشف العقل الإنسـاني عنه فى أطـواره المختلفة من حقـائق هـذه العلـوم ومقرراتهـا، وخصوصـاً إذا لحظنا أن هـذه المقـررات العلمية تنقسم إلى قســمين: قسم تظــاهرت عليه الأدلة وتــوافرت الحجج حــتى كــاد يلحق بالبديهات، وقسم لازال فى طور البحث العلمى. وكل الذى بين يدى العلمـاء الكونـيين منه فـروض تؤيـدها بعض القـرائن الـتى لم تـرق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة. فما كان من القسم الأول فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكـريم منه يوافق كل الموافقة ويطابق كل المطابقة، ما عرف العلماء الكونيـون، حـتى إنه من الحق أن يقال إن ذلك من إعجاز هذا الكتاب الذى جاء به أمى لم يتعلم فى مدرسة، ولم يلتحق بجامعة من الجامعـات! ومن أمثلة ذلك إشـاراته إلى أطـوار الجـنين، وتلقيح الريـاح، وتكون السحاب وصلته بالرياح الخ...- وما كـان من القسم الثـانى فمن التجـنى وظلم الحقيقة أن يـوازن بينه وبين ما جـاء في القـرآن الكـريم، فلننتظر حـتى يطمئن العلم الكونى إلى ما بين يديه، ويؤمن العقل الإنسانى بما وصل إليه، ثم ننظر على ضوء هذا الإيمــان إلى النص القــرآنى ولن نجــدهما إلا متعــاونين على تثــبيت دعــائم الحقيقة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَــقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ﴾ {53 فصـلت}.. ومن هـذا القبيل ما يتصل بنشـأة الإنسـان وحقيقة الحيـاة وبـدأ التكـوين، وصـلة الأرض بالسـماء – على أنه من عجيب أمر هـذا القرآن أنه حتى فى مثل هذه المواطن يسوق التعبير سـوقاً عجيبـاً معجـزاً فى مرونة عبارته ودقة إشارته، حتى إنه ليساير بحق تطور العقل الإنسانى فى كل زمان ومكان. وتأمل تصـويره لنهاية العـالم المـادى ووصــفه للقيامة وآثارها فيه تر أنه أتى فى ذلك بالعجب العاجب! .

* * *

مؤيدات ومؤكدات :

رغم كل التحفظات التى أبـدأها علمـاء إجلاء على هـذا الاتجـاه وما يتضـمنه من مخاطر تطويع الفهم القرآنى ليتطابق مع نظريات علمية إذا بـدت صـحيحة اليـوم فقد يكشف المستقبل عن عوار فيها أو نقص، فيسرى ذلك أيضاً على الآيات التى فسروها ..

نقول رغم ذلك فـإن اتجـاه الإعجـاز العلمى للقـرآن لم يتوقف أبـداً. بل لقد زاد وحاليا تنشر فى الأهرام يوم الاثنين من كل أسبوع صفحة كاملة للدكتور زغلول النجار الـذى بـرز فى هـذا المجـال.. مما ينم عن وجـود أصل جعل هـؤلاء العلمـاء يواصـلون كتاباتهم، وجمهور يتطلب هذا النوع من الكتابات، خاصة عندما تصدر عن علمـاء ثقـات فى علم الطبيعة مثل الـدكتور جمـال الفنـدى الـذى يعد من أقـدم من كتب عن هـذا

الموضـوع ونشر فى الأهـرام يـوم 8/9/76 مقـالاً تحت عنـوان "من أعمـاق الإعجـاز العلمى فى القرآن" جاء فيه .

"المعـروف أنـنى من المنـادين بضـرورة إظهـار جـوانب (الإعجـاز العلمى فى القرآن) فى ضوء الآفاق الواسعة الـتى فتحها عصر العلم، وعـدم تجميد معانيه عند حد ما قاله الأولون، بشرط أن يتم كل ذلك داخل إطار الثابت من حقائق العلم .

والمعـروف أن ما تم من تفسـيرات علمية داخل هـذا الإطـار جـاء كله صـحيحاً ورائعاً وغير متضارب منذ نزل القرآن وبدأ ركب العلم، ذلك لأن حقـائق العلم لا تتغـير وإنما تتكامل. والأمثلة على ذلك كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَـوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَـهُ بِخَـازِنِينَ﴾. {22 الحجر}.. ﴿وَالسَّـمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. {47 الـذريات} ﴿وَالسَّـقْفِ الْمَرْفُـوعِ﴾. {5 الطـور}.. فقد فسر الأقــدون كلمة لــواقح فى الآية الأولى بأنها إشــارة إلى تلقيح الريــاح للنباتــات، وتلك حقيقة علمية قائمة إلا أننا فســرناها فى هــذا العصر بأنها إشـــارة إلى تلقيح الريـــاح للسحاب الذى تثيره لكى يجـود بـالمطر، بمعـنى إمـداده ببخـار المـاء وبنـوى التكـاثف اللازمين للأمطار. وعلى هذا النحو تثير هذه الآية وحدها ثلاث قضايا علمية هامة هى:

- أن لفظ (لواقح) لا يقتصر على تلقيح الرياح للسحاب ببخـار المـاء ولكن أيضـاً بجسيمات متميعة تتم عليها عمليات التكاثف ونمو نقط الماء أى الإخصاب .
- أنه ينجم عن ذلك التلقيح نمو مكونات السحب ومن ثم نـزول المطـر، وبـذلك تكون الفاء فى قوله (فأنزلنا) هى فاء السببية .
- أن هـذا المـاء العـذب ليس مخزونـاً فى مكـان معين ولكنه دورة بين السـماء والأرض كما هو ثابت ومعروف الآن .

ولسنا بصدد شرح باقى الآيات لضيق المقام، إلا أن مسايرة ركب العلم للقـرآن أو هضم القرآن لمفاهيمنا العلمية السليمة منذ نزل فى حد ذاته عمق أعمـاق الإعجـاز العلمى فى القرآن الكريم .

وتتعدد تلك الأعماق بشكل أخاذ، حـتى أن الآيـات المتعلقة بظـاهرة بالـذات إنما تتكامل ولا تتكــرر معانيها كما يظن البعض خطــأ. ولو أننا جمعنا مثلا الآيــات المتعلقة بالجبال لحصلنا على معان علمية مختلفة ومترابطة فى نفس الوقت .

ومن بين الأعماق الأخاذة عمق يتصل بمجرد التعبير أو اختيار اللفظ الواحد الذى يحتاج إلى شرح علمى مطول، انظر مثلا إلى كلمة "نسلخ" فى قوله تعـالى: ﴿وَآيَـةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾. {37 يّس} ..

أن المقطـــوع به علميا الآن أن (الفضـــاء الكـــوني) الـــذى تســـبح فيه الأرض والمجموعة الشمسـية مظلم بطبيعته وحالك الإظلام، وأن ضـوء النهـار طـارئ عـبر قشرة رقيقة من غلاف الأرض الجوى لا يتعدى سمكها 200 كيلو متر فقـط، وعلة ذلك أن تلك القشرة التى تعلو سطح الأرض مباشرة إنما تعمل على تشتت الضوء أو تناثره

فى كل اتجــاه عنــدما تواجه الشــمس وعلى هــذا النحو يقبل ضــوء النهــار من كل الاتجاهات، وهذه من نعم الله علينا، إذ لا يلزم أن تواجه النافذة الشمس مباشـرة لكى تضئ الحجرة عندما تفتحها يمكن أن يدخل منها ضوء النهار حـتى ولو كـانت بعيـدة كل البعد عن الشمس .

وعندما يرتفع رجال الفضاء وسط النهار فوق تلك القشرة تظلم الدنيا من جديد وتظهر النجـوم جنبـاً إلى جنب مع الشـمس إلا أن أعـدادها تتزايد مما يـرهب الـرواد ويخيفهم، حتى أن منهم من يصاب بالانهيار العصبى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابـاً مِنَ السَّـمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـارُنَا بَـلْ نَحْنُ قَـوْمٌ مَسْـحُورُونَ ﴾. {15 الحجر} ..

وتظل قشرة النهار الرقيقة تواجه الشمس بـدوران الأرض حـول محورها بحيث تنسلخ من جسم الظلام المعتم تماماً كما ينسلخ جلد البعير من جسده. وهكذا نرى أن اختيار كلمة (نسلخ) إعجاز ما بعده إعجاز!! .

وفى اختيار لفظ (يعرجون) فى الآية السـابقة إعجـاز من عمق مماثـل، ذلك أن الفضاء الكونى لا يعرف الخط المستقيم كما نألفه نحن على الأرض، وأن جميع أسـفار الفضاء إنما تتم فى خطوط متعرجة أو منحنية.

وأعجب العجب أن يطلق القرآن الكريم لفظ (عروج) أو (معـراج) على (السـبح فى الفضاء الكونى) أو (الصعود قدماً فى السماء). وجميع أجرام السـماء هكـذا تسـبح فى أفلاكها المنحنية مهما اختلفت درجـــات ذلك الانحنـــاء وتبـــاينت أنواعه على النحو المعروف فى هندسة الفراغ مثلاً.

ومن عمق التعبيرات القرآنية قوله تعالى :

﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَـاراً﴾. {24 يـونس}.. فكلمة (أو) هنا بمعـنى (و) ذلك لأن الأرض عنـدما يكـون نصـفها نهـاراً يكـون النصف الآخر ليلاً، بحيث تقـوم القيامة نهـاراً بالنسبة لقوم وليلاً بالنسبة لقوم آخرين، وقد يكون أيضـاً للتعمية وعـدم تحديد الـزمن كما قال الأولون والله أعلم". انتهى ..

ففى هـذه الكلمة نـرى أمانة وأسـتاذية الكـاتب فى معالجة الكلمـات، وكيف أنه استطاع بحسه المرهف مع تمكنه العلمى والفنى أن يستكشف مكمن الإعجاز العلمى فى الآيات التى عالجهـا. بـدون أى افتيـات على المعـنى أو اللفظ القـرآنى أو التعسف فى التأويل .

بعد كتابه هذه الكلمة بعشر سنين عقد فى القـاهرة فى مسـتهل العلم الهجـرى المحرم 1406 (سبتمبر 1985) مـؤتمر لدراسة "الإعجـاز الطـبى فى القـرآن" أسـهم فيه شيخ الجامع الأزهر وفضيلة الشيخ محمد متـولى الشـعراوى ورئيس جامعة الأزهر وعمداء كلياته وعدد آخر من أساتذة الدراسات الإسلامية. ومن جانب الأطبـاء إبـراهيم بـدران، وممـدوح جـبر، ومحمد عبد المنعم أبو الفضل وزهـيرة عابـدين وأحمد الملط وحسن عبد العال ومحمد الظـواهرى وغـيرهم من أسـاتذة وعمـداء كليـات الطب كما

اسـتجاب دعـوة الهيئة الداعية منـدوبون من رابطة العـالم الإسـلامى بمكة المكرمة ومنظمة العلوم الإسلامية بالكويت ومندوبون من هيئـات طبية بالعـالم الإسـلامى ومن الأجانب – على سبيل المثال لا الحصر – البروفيسـور كيث مـور وهو من أشـهر أطبـاء العالم فى علم الأجنة وصـاحب الدراسـات الرائـدة الـتى تنشر فى المجلات والمراجع الطبية وتثبت مطابقة علم الأجنة لما جاءه فى القرآن الكـريم، والبروفيسـور مـوريس بوكـاى الجـراح الفرنسي صـاحب الدراسـات المقارنة عن القـرآن والتـوراة والإنجيل وأثبت السبق العلمى للقرآن .

ويقـــول الـــدكتور محمد حسن الحفنـــاوى الأســـتاذ بطب عين شـــمس وأحد المسئولين عن هذا المؤتمر فى مقال نشر فى الأهرام القاهرية يوم 9/9/1985 "أن" أكبر مراجع العالم فى علم الأجنة والذى يقوده مجلس أعلى مكون من 23 من علمـاء العالم قد أصدر طبعته الأخيرة مسترشدين بما جـاء فى القـرآن الكـريم ومـدى قدرته فى التعبـــير المعجز عن مراحل الأجنـــة، وطـــالبت لجنتهم العلمية بدراسة عميقة للمفاهيم القرآنية.ويستطرد الدكتور محمد حسن الحفنـاوى فيقـول فى كلمته بجريـدة الأهرام "أليس من العجيب أن نجد من غير العرب من يهتم بإبراز الحقائق العلمية فى القرآن الكريم ويتحمس لها؟ بينما يتقوقع الباحثون المسلمون! ثم أنـترك لهم وحـدهم باب الاجتهاد، بدون إرشاد إسلامى واع ومتفهم فى دراسـاتهم الـتى تنشر فى العـالم؟ أليس هذا الوجود المشترك من العلمـاء الـدوليين المتفتحين للعلم الحقيقى والبـاحثين عن الحقيقة المجردة كسباً لأرضية إسـلامية جديـدة إنه من الـواجب وقبل أن يتصـدى البعض ويعارض ويهـاجم، باللاشـعور أو بالشـعور ألم يكن من الأمانـة، ومن التعقل أن يحضر هـذا البعض جلسـات المـؤتمر، ليسـتمع وينـاقش ويشـارك، ثم يعـارض، ويقـرع الحجة بالحجة .

أليس من المحتمل أن يجد هـــذا البعض من كنـــوز الإشـــارات العلمية الهادية بالقرآن الكريم، والتى سيبحثها المؤتمر ما قد يكـون فيه هداية للفكر والعقل ومراجعة الرأى.. وليتأكد هذا البعض فى كتاب الله العزيـز، ما يغـنى الدارسـين المخلصـين، عن تحميل معانية مالا يحتج ولا يحتمل .

إن الاحتجاج بأن هذا الأسلوب العلمى فى التفسير لبعض الآيات تحت بصر أولى التميـيز، والدارسـين لكتـاب الله العزيز يتعـارض مع طبيعة القـرآن الكـريم وأهدافـه، باعتبـــاره كتـــاب هداية وتربية مـــردود على أصـــحابه من زاوية مؤكـــدة وهى أن هـــذا الأسلوب فى حد ذاته، من أعظم أسباب الهداية والتربية .

وكثيراً ما سمعنا من قصص المهتدين إلى الإسـلام حـديثاً أنهم قد جـذبهم النص القرآنى بأغواره العلمية العميقة، فكانت استجابتهم له اسـتجابة فورية ومذهلة ولنقـرأ أو نفهم وليتـدارك هـذا البعض معـنى قوله تعـالى: ﴿وَقُـلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ سَـيُرِيكُمْ آيَاتِـهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ {93 النمل}.. "صدق الله العظيم" .

وكان المؤتمر ناجحاً رائعاً، وكشف عن جانب من جوانب الإعجاز القـرآنى الـذى شـهد به ودلل عليه أطبـاء من كنـدا وبريطانيا والولايـات المتحـدة وفرنسـا، كما أعلن إسلامه أحد كبار هؤلاء الأطباء ..

ويمكن القول إنه كان دليلاً على سلامة الاتجاه والمنهج وأنه فى الحقيقة تطبيق للتقرير القرآنى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ {53 فصلت}..

وفى 11/5/95 نشر الـدكتور حسب النـبى أسـتاذ الفيزيـاء بجامعة عين شـمس ورئس الجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن فى جريدة الأهرام مقالاً تحت عنـوان :

الإعجاز العلمى والحقائق المثبتة علماً ..

"نشر الأهــرام للــدكتور على خليل يعــترض فيه على ربط ســرعة الضــوء فى الفراغ وقدرها 299792.5 كم/ث بالقرآن الكريم، بدعوى أن مبـدأ النسـبية لأينشـتين (الذى اعتبر هذه السرعة ثابتاً كونياً مطلقاً وحداً أقصى) قد يتغير مستقبلاً فى نظرية الأوتار الفائقـة، ويتسـاءل مـاذا يكـون موقف الإعجـاز العلمى للقـرآن لو ثبت أن هـذه السـرعة ليست العظمى بعكس مبـدأ أينشـتين أو نتـائج حسـاباتى الـتى أعطت قيمة مساوية لسرعة الضوء تماماً من نصوص قرآنية فى بحثى المشـترك مع هيئة الإعجـاز بمكة والنشور فى الأزهر ومؤتمر مكة والقاهرة وموسكو (منذ عامين) .

ونظراً لأن سيادته قد تجاوز سرعة الضوء خيـالاً وأصـول الحـوار العلمى عمـداً واصفاً هذه المعجزة "بادعاء المعرفة وحصاد التفاهات" بينما الموضوع أمر إلهى كونى قرآنى أوضحه فيما يلى :

أولاً: لا خـوف على القـرآن فقد تعهد الله بحفظه (الحجـر:9) وبإظهـار إعجـازه العلمى بمرور الزمن (فصلت:53)، (الأنعـام:67)، (ص:88) وبـأن آياته مفصـلة على علم {52 الأعراف}.. {49 العنكبوت}.. {7 آل عمران} .

اتفاق نص قـرآنى مع نظرية علمية يؤكـدها ويجعلها حقيقة يقينية وليست ظنيـة، وكفى بالله شهيداً، ولا داعى للتشكيك طالما اتفق العلم مع القــرآن لأنهما لن يتعارضا إلا إذا ضل طريقه أو أخطأ المفسرون فى فهم الآية القرآنية .

ثانيا: مبدأ النسبية الخاصة الذى أعلنه أينشتين (1905) والذى يقضى بأن الكون المشـاهد ربـاعى الأبعـاد وأن سـرعة الضـوء فى الفـراغ هى الثـابت المطلق والحد الأقصى للسرعة الكونية وكل المقـادير الفيزيائية تنسب لهـذه السـرعة، حقيقة علمية وليست نظرية ظنية للأسباب التالية .

هـذا المبـدأ أدى إلى دمج المـادة بالطاقة فى أهم قـانون عرفته البشـرية فى القـرن العشـرين فى الفيزيـاء الكونية (الطاقة = الكتلة × مربع سـرعة الضـوء) وتم اختبار هـذه المعادلة علميـاً تطبيقـاً تكنولوجيـاً فى تصـميم المفـاعلات الذريـة، وصـنع

القنابل الذرية، واستخدام الطاقة النووية لدفع السفن البحرية وسفن الفضــاء، والعلاج والتشخيص الطبى، كما تم اختبار الثبات المطلق لسـرعة الضـوء فى الأرض والسـماء بصـرف النظر عن حركة الراصد أو المصـدر الضـوئى واختبـار وتطـبيق معـادلات تغـير الكتلة والزمن والطول بتغير السرعة بالنسبة لسـرعة الضـوء (طبقـاً لهـذا المبـدأ فى النسـبية) فى تصـنيع الميكروسـكوب الإلكـترونى وصـمامات الـرادار وزيـادة أعمـال الجسيمات الذرية عند التسارع وتصنيع جميع الأسلحة النووية .

ورغم هـذا يضع الـدكتور على خليل الحظر على النسـبية بـدلاً من الحظر على انتشار الأسلحة النووية رغم أن النسبية حقيقة مؤكدة علمياً وتكنولوجياً وحاصـلة على تأييد جميع علماء الفيزياء على جائزة نوبل بعد أينشتين .

ثالثــاً: وصف الله مقـدار الحد الأقصى لسـرعة الأمـور الكونية فى قوله تعـالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَـانَ مِقْـدَارُهُ أَلْـفَ سَـنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. {5 السجدة} .

وبهذا فإن المسافة التى يقطعها (الأمر الكونى) فى زمن يوم أرضى تساوى فى الحد والمقدار المسـافة الـتى يقطعها (القمـر) فى مـداره حـول الأرض فى زمن ألف سنة قمرية مما تعدّون أى فى الكون المشاهد لكم وفى الأمور الخاضعة لقياسكم .

بحل هذه المعادلة القرآنية لنا سرعة 299792.5 كم/ث مساوية تماماً لســرعة الضوء فى الفراغ المعلنة دوليـاً، ومتفقة مع مبـدأ أينشـتين، علمـاً بـأن التعبـير بالفعل المضارع (يدّبر، ويعرج) دليل على استمرار هذا القانون الإلهى وثبوته وأن عبارة (كــان مقــداره) أى كــان حــده لا يزيد عنه علمــاً بــأن (كــان) هنا للكينونة تفيد لغويا الأزلية والدوام بثبوت هذا الحد الأقصى لسـرعة الأمر مـادام الكـون قائمـاً كما أن لفظ الأمر أتى هنا ليشمل كل الأمور الكونية التى تعرج بهذه السـرعة المطلقة كالضـوء المـرئى وغير المرئى بأمواجه المختلفة وأمواج الجاذبية وجسيمات النيوترينو المنتشـرة جميعـاً بين الأرض والسماء، كما أن الضوء المرئى أمر إلهى بنص قـرآنى {48، 49 القمـر}، وأن هـذا القـانون الكـونى الإلهى فى {5 السـجدة} معـبراً عنه أيضـاً فى قوله تعـالى ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. {47 الحج}.. وصدق الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾. {93 النمل} .

فهل يصح لنا كمسـلمين أن نخفى هـذا الإعجـاز العلمى للقـرآن فى أهم قضـايا الكون المطلقة فى مبدأ النسبية وهل يجوز أن نشكك فى حقيقة مثبتة علميـاً وقرآنيـاً تماماً كما يفعل العامة فى إنكار حركة الأرض وكريتها بعد رصـدها من الفضـاء وذكرها فى القـرآن! وهل هـذا العلم اليقيـنى إدعـاءً للمعرفة كما يقـول البعض؟! وهو يتّبعـون الظنّ وما تهوى الأنفس على اختلاف بواعثهم.. اللهّم فاشهد .

رابعـاً: لقد تنبـأت معـادلات أينشـتين قبل نظرية الأوتـار الفائقة باحتمـال تجـاوز سرعة الضوء لجسيمات افتراضية غيبية ذات كتلة نخيلية تـدعى "التـأكيون" تمامـاً كما تنبأت الأوتار بكون سداسى الأبعـاد (متـداخل مع كوننا الربـاعى) والسـرعة فيه تفـوق

سـرعة الضـوء ولكنها لا تخضع لقياسـنا أى فى علم الغيب وليس فى عـالم الشـهادة بدليل حذف كلمتى «مما تعدّون» فى وصف الحد الأقصى للسـرعة فى عـالم الغيب فى قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِـينَ أَلْـفَ سَـنَةٍ﴾ {4 المعارج} .

وبالمقارنة بآية {5 السجدة} نجد هنا والله أعلم أن سرعة الروح خمسون مـرة قدر سرعة الضوء قبل أن تحددها نظرية الأوتار الفائقة الـتى سـتبحث فى أمـور غيبية تدعم النسبية ولا تهدمها بل تطورها لأكـون ثنائية (مرآوية ومضـادة ومعكوسة الـزمن) كما فى قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ {49 الـذريات}.. بل وتضع جسـراً جديـداً بين العلم والقـرآن وبين عـالمى الشـهادات والغيب فى مجـال موحد يـدمج النسـبية بـالكم وقـوى الطبيعة مع بعضـها ويصف لنا بداية الكـون فى انفجـار عظيم ونهايته فى انسحاق عظيم كما يقول البروفوسير مبيشيوكاكو أحد علماء هـذه النظرية الجديدة فى كتابة "ما بعد أينشيتين" .

أتوقع والله أعلم أن تكشف الأوتـار الـتى تبحث أساسـاً فى الأمـور الغيبية عن إعجـاز قـرآنى جديد فى آيـات {4 المعـارج} و{38ـ- 40 النمـل}، {1 فـاطر}، {49 الـذاريات}، {104 الأنبيـاء}، وآيـات أخـرى فى موضـوع التوحيد والسـماوات السـبع وغيرها فى أوتـار فائقة تعـزف سـيمفونية رائعة متكاملة فى عـالمى الغيب والشـهادة تسـبيحاً لخـالق الكـون عز وجل كما فى قوله تعـالى: ﴿تُسَـبِّحُ لَـهُ السَّـمَاوَاتُ السَّـبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَـبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُـونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. {44 الإسراء}.. انتهى.

وخلال هـذه الفـترة، وما أعقبها عقـدت مـؤتمرات للإعجـاز العلمى فى القـرآن ضمت عديـداً من أبـرز علمـاء الفلك والرياضـيات والأطبـاء في العـالم وقد كـان خلال أحدها أن أعلن واحد من أشهر أطباء علم الأجنة الأوروبيين إسلامه بعد أن تـرجحت له الآيات التي تحدثت عن أطوار الجنين بمجرد أن يحدث اللقاء الجنسى.

أما صـفحة الإعجـاز العلمى فى جريـدة الأهـرام يـوم الاثـنين من كل أسـبوع ويحررها الدكتور زغلول النجار فإنها مستمرة من بضع سنوات وتحظى بقبول كبير .

إننا ضد كل تعسف وتطويع للآيات القرآنية لكى تحقق غرضاً معيناً. حـتى لو بـدا نـبيلاً، ولكننا فى الـوقت نفسه من منطلق حرية الفكر لا نسـتطيع أن نحـول بين كل صاحب فكرة وفكرة. حـتى لو كـان خاطئـاً، فما بالك وهو مجتهد حسن الطرية يحـاول أن يكشف عن معبر جديد من أبعاد إعجاز القرآن ..

فلا يقفن أحد أمـام من يـدخل هـذا الميـدان ما دام يسـتخدم الحجة والبرهـان.. وليسـتمر السـجال، ولـلـذين يعارضـون أن يعارضـوا حـتى تظهر الحقيقة – وهى – كما يقولون – بنت البحث.. وهى ما تبقى فى النهاية..

بقى أن نقـول أن دعـوة الإعجـاز العلمى للقـرآن الكـريم انتعشت وتأسست لها هيئات عديدة بعضها من تكوين الدول الإسلامية، وبعضها هيئـات حـرة أو جامعية خاصة

فى مصر، والسعودية والكويت وباكستان، وتعقد هذه الهيئـات مـؤتمرات عديـدة وآخر ما وصل إلينا كتاب عن نـدوة الإعجـاز العلمى للقـرآن الكـريم نظمتها الجمعية الخيرية الإسلامية واشترك فيها لفيف كبير من أساتذة الجامعات فى فبراير سـنة 2003 (23 ذو الحجة 1423) وصـدر عنها كتـاب كما قـدم الـدكتور محمد شـوقى الفنجـرى منحة دراسية قيمتها عشرة آلاف جنية لنيل درجة الدكتوراة فى أحد مواضيع الإعجاز العلمى للقرآن ومنحة أخرى قدرها ستة آلاف جنية لنيل درجة الماجستير .

الفصل الخامس
محاولات التجديد
فى تفسير القرآن الكريم

يصــاب الإنســان بالخيبة عنــدما يراجع ما تمخض عنه أدب النهضة من معالجة قرآنية من أيام رفاعة رافع الطهطاوى حتى الحقبة المعاصـرة. نحن بـالطبع لا نطمـع، ولا نريد، مجلدات كالتى قدمها الأوائل، فإن التفاسير الحديثة التى أشـرنا إليهـا، أعـنى تفسـير المنـار وتفسـير الطـاهر بن عاشـور الخ... وتفسـير الشـيخ شـلتوت وتفسـير المــراغى وتفســير عبد الكــريم الخطيب وتفســير بن بــاديس الخ... تماثل وتفضل المجلدات القديمة، ولكننا نشـير إلى ملحظ التجديد والإبـداع الـذى قد لا نجـده إشـارة إليه إلا فى عقلانيات الشيخ محمد عبده وسط ركـام المعلومـات. وعلى كل حـال فإننا سنجد محاولات اختلف حظها من التوفيق فى تحقيق ذلك .

كنا نأمل أن نــرى دراســات جــادة عديــدة فى هــذا العصر الحــديث، ولكن من المؤسف أن العــالم العــربى والإســلامى بأســره. وقع تحت الــديكتاتوريات العســكرية والمشـيخيات القبلية الـتى تضـيق بحرية البحث، ولا تريد – بوجه خـاص – التحــرر عما جرى عليه الأقدميون فى هذا المجال بالذات. من هنا كانت الحصيلة ضئيلة .

(1)

محاولة الشيخ أمين الخولى

لعل أولى محاولات التجديد كـانت تلك الـتى قـام بها الشـيخ أمين الخـولى. وهو يجـرى فى ركـاب الرعيل الأول من رجـال الثلاثينـات والأربعينـات من القــرن الماضى رعيل طه حســين ومنصــور فهمى وأحمد أمين الخ... وقد نشأ ودخل مدرسة القضــاء الشــرعى وهو فى الخامسة عشر من عمــره فــأتم الدراسة بها بقســميها الابتــدائى والعالى بتفـوق. وكـانت هـذه المدرسة – كمدرسة دار العلـوم – قلعة من قلاع العربية والإســلام وقد تــولى نظارتها وألقى الــدروس فيها نخبة ممتـازة من خـيرة المفكـرين والعلماء والفقهاء المصريين .

وأتم دراســته فيها ســنة 1920 وعين مدرســاً بالمدرسة نفســها فى 10 مــايو 1920 .

وفى 7 نوفمــبر 1923 صــدر مرســوم ملكى بتعــيين أئمة للســفارات الأربع المصرية المنشأة فى لندن وباريس وواشنطون وروما، وكانت الأخيرة من نصيب أمين الخولى، فأبحر إليها من الإسكندرية فى 14 ديسمبر ووصل إلى برنديزى بعد ثلاثة أيام .

وبقى فى إيطاليا نحو سنتين، تعلم فيها اللغة الإيطالية حتى أجادها، وشرع يطلع على الحياة الدينية والثقافية وجهود المستشرقين فى أوروبا .

ونقل إلى مفوضية مصر فى برلين فى أول يناير 1926 بسبب أزمة دبلوماسية أثارها تعلم اللغة الألمانية، وجعل منها ومن الإيطالية وسيلته إلى المعرفة الأجنبية .

ولما ألغيت وظيفة الإمامة من السفارات والمفوضيات المصرية فى سنة 1927 عاد إلى مصر، واستأنف عمله الذى كان قد تركه فى مدرسة القضاء الشرعى فى 19/3/1927 وفى 1928 أغلقت مدرسة القضاء الشرعى أبوابها، فانتقل فى 3 نوفمبر إلى قسم اللغة العربية من كلية الآداب بالجامعة المصرية (القاهرة الآن) مدرسا ثم أستاذا مساعدا فى 4/4/1937 ثم أستاذا لكرسى الأدب العربى فى 17/2/1943 وفى 19/10/1946 نقل إلى كرسى الأدب المصرى فى العصور الإسلامية. وآل به التدرج فى الكلية إلى أن صار رئيساً لقسم اللغة العربية، ووكيلاً للكلية فى 13/5/1946 .

وفى 1953 احتدمت الخلافات فى الكلية فأدت إلى تشتيت جماعة من هيئة التدريس. فعين أمين الخولى مستشارا فنيا لدار الكتب فى 12/6/1953 ثم مديراً عاما للثقافة إلى أن أتم الخدمة الحكومية فى أول مايو 1955، فأحيل إلى التقاعد. وفى أثناء عمله بكلية الآداب انتدب للتدريس فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية، وفى كلية أصول الدين بالأزهر، وكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سنة إنشائها، ومعهد فن التمثيل العربى والموسيقا المسرحية، ومعهد الدراسات العليا. وعين عضوا فى مجلس كلية أصول الدين، والمجلس الأعلى لدار الكتب. وفى الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء التاسع من مارس سنة 1966، رحلت روحه عن الدنيا، وعاد جسده إلى قريته شوشاى .

إن هذا السجل قد يعيد إلى الذهن ذكرى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى دخل باريس إماماً للبعثة، فتأثر بالحضارة العصرية وحاول إقامة جسر ما بين الإسلام، وحضارة العصر وإن لم يقدر للشيخ الخولى القيام بالأعمال التى قام بها رفاعة رافع الطهطاوى .

كان لهذه الثقافة المتنوعة، إلى جانب مواهبه الخاصة – أثرها إذ جاءت محاولاته تحمل طابعاً من الجدة والأصالة وكانت النقطة الجديدة فى معالجته للتفسير أنه دعا إلى **تفسير يستشف البلاغة النفسية المؤثرة فى القرآن** وانتقد الطريقة التقليدية القديمة فى التفسير، وقال "فصواب الرأى فيما يبدو أن يفسر القرآن موضوعا موضوعا لا أن يفسر على ترتيبه فى المصحف الكريم سورا وقطعا، ثم إن كانت للمفسر نظرة فى وحدة السور وتناسب آياتها واطراد سياقها فعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفى للموضوعات المختلفة" مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص307 – القاهرة 1961 .

والحق أن الشـيخ أمين الخـولى أراد تحقيق أمل طمـوح هو تقـديم منهج جديد للتفسير أطلق عليه "المنهج الأدبى للتفسير" ولعله قد ظلمه بهذه التسمية لأن المنهج كما وضع أصـوله يقـوم على: (1) دراسة طبيعة شـبه جزيـرة العـرب وتاريخها ولغاتها وثقافتها قبل الإسلام. (2) والتأريخ للقـرآن ككتاب. (3) تصنيف القرآن موضـوعيا. (4) ترتيب سور القـرآن وآياته تاريخيـا. (5) دراسة الموضـوع المـراد تفسـيره دراسة تبـدأ بالمفردات وتنتهى بالمركبات مع العناية بالجانب النفسى والاجتماعى"[(74)] .

وأهم ما يمكن أن يثمـــره التفســـير الموضـــوعى هو محاولة إدراك النظرة الكلية للقـرآن، أو المفهـوم القـرآنى أو الفكر القـرآنى – أو فى كلمة – الموقف القرآنى بالنسبة إلى كل ما تناوله القرآن بحديثـه. وهـذا ما يصـــعب أو يســـتحيل التوصل إليه بالتفســـير التقليـــدى – ســـورة.. سورة" ..

ومن الجـدير بالـذكر أن بعض القـدماء عـنى بمعالجة بعض موضـوعات القـرآن كالخصاص فى كتابه "أحكام القرآن" وابن القيم الجوزية فى كتابه التبيـان فى أقسـام القــرآن" الــذى درس فيه موضــوعاً واحــداً هو "القســم" فى القــرآن. ولكن هــذه المعالجـات لم تكن منهجـاً عامـاً، وبالتـالى فإننا – كما يـذهب إلى ذلك الشـيخ أمين الخولى، لم نحصل – على سبيل المثال – على المفهوم القرآنى الخاص المحدد لبعض العلاقـات الأسـرية مثل الأبـوة، أو الأمومة**. أو البنـوة أو الأخـوة، أو كظـاهرة اجتماعية مثل الطبقية أو لقـوة اقتصـادية مثل العمل الخ... بل لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إننا لم نحدد بعد المفهوم القرآنى الخـاص المحـدد لفكرة الألوهية نفسها، وهى الفكرة الجوهريـة،** لا فى الإسـلام وحـده، ولكن فى كل دين من الأديان. ولا شك أن خلو التفسير من ذلك وغيره يرجع بالدرجة الأولى إلى انه لم يخطر له أن يتخذ الموضوع الواحد أساساً فى دراسة القرآن وفهمه" انتهى .

ومن الواضح أن النهوض بهذه المهمة تتطلب أعماراً، لا عمـراً واحـداً تنـذر لهـا، ولم ينــذر الشــيخ الخــولى عمــره لهــا. ولــذلك فإنه اقتصر على معالجــات لبعض الموضــوعات ذات الصـــلة بـــالمعنى الأدبى أو النفســى. بينما عـــالج بعض تلامذته موضوعات معينة، فالدكتور محمد شكرى عياد عالج موضوع "اليـوم الآخر فى القـرآن الكريم" كما عالج تلميذه الآخر الـدكتور محمد خلف الله موضـوع "الفن القصصى فى القرآن الكريم" أما قرينته وخليفته الدكتورة عائشة عبد الرحمن – بنت الشاطئ "فقد نحت عند تطبيقها للمنهج نفسه تحت عنـوان "التفسـير البيـانى" منحى آخر عنـدما لم تلتزم موضوعاً واحداً بعينه، ولكنها اختارت بعض قصار السـور المكية الـتى يلحظ فيها وحدة الموضوع من حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية .

---

74 **(74) أنظر بحثاً للدكتور عبد الله خورشيد بعنوان "التفسير الأكـاديمى" هـوامش على المنهج الأدبى للتفسير "فى مجلة الثقافة العدد نوفمـبر 1975 ص20، وقد اعتمدنا عليه فيما جاء بهذه النبذة .**

ولما كانت الموضوعات الرئيسية فى القرآن. كما يـرى ذلك كـاتب التعليق على منهج الشيخ، الذى اعتمدنا عليه فى هـذه الفقـرة هى الإنسـان والمجتمع والطبيعة وما وراء الطبيعة، فإن من الممكن إذا درس كل موضوع من هذه الموضوعات على حـده، أن تقدم لنا فى مجموعها "تفسيراً" للقرآن يختلف كل الاختلاف عن التفاسير التقليدية .

والأصل الثانى الهـام فى المنهج الـذى أراده الشـيخ أمين الخـولى هو "الـترتيب التاريخى" وهنا نصطدم بقلة المعلومات وتضارب الروايات ولكن هذا لا يمكن أن يقف أمـام البحث الـدؤوب، والمقارنة الدقيقـة، فضـلاً عن أن لـدينا بالفعل ترتيبا تاريخيـاً للقرآن ينسب إلى على بن أبى طالب وإلى ابن عبـاس. وعلى كل حـال فـإن الـترتيب التـاريخى لن يقـوم إلا بـدور تكميلى أو إيضـاحى، لأن الدراسة الموضـوعية هى الـتى ستقدم لنا الفكر القرآنى. انتهى"

ونحن نرى أن مثل هـذا المنهج مـدخل جديـد، وهـام ولعله أقـرب المسـالك إلى إيضـاح الفكر القـرآنى، ولكن ثمة شـىء يحيك فى النفس عن الطريقة الـتى طبق بها الشيخ وبعض تلاميذه هذا المنهج، ولمسها كاتب التعقيب والدراسة عندما جعل عنـوان دراسته "التفسير الأكاديمى" وعندما استشهد – أو بمعنى أدق – اعتمد على ما قـام به المستشــرقون وليم مــوير ونولدكة فعنــدما نقــرأ دراســاتهم لا نحس بتلك العاطفة الدافئــة، المتدفقة الـتى تتملك المســلم عند اقترابه من القــرآن. وافتقــاد مثل هــذا الإحساس قد يفسح المجال لخروج أو انحراف أو اجتهاد خاطئ. فالقرآن كتاب مقدس هذه طبيعته، وهذه حقيقته، ولابد أن يعالج على هذا الأساس. ولعل الاستثناء البارز من هذا هو الدكتورة عائشة عبد الرحمن الـتى نلمس فيها هـذا النبض، أما معظم البـاقيين فإنهم يعالجون القرآن معالجتهم للنصوص متأثرين فى هـذا بمـذاهبهم اللغوية وبجهـود المستشرقين .

ومن المؤكد أن الشـيخ ومؤيديه لو مضـوا فى "الـترتيب التـاريخى" لما توصـلوا إلى أفضل مما توصل إليه المستشــرقون ولضــلوا الطريق ما بين متاهــات "علــوم القــرآن" وما بين شــذوذ الحداثة وانحرافاتها فنقطة الإبــداع هى محاولته التفســير "النفسى" وفكرة الدراسة الموضوعية، وبالنسبة للموضـوعات الـتى أرتاهـا، فهـذا كله مدخل سليم للتعرف على القرآن، وإن لم يكن جديـداً تمامـاً وفـات الجميع أن تـرتيب القــرآن الموجـود بين أيـدينا إنما يمثل الـترتيب الـذى قـام به الرسـول فى مراجعته الأخيرة، وأشرنا إلى ذلك فى حينه .

(2)

الدكتور محمد شحرور وكتابه "الكتاب والقرآن"

أمضي د. محمد شـحرور الحاصل علي درجة الـدكتوراه في الهندسة من جامعة كــامبردج. قرابة خمسة وعشــرين عامــاً في البحث والتقصي ليخــرج كتابه الضــخم "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة" .

إنه جهد صـادق ومضـن.. يحـدوه الأمل في الخـروج بـالفكر العـربي والفقه الإسلامي من أزمته الخانقة والتوصل إلي استنباط منهج مبتكر في كيفية تنـاول كتـاب الله بالدراسة والفهم الموضـوعيين ويشـرع د. شـحرور ومنذ الصـفحات الأولي في نقـاش المفـاهيم المتوارثة الـتي ترسـخت في العقل المسـلم كمسـلمات أخـذت عن علماء السلف دون تمحيص رغم أنهم أبدعوها في ضوء الأرضية المعرفية السـائدة في عصرهم الأمر الذي يطبعها بطابع النسبية الزمانية والمكانية .

ينطلق البـاحث من منطلق أن الكتـاب الكـريم وحي من الله ويـبرهن علي ذلك بأنه :

"يحمل الطـابع المطلق في محتـواه لأن الله مطلق كامل المعرفة ولا يتصف بالنسبية .

ويحمل الطابع النسبي في الفهم الإنساني بما يتفق مع حقيقة التطور في الفكر الإنساني مما يكفل لكتاب الله استمراره كهدي للناس في كل عصر

ويحمل الطـابع الخـاص في الصـياغة لاحتوائه المطلق الإلهي في المحتـوي والنسبية الإنسانية في فهم هـذا المحتـوي وهي صـياغة معجـزة لا يسـتطيعها الإنسـان تسمح بتعدد التأويل علي مر العصور **ولهذا فالكتاب لا يعد تراثاً إنما التراث هو الفهم الإنساني النسبى له" .**

واعتمد البـاحث في قراءته لكتـاب الله علي المنهج اللغـوي لأبي علي الفارسي والمتمثل بالإمامين ابن جني وعبد القادر الجرجـاني، وعلي آخر ما توصـلت إليه علـوم اللسـانيات الحديثة من نتـائج علي رأسـها أن كل الألسن الإنسـانية – بما فيها اللسـان العـربى – **لا تحتـوى خاصـية الـترادف** بل إن الكلمة إما أن تهلك عـبر التطـور التاريخى أو تحمل معنى جديداً مع عبارة ثعلب الشهيرة "ما يظن فى الدراسة اللغوية من المترادفـات هو من المتباينـات" ولـذا أختـار معجم "مقـاييس اللغـة" لابن فـارس مرجعاً لتحديد فروق معانى الألفاظ التى اختصها بالبحث .

والباحث لا يقدم فى كتابه تفسيراً للقرآن فهو يرى أن القـرآن يـؤول ولا يفسّـر حيث التأويل هو ما تنتهى إليه الآية من حقيقة أو قانون عقلى نظـرى، وهـذا ما يسـمح به النص المتشابه المعجز الذى يمكن إعجازه فى ثباته مع حركة محتواه ونسبية فهمه الأمر الذى يعـنى أن الـوحى لا ينـاقض العقل ولا يتنـاقض مع الحقـائق ومن ثم يطـابق المحتوى كل الأرضـيات المعرفية المتطـورة إلى أن تقـوم السـاعة. الأمر الـذى يجعل إعجازه غير قاصر على الجمال البلاغى فقط أو على العرب فحسب .

وفى عجالة نعرض أبرز ما توقف عنده الباحث من آيات ومن ثمَّ نتائج بحثه .

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. {7 آل عمران}.. يفرّق الباحث أولاً بين النبـوة والرسـالة فـالنبوة علـوم أى: مجموعة معلومات وأخبـار وهى الآيـات المتشـابهات الـتى تحتـوى المطلق الإلهى

فى المحتـوى والنسـبية فى الفهم البشـرى لها والـتى أطلق عليها الكتـاب الكـريم مصطلح القرآن والسبع المثانى. أمّا الرسالة فهى أحكام أى: مجموعة من التشريعات وهذه هى الآيات المحكمات القابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ما عـدا العبـادات والأخلاق والحـدود وقد أعطاها الكتـاب تعريفـاً خاصـاً هو "أم الكتـاب" وهناك آيات لا محكمات ولا متشابهات أطلق عليها مصطلح "تفصيل الكتاب"

وطبقـاً لما سـبق يـرى البـاحث أن آية الإرث – مثلاً – ليست من "القـرآن – النبوة" ولكنها "أم الكتاب – الرسالة" بل من أهم أجزاء الرسالة وهى الحدود ولا ينفى هذا أنها من عند الله. لكن الباحث ينفى أن أم الكتاب والقـرآن اسـمان لمسّـمى واحد وللبرهنة على ذلك يورد البـاحث قوله تعالى : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُـرْآنٍ مُبِينٍ﴾. {1 الحجر}.. مبيناً أن القرآن إما أن يكون شـيئاً آخر بحيث يكـون عطفهما للتغـاير، أو أن يكون جزءاً من الكتاب وعطفهما من باب عطف الخاص على العام وينّبه البـاحث إلى أنّ «كتب» تعـنى جمع أشـياء بعضـها مع بعض لإخـراج معـنى مفيد أو موضـوع متكامل ولذلك فمن الخطأ أن تفهم كلمة كتاب عنـدما تـرد فى المصـحف أنها تعـنى موضـوعاً واحداً ككتاب الخلق والساعة والصلاة... بينما تعنى إذا جـاءت معرّفة ب الــ "الكتـاب" مجموعة هذه المواضيع .

يرى الباحث أن البينة فى اللسان العـربى تعـنى الـدليل المـادى القابل للإبصـار والمشاهد وأنها كانت معجـزة خارجة عن الرسـالة عند موسى وعيسى عليهما السـلام الخ... أمّا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أعطى "آيـات بينـات" هى جـزء من النبـوة القـرآن. يكـون التأويل النهـائى لها هو تحوّلها من علم إخبـارى إلى علم نظـرى يدعّمه العلم الحسّى الأمر الذى أغفله العلماء المتقدمون عند وضعهم قواعد التأويل .

ويتوقف الباحث عند ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلاً ثَقِيلاً﴾. {5 المزمـل:}.. رافضـاً المعـنى السـائد للترتيل وهو التـألق فى التلاوة ومبينـاً أن الأصل اللغــوى "للترتيــل" هو التنســيق والتنظيم وأن القــول الثقيل ليس ثقيل النطق وإنما المقصود وعورة الفهم مما يتناسب مع الترتيل الذى هو ترتيب وتنسيق الآيات الـواردة فى موضوع واحد حتى يسهل فهمها .

وكمثـال على إتباعه قاعـدة الترتيل هـذه نعـرض ما توصّـل إليه من نتـائج فى تأملاته للقصص القرآنى الذى يرى أنه يشير إلى خط تطور التاريخ الإنســانى بالمعرفة والتشـريع. حيث يـرى أن نـوح عليه السـلام هو أول بشر يتصل بالسـماء وأنه وبه بـدأ الإنسان الحديث حيث امتلك الإنسان لغة مجـردة بأبسط صـورها {163 النسـاء - 63 الأعراف – 10 إبراهيم}.. وقد اقتصرت رسالته على التوحيد والاسـتغفار فقط وواجهه قومه بالكفر والنكران وكانت نبوّته قفزةً نوعبةً على سـلّم التطـور من الناحية العلمية للإنسان ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. {62 لأعراف}.. وشملت نبوته تعليم البشرية ركوب الماء بواسطة ربط الخشب بالآليات الطبيعية {13 القمر}.. ويتضح من الآيـات ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَـوْمَ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْـرَقِينَ﴾. {43 هود}.. أن المنطقة الـتى سـكنها نـوح

وقومه منطقة محاطة بالجبال تعرضت لتيار مائى قـوى بـدا موجه كسلاسل الجبـال { 42 هود}.. وجاءت إشارة الطوفان متمثلة بنشاط أحد الـبراكين الخامـدة {40 هـود} فركب نوح ومن الفلك ثم طرح السيل جثث قوم نـوح ورماها فى فوّهة البركـان {20 نـوح} فقد أسـتعمل فى الآية فـاء السـببية والتعقيب بين الغـرق وإدخـال النـار ويلاحظ الباحث أن النار ذكرت نكرة مما يعنى أنها ليست نار الآخرة .

وتضمن الوحى إلى نوح عليه السلام التبشير بالبنيان والاستقرار وتـذليل الأنعـام ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾. {12 نوح}.. حيث يرى الباحث أن المال لا يعـنى النقد وإنما هو من الفعل "مول" وتعنى أدوات الإنتاج البدائية وطبقاً للقاموس فالخروج إلى المال يعنى إلى الضياع والإبل. كما أن البنين لا تعـنى الأولاد الـذكور ولكنها من الفعل "بـنى" الذى يعنى الثبات والإقامة وتلك حقيقة البنيان والأبينة .

ويرى البـاحث أن نبـوة نـوح عليه السـلام تمثل تنمية المـدارك العقلية للإنسـان بتوجيهه للتفكــير فى الكــون من حوله {13/14/15 نــوح}.. كما تمثل بداية العبــادة التجريبية والاستغفار {7/4/28 نوح}.. وبداية وترسيخ مفاهيم البعث والجزاء {17/18 نوح}.. كما تشير الآيات إلى بداية ظهور التمـايز الاقتصـادى والاجتمـاعى ووجـود مبـدأ الأجر والاستخدام { 72 يونس – 109/111الشعراء – 27 هود} .

ويتوقف الباحث عند قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾. {16 الإسراء}.. مبيناً أنها من القرآن النبــوة وأنها تحـوى قانونـاً اجتماعيـا، الأمر الـذى يـدل على احتـواء "القـرآن" على القـوانين الموضوعية الفاعلة خارج الـوعى الإنسـانى حيث يـرى أن المـترفين هو أدق مصـطلح يمكن أن ينطبق على كل طبقة بيدها مقاليد الأمـور ولها من الامتيـاز مـالا يتـوفر لبقية الناس بغض النظر عن العنوان المرفوع لهذا المجتمع حيث لا يهتم القرآن بالشعارات. والفعل أمر له خمسة أصول أحدها بمعـنى الزيـادة والنمو أى عنـدما يصـبح المـترفون طبقة يؤدى هذا الوضع إلى الفسوق ثم إلى دمار المجتمع .

قوله تعـالى ﴿نَـزَّلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ وَأَنْـزَلَ التَّوْرَاةَ وَالأِنْجِيلَ(3) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْـزَلَ الْفُرْقَـانَ﴾. {4 آل عمـران}.. توقف البـاحث أمام هذه الآية يتعجب أشد العجب كيف ظن المفسرون أن الذى بين يديه هما التـوراة والإنجيل الأمر الـذى يـؤدى إلى قصم ظهر نبـوة محمد فقد جــاء الكتــاب إلى محمد ناسخـاً لما قبله لا مصـدقاً بالمعنى المعهود ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَـدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾. {50 آل عمران}.. التى تعنى أن رسالة عيسى هى رسالة موسى مع بعض التعديل. إنّ بين يديه تعــنى الحاضر لا الماضى الــذى يشــير إليه ﴿مِنْ قَبْــلُ هُــدىً لِلنَّاسِ﴾. {4 آل عمران}.. والشىء الوحيد الذى كان موجوداً وقت نزول القرآن ويحتاج إلى ما يصدقه هو الرسالة "التشريعات" فالقرآن جاء مصدقاً لأم الكتاب وهى التى سمّها الله "كتاب الله" .

ولضيق المجـال هنا نـذكر بعض المفـاهيم الـتى توصّـل إليها البـاحث فى عجالة

شديدة .

الذكر: الصيغة القرآنية أى تحول القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربى.

الفرقان: الوصايا العشر التى جـاءت إلى موسى وعيسى عليهما السـلام ثم إلى محمد {151 -153 الأنعام} بالإضافة إلى فرقان خاص لمن يريد زيادة فى التقـوى { 63/74 الفرقان}

كلمــات اللــه: هى المــدلولات نفســها فكلمة الشــمس بالنســبة لله هى عين الشمس فكلمات الله هى عين الوجود ونواميسـه. لأن الله أحـادى فى الكيف الله أحد "واحد فى الكم "هو إله واحد" .

السـبع المثـانى: هى سـبع آيـات كل منها فاتحة لسـورة حيث المثـانى تعـنى الأطراف حسب الأصول اللغوية وبعد أن يـورد هـذه المثـانى يعلق بأنها مقـاطع يتـألف منها أصل الكلام الإنساني وليس العربى فقط .

الروح: الظن السائد بأن الـروح هى سر الحيـاة العضـوية بعيد عن مفهومها فى كتاب الله ولقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن البحث فى أصل الحياة والإنسـان والأنـواع ثم يستعرض آيات الوفاة والموت فلا يجد للروح ذكـراً بل النفس فـالنفس هى الـتى تحيا وتموت والله تعالى أعطانا الـروح من ذاته وليس من المـادة الكونية المكونة للإنسـان ولذلك سمّى الأحكام روحاً وجبريل روحاً لقيامه بحمل أوامر الله ونواهيـه، لأنها ليست حقيقة مجسمة وإنما سلوك واع .

الفقه والسُنة :

يــرى البــاحث أن رســالة محمد تتــألف من: الحــدود – العبــادات – الأخلاق – التعليمات ذات الطابع الخاص أو العام – التعليمات ذات الطابع المــرحلى. ولقد توصل الباحث إلى نظرية جديدة تماماً فى رؤيته لأسس التشريع الإسلامى مبنية على صفتين للدين الإسلامى وهما الاستقامة والحنيفية وقد كان إبراهيم (عليه السـلام) هو أول من أدرك أن كل شئ حـنيف أى متغـير ما عـدا الله سـبحانه حيث "الحنـف" تعـنى الميل والانحراف قليلاً. ويرى الباحث أن صـلاحية الـدين الإسـلامى لكل زمـان ومكـان تكمن بهــذه الحركة الجدلية بين الاسـتقامة والحنيفية الـتى تكسب التشـريع تطـوره الـذى يناسب ما تفرزه التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية ومن ثم فالإنسان فى احتياج إلى ثوابت «الصراط المستقيم» لتشـكّل بـدورها علاقة جدلية مع المتغـيرات {30 الـروح} دونما انتهـاك لحـدود اللـه. وقد أعطانا الله حـالات الحـدود جميعـاً فى شـكلها الأعلى والأدنى وفى حالة المستقيم. ولا يجوز تجـاوز هـذه الحـدود ولكن يسـمح بالحركة بينها وكمثـال: حد السـرقة قطع اليد هـذا هو الحد الأعلى للعقوبة ومن ثمَّ يمكن أن تكـون العقوبة أقل من القطع وفقاً للظروف الاجتماعية .

أما عن السنة النبوية فيري د. محمد شحرور أن ما اصطلح علي تسميته بالسنة النبوية إنما هو حياة النبي كنبي وكـائن إنسـاني عـاش حياته في صـميم الواقع السـائد

في شبه جزيـرة العـرب بكل ما كـان يحيط بها من ظـروف جغرافية وتاريخية وثقافية وسياسية وليس في عالم الوهم وأنه لم يؤثر عن الصحابة أنهم اعتبروا أحـاديث النـبي وحياً في وقت من الأوقات والنبي من جهته لم يجمع كلامه رغم أمـره بتـدوين الـوحي بكل دقــة. إن مقولة العلمــاء بــأن ذلك يرجع إلي خشــية النــبي من اختلاف الــوحي بالحديث مقولة خاطئة تناقض قوله تعالي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحَـافِظُونَ﴾. {9 الحجر}.. إن الســبب الحقيقي هو معرفة الرســول وصــحابته رضــوان الله عليهم أن الحــديث مرحلة تاريخية وأن ما فعله النــبي في القــرن الســابع كــان الاحتمــال الأول لتفاعل الإسلام في مرحلة تاريخية معينة ولكنه ليس الاحتمـال الأخـير وبما أن رسـالته تقوم علي خاصية الحدود فقد كـان الرسـول هو الوحيد الـذي سـمح له بالاجتهـاد لكي يعلم الناس أن يجتهدوا من بعده. ذلك الدرس الذي وعاه جيداً عمر بن الخطــاب ومن ثم فالســنة تمثل الجــانب النســبي في الإســلام في مقابل المطلــق.. الله جل جلاله ووحيه حيث أخذ الرســول المطلق – الحــدود من الرســالة وحولها إلي عــالم الحقيقة النسبي وهذا هو السـبب المحـوري في حـرص النـبي وصـحابته علي الـوحي الـذي هو المطلق أما الباقي فمتروك للإنسـان في سـياق الـزمن فلا قـوالب جـاهزة ولا توقيف لحركة التاريخ .

* * *

ولاشك أن كتاب الدكتور شحرور يمثل محاولة توفر لها الإخلاص والعلم والدأب والرغبة العارمة فى تفهم آفاق القرآن الكـريم ولهـذا فإنه اتسم بالأصـالة وتوصل إلى ما لم يتوصل إليه غيره .

وقد طبع الكتاب طبعات متعددة وتعرّض لموجة من الهجـوم لم تقم على أسس علمية أو تأخذ صـفة موضـوعية، وجـاء هـذا الهجـوم من معسـكر فقهـاء التقليد ومن معسكر أدعياء التنوير. فالفريق الأول رأى فيه خروجاً على المسلمات والفريق الثـانى عز عليه أن يعترف بـاحث على هـذه الدرجة من الـذكاء والثقافة بموضـوعات الألوهية وبالقرآن كوحى من الله، وهم يرون أن هذه موضوعات "قابلة للمناقشــة"، ومعظمهم يميل للحيف عليها، إن لم ينكرها ..

ومع إعجابنا الكبـير بالكتــاب ومؤلفه فـإن هــذا لا يمنع من القــول بــأن تمسّــك المؤلف بالمنهج اللغوى ودلالة الألفـاظ وأصـلها فى قـواميس اللغـة، أدى به إلى بعض التفسيرات المجافية للسياق القرآنى. كما فى تعريفه للمال والبنين وتفسـيره الآيـات. ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَـاعْتَزِلُوا النِّسَـاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُـوهُنَّ حَتَّى يَطْهُــرْنَ فَــإِذَا تَطَهَّرْنَ فَــأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَــرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ. نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِـئْتُمْ وَقَـدِّمُوا لأَنْفُسِـكُمْ وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. {222 البقـرة}.. إن كلمة "النســاء" فيها جمع نسئ أى المتــأخر والمســتجد ويصــبح معــنى الآيــتين أن الأشــياء المســتجدة وهى من الأشياء المادية التى يحب الناس جمعها وكسبها قد أباح لنا الله اسـتعمالها مـتى وكيف نشاء. وقد استعمل صيغة الجماعة "حرث لكم" للدلالة على الذكور والإناث معاً .

وفى تعريفه كلمة "جيـوبهنَّ" الجيب جـاء من جيب وتعـنى فتحة لها طبقتـان لا طبقة واحدة لأن الأسـاس فى فعل "جيب" فعل "جـوب" وتعـنى فى اللسـان العـربى الخرق .

وبهـذا نعـرف أن الجيـوب فى المـرأة هى ما بين التـديين والإبطين والفـرج والآليـتين ويجب على المـرأة المؤمنة أن تغطيها وذلك هو الحد الأدنى للبـاس المـرأة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُـوبِهِنَّ﴾. {31 النـور}.. والخمـار من "خمـر" وهو الغطـاء. والنبى وضع الحد الأعلى للباس المرأة بقوله "كل المرأة عورة ماعـدا وجهها وكفيهـا" فإذا خرجت المـرأة عارية فقد خـرجت عن حـدود الله وإذا خـرجت دون أن يظهر منها شئ حـتى وجهها فقد خـرجت عن حـدود رسـول الله وربما يسـأل البعض أليس الفم والأنف والعينـان من الجيـوب؟ نعم ولكنها جيـوب ظـاهرة فى الوجه ورأس الرجل والمرأة أظهر فيهما وهو هوّية الإنسان .

وكذلك تفسيره ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ {31 النور}.. فإن الضرب هو السـير، من أنّ ضـرب فى اللسـان العـربى لها أصل واحد ثم يسـتعار ويحمل عليه وأول معنى محمول عليه هو الضـرب فى الأرض بغـرض العمل والتجـارة والسـفر كقوله تعـالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا ضَـرَبْتُمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُـوا﴾. {94 النساء} ..

و "القلب" عند الـدكتور شـحرور هو المخ ولا يثنيه أن يضـعه القـرآن فى الصدور.أما الشهر فى سورة القدر فليس المقصـود به شـهر رمضـان ولكنه "إشـهار" القرآن .

كما أن المقصـود بقوله تعـالى ﴿فَلا أُقْسِـمُ بِمَوَاقِـعِ النُّجُـومِ **(75)** وَإِنَّهُ لَقَسَـمٌ لَـوْ تَعْلَمُـونَ عَظِيمٌ﴾ {76 الواقعة}.. فهم أسـرار مواقع النجـوم فى الكتـاب كله وهى الفواصل بين الآيات وليس مواقع النجوم فى السماء حسب المفهوم الشـائع على كل حال .

نقول: إن كلام الدكتور شحرور فى هذا كله مما لا يستقيم ..

وقد احتفلنا بالـدكتور وكتابه هـذا الاحتفـال لأنه يمثّل المثقف المسـلم والمفكر الـذى يبـدأ من منطلق إيمانه بالله وكتابه ورسـوله ولكنه يعمل لكى يسـتخرج منه ما يوحى به العقل السليم والفكر المستقيم فنجا بذلك من التـأثير بنظـرة المستشـرقين وزخرف قولهم الذى خضع له وتأثر به كثير من المثقفين المسلمين المعاصرين فذهبوا إلى أن القرآن من "التراث" وعاملوه كما يعامل أى كتاب تـراثى فضـلّوا وأضـلّوا، مما سنشير إليه فى الفقرة التالية :

إن نقـدنا لبعض ما جـاء فى الكتـاب لا ينفى ما بـذل فيه من جهد وما اتسم به أصالة .

(3)

مدرسة المستشرقين وما بعد الحداثة

أدت التطــورات الســريعة للفكر الأوربى إلى ظهــور آراء ومــذاهب تختلف كل الاختلاف عما كان عليه الأمر قبل خمسين عاماً. ولم تعد عقلانية "ديكارت" الـتى كـان يفخر بها طه حسـين وأقـام عليها شـكوكه فى النصـوص القرآنية تعـنى شـيئاً بعد أن استبعدت ودفع إلى الصدارة بنيتشه وأفكـاره ذات الطـابع النفسى وليس العقلانى كما اســتخدم فرويد وطريقته بحيث ظهر علم تحليل "نفس للمعرفـــة" يماثل علم تحليل نفس الإنســان الــذى وضــعه فرويــد، ويهــدف مثله إلى الإيغــال فى عــوالم اللاوعى والمنـــــاطق المجهولة وأظهر تحليل نيتشه لعملية المعرفة أنها محض سلســــلة من الاستعارات مما يجعل إدعاء المعرفة مستحيلاً فهى استعارات تتحـرك من الشىء إلى الذهنية ومن الصـورة إلى اللفظ الـذى يتضـمن تعبـيراً عن حالة الفـرد المزاجية ومن هذه الحالة إلى اللفظ الذى يفرضه العرف الاجتماعى على أنه صـحيح ثم مـرة أخـرى من هذا اللفظ المقنن إلى الشىء الذى لا ندرك منه إلا أكـثر الملامح قابلية للاسـتعارة بسـهولة فى قـاموس المفـردات الـتى ورثناها وفى النهاية تتحلل الحقيقة "ويمــوت الله"!![75] .

وقد يوضح هذا التطور النص التالى المقتبس من أحد النقاد العرب المتخصصين فى هذا المجال وهو الأسـتاذ على حـرب فى كتابه "نقد الحقيقـة" "كـذلك شـأن النص الفلسـفى فقد تبـدلت النظـرة إليه وبـات هو الآخر مفتوحـاً على الاختلاف والمغـايرة وانفتاح النص الفلسفى على ما ليس هو يـتيح لنا عقله ينسخ من اللامعقـول والخيـالى ويقوم على الحجب والخداع اللامعنى والفـراغ فعلى هـذا النحو صـارت تقرأ النصـوص لدى نيتشه أو ماركس أو هيدغر أو التوسير أو فوكو أو دولـوز أو دريـدا وأمثـالهم وذلك كل حسب منهجه إذ لكل قـراءة منهجـاً فى البحث والتحقيـق، فلقد بين نيتشه بمنهجه الأصولى اللغوى وهو يبحث فى أصول المفـاهيم أن الحقيقة الفلسـفية هى نسـيج من الاستعارات والتشبيهات وأن النص هو شفرة مفـاهيم مؤلفة من تنضـيد دلالى وتـراكم مجازى وتوظيف خيالى. وبيّن هيـدغر بمنهجه الظهـورى التـأويلى وهو يبحث فى كيفية نشوء المرويات أن القول الفلسفى يخدع ويتستر على مالا يقولـه. وأن مــالا يقوله هو الذى يحض على التفكير به لإعادة بنائه واستكشاف ما لم يفكر فيه وما لم يقلـه. وبين ألتوسير بمنهجه التشخيصى وهو يعيد قـراءة أعمـال مـاركس أن للنص أعراضه وزلاته وأن له صـمته وفراغه بحيث يكـون لـدينا دومـاً مـالا يـرى داخل حق الرؤية ذاته وبين فوكو بمنهجه الأثـرى وهو ينقب عن أنظمة المعـارف ويحفر فى طبقـات النصـوص أن الخطاب يمارس ضـرباً من الرقابة على الحقيقة ويقـوم بـإجراءات منع واسـتبعاد مما يجعل قول الحقيقة أقل حقيقة مما يـدعى وبين دولـوز بمنهجه البـنيوى وهو يبحث عن

---

[75] **(75) نهاية الحداثة بقلم جيانى فـاتيمو ترجمه وليد الخشـاب مراجعة وائل غـالى مجلة القاهرة أبريل سنة 93 ص124 .**

كيفية تشكيل المعنى أن المعنى ليس صـورة ولا هو ماهية ولكنه نسق تتغـير عناصـره وتتعدد مراكزه وتكثر انزياحاته مما يعنى أن الشىء الذى يعنى بذاته بل بموقعه ونسبه واختلافه وأخـيراً فلقد بين دريـدا بمنهجه التفكيكى وهو يسـعى إلى تفكيك المعـنى أن النص ليس ساحة بيانات بل ساحة تباينات وأنه مجال للتـوتر والتعـارض وحـيز للتبعـثر والتشتيت وذلك حيث يتولد دوماً عن القراءة تفكك المبـنى وانفجـار المعـنى وتشـظى الهوية"[(76)] .

وليس فى هذه التطورات أية محاولة للبحث عن حقيقة أو للاهتـداء إلى أصل أو استخدام للعقل للفصل بين حق وباطل. صحيح وزائف. إنها إحـدى عربـدات الحضـارة الأوربية فى مجـــال البحث والتحقيق وقد انفسح لها المجـــال فهيمنت روحها – وهى الانطلاق – ومضت على غلوائها للانطلاق فى حد ذاته وبـــدون هـــدف معين لأن هـــذا الانطلاق هو من روح الحضارة الأوربية. وقلما تنتهى هذه المناهج المنفلتة إلى حقيقــة، وهى تخضع للهوى وللتقدير الذاتى ويُخدع أصـحابها بمختلف ما يطـرأ لهم ويعـرض من سُبل للانخداع كما يخدع الجيولوجى فى أثر أو عالم النفس فى تفسير سلوك الأطفال أو عالم الاجتماع فى بحثه عادات وتقاليد القبائل البدائية الخ ...

وهى توقف "النص" كما يقف بـرئ أمـام محقق يـرفض تمامـاً كل ما أمامه من أقوال ويفضل أن يتسقط الصـغيرة والكبـيرة والشـبه والعـوارض.. إلخ ويتبـنى منها ما يهديه إليه فكـره هـو..!! وهى فى حقيقة الحـال الصـورة الحديثة للسفسـطة اليونانية القديمة بيد أنها مدجّجة بمزيد من المفـاهيم الـتى تسـوغ لها الهـدم والتفكيك والحفر دون أن تصل إلى طائل أو تعنى بسد ما حفرته وإعادة الركام الذى استخرجته .

فكل هؤلاء كان الباطل الذى جاءوا به أكثر من الحق الذى اهتدوا إليه .

* * *

إذا كـان هـذا هو شـأن الحداثة مع نصـوص مثل نصـوص مـاركس أو غـيره من الأدباء والشعراء، فإن الأمر بالنسبة لتفسير النص القرآنى أسـوأ ويكـاد يكـون مختلفـاً اختلاف العربية من اللغات الأوربية. وعلى كل حال فإن تـاريخ الاستشـراق مغـرق فى القدم. وقد ظهر مع ظهور الإسلام وانتصاره وعنـدما علمت أوروبا بـذلك وكـانت وقتئذ فى أشد فـترات القـرون الوسـطى تخلفـاً، تملكها الحـيرة وظن رجـال الكنيسـة. وهم وقتئذ الـذين يمثلـون رجـال المعرفـة، أن الإسـلام نحلة يهوديـة/ نصـرانية محرفة وأن الرسول العربى نقل فكرة عن يهود ونصـرانيين وأنه سـكير، عربيـد، له حـريم كحـريم السلاطين الخ... ولكن هذه الصورة تبددت أمام ما أظهره المسـلمون من تفـوق على الأوروبيين وعندما تلاقوا فى الفتوح وفى الحروب الصليبية بدءً من عام 1059، فقـام عـدد من البـابوات بتكـوين معاهد لتعليم العربية واسـتعانوا فى ذلك بكثـير من يهـود الأنـدلس الـذين عايشـوا الثقافة الإسـلامية، فـترعرع الإشـراق فى حضن الكنيسـة.

---

76 **(76) نقد الحقيقة – تـأليف على حـرب ص 21-22 المركز الثقـافى العـربى – بيروت.**

وبإرادتها ورغبتها فى اختراق الإسلام والمسلمين وعمل عدد كبير من المستشرقين فى خدمة الدوائر الكنسية أو الدوائر الاستعمارية فى بلادهم .

وكان الأمر الذى عجز الأوروبيون عن إساعته وفهمه هو القرآن. وكتب بعض الذين تعاطفوا مع الإسلام مثل كارليل وجيبون وجوستاف لوبون صفحات طويلة يعبرون فيها عن عدم فهمهم للقرآن، وأنه متعارض وغير متراكب.. وأن ألفاظه متنافرة الخ... وفاتهم أن القرآن له طبيعة فنية عربية لا يمكن أن تترجم أو يعبر عنها بدقه .

فإذا التمسنا لهؤلاء العذر بعدم إمكانهم فهم اللغة العربية. فإن مشكلة المستشرقين الذين يعرفون العربية هى أنهم تقبلوا كتابات أئمة الفقه والتفسير والحديث كما لو كانت مراجع لا تقبل المناقشة تمثل الحكم الفصل فى موضوعها. وقد كان هذا بالنسبة لهم أمراً بديهياً فهو كاعتمادهم فى المسيحية على كلام "الأباء" والبطاركة الخ... ودق عليهم أن الإسلام ليس فيه كنيسة وأنه لا يعطى الفقهاء حق التحليل والتحريم والحكم، وأن الأمر فى هذا كله يعود إلى القرآن وما ساقوه من أحكام لا يكون ملزما للدين وإنما يمثل اجتهاداتهم ونعترف أن من الظلم لهم أن نطالبهم بتحقيق هذه المراجع نفسها، والعودة بها إلى القرآن لأنهم ولابد سيغرقون فى بجحه، ولأنه ليس مطلوباً منهم أن يكونوا "ملكيين أكثر من الملك" أى محققين أكثر من فقهاء المسلمين أنفسهم .

ولما كانت معظم هذه المراجع محشوة بالإسرائيليات والأحاديث الضعيفة وأبيات الشعر المنحولة.. ولما كانت من مزايا المستشرقين المعروفة، والمسلم بها، التوثيق. فإن هذه الميزة أصبحت سلاحاً للطعن فى الإسلام .

من أجل هذا لا نعد التوثيق هى الميزة الجلى للمستشرقين وأن كانوا قد برعوا فيها ولكن التنهيج والتنظيم، ومرة أخرى فإن هذا فقد لا يكون مجديا بالنسبة للقرآن كما هو مجد بالنسبة لكتب أخرى – وذلك للطبيعة الفريدة للقرآن التى لا يماثله فيها كتاب آخر. وهكذا فإن كل جهد نولدكه فى ترتيب سور القرآن – مكيا ومدنيا – وحسب النزول – الذى انبهر به كثير من المجددين الإسلاميين يعد لا قيمة له ما دام الرسول قد أعاد ترتيب السور قبل أن يموت فى مراجعته المراجعة الأخيرة، كما ذكرنا ذلك ونقلناه فى صدر بحثنا .

ومع هذا فنحن لا نكتم إعجابنا وتقديرنا للعمل الذى قام به بعضهم وبوجه خاص المستشرق الألمانى أوتو بريتزل الذى خلف المستشرق براجستر أيسرا (1886-1932)، فى إتمام مشروع جمع المصادر الخاصة بالقرآن الكريم، إذ كتب بريتزل إلى المجمع العلمى العربى بدمشق بشرح عمله "لقد نوينا – تسهيلاً لمحبى الإطلاع أن ندون كل آية من القرآن الكريم فى لوحة خاصة تحوى مختلف الرسم الذى وقفنا عليه فى مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة التى عثرنا عليها فى المتون المتنوعة، ومتبوعة بالتفاسير العديدة التى ظهرت على مدى العصور وتوالى القرون. وحينما انجلت المهمة عن طبع العديد من الآثار لعلماء العرب والمسلمين لم يكتف "بريتزل" عند هذا الحد، بل أتحفنا برسالة فريدة فى تاريخ علم القرآن باللغة الألمانية وهى تحتوى على أسماء المؤلفات فى علم القرآن الموجودة فى الآفاق ودور الكتب فى العالم. وغير غريب بعد أن نشاهد تحقيق: أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوى،

والكشاف للزمخشرى، والاتقان للسيوطى وكتاب المصاحف للسجستانى، و(مقدمتان فى علوم القرآن) على أيدى مستشرقين آخرين. وهى كتب مهمة فى التفسير وعلوم القرآن[77].

(4)

محمد أركون واجتهاداته

هذا المفكر الجزائرى الأصل، المسلم الديانة تربّى فى حجر الاستعمار الفرنسى وتعرّض صبياً وشاباً لكل ما يتعرض له الجزائرى العربى المسلم من إكراهات وضرورات ومحن ثم عاش فى فرنسا ونهل حتى ارتوى من معارفها وثقافتها حتى وصل إلى أعلى محافل الثقافة "السربون" حيث يشغل منصب الأستاذية ونذر نفسه لقضية الفكر الإسلامى وبوجه خاص القرآن واستطاع بالفعل أن يقدم إضافته .

إنه من الطبيعى أن يساء فهم أركون. وليس من المستغرب أن تأتى إساءة الفهم من المعسكرين المتعارضين معاً! معسكر السلفيين الإسلاميين ومعسكر المستشرقين. لأن أركون ندد بتقوقع الفكر الإسلامى وكشف عن سوءات المفسرين والمحدثين الخ... فاستحق لعنة السلفيين، ولأنه من ناحية أخرى انتقد تعصب وضيق أفق وتفاهة معلومات المستشرقين فاستحق غضبهم عليه، وضيقهم به .

هذا أمر مفهوم ولا يثير بالنسبة لنا تساؤلاً. ونحن معه تماماً فى حملته على المفسرين والمستشرقين ولكن عندما يعالج أركون القرآن نفسه باعتبار تراثاً أو نصاً فإنه يكون مثل المستشرقين الذين لا يرجون لله وقاراً "لأنهم ببساطة لا يؤمنون به" .

وقد يصّور محنة أركون والورطة التى تورط فيها أنه وجد نفسه منساقاً لأن يجعل مفتاح فكرته عن القرآن أنه **"ذو بنية أسطورية متعالية"** ولم يتنبه لاستغراقه فى الفكر الأوربى إلى أنه يضع نفسه فى خندق واحد مع المشركين الذين قالوا عن القرآن "أساطير الأولين" وعندما تنبه إلى ذلك حاول – بجدع الأنف – أن يخلص نفسه محملاً المسئولية لإساءة الترجمة ومفرّقاً ما بين **myth** أى الأسطورة وما بين **mythology** وهى الخرافة .

وقال إن الأولى ذات معنى إيجابى والثانية ذات معنى سلبى الأولى تعنى المجاز الرافع والخيال المجنح أو الفرضة الحسنة التى لها نواة فى الواقع وإن لم تكن واقعة أو تاريخية بالمعنى الحرفى للكلمة أو أنها السقف الأعلى والسماء الواسعة التى تظلل الوجود وتخلع عليه المعنى، إنها الأحلام الطوباوية والخيال الرطب الذى يبعث فى الوجود ويخرجنا (ولو للحظة) من قتامة الواقع وإكراهاته ويرتفع بنا إلى سماء صافية ومثالية رائعة، بهذا المعنى فإن الكائن البشرى لا يستطيع أن يعيش بدون الأسطورة. هذا على الرغم من أن الأسطورة تتحول وتتغير من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل كما إنها ترتبط بخاصيات المجتمع ودرجة تطوره فالأسطورة فى المجتمع التونسى مثلاً تختلف عن الأسطورة فى المجتمع الفرنسى بمعنى أن الأسطورة فى

---

[77] **(77) انظر بحثاً بعنوان "تقويم الجهود الاستشراقية فى الدراسات القرآنية للأستاذ عز الدين المفلح فى مجلة الحج العدد السادس جمادى الآخرة 424 – أغسطس 2003 ص58 .**

مجتمع زراعى لما يُصـــنع تختلف عن الأســـطورة فى مجتمع ما بعد التصـــنيع وما بعد الحداثة. وكل مجتمع يبحث عن أسطورة تأسيسية أو عصر تدشينى ذهـبى فقد ملامحه الواقعية والتاريخية وتحــوّل إلى شئ يتجــاوز الواقع أى إلى أســطورة (أنظر صــورة العصر الأول للإســلام بكل شخصـياته وأحداثه بالنسـبة للـوعى الإسـلامى أو بـدايات المسيحية بالنسبة للـوعى المسـيحى. أو حـتى الصـورة الأسـطورية للثـورة الفرنسـية بالنسبة إلى الوعى الجمهورى الفرنسى الحالى) بل إن ديجول نفسه قد تحول مـؤخراً إلى أسطورة وساهمت فى ذلك وسـائل الإعلام والكتب المدرسـية الـتى تعلّم للطلاب فى المدارس الخ... كل مجتمع بحاجة إلى أسطورة يعيش عليها .

هـذا هو الفـرق بين الأسـطورة والخرافـة، إنه فـرق فى الدرجة لا فى النوعية فالأسـطورة عنـدما تتـدهور وتنحط تتحـول إلى خرافة غـير ذات معـنى ولكنها راسـخة الجـــذور فى الـــوعى الشـــعبوى لأمة من الأمم أو لفئة من الفئـــات، ففى حين أن الأسطورة كـانت ذات قيمة إيجابية تشـحن الهمم بـالعزائم وتـدفع باتجـاه الفتوحـات وتحقيق الذات على الأرض نجد أن الخرافة تثبط العزائم وتدعو للاسترخاء والاستسلام لأحضان العصبيات .

ويعود أركون لإيضاح جانب جديد من جـوانب دفاعه عن الأسـطورة. ((نحن نعتقد أن العقل الحـديث يعيد للأسـطورة وظائفها النفسـية والثقافية ويشـكل إسـتراتيجية شاملة للمعرفة يكون فيها العقلانى والخيالى (أى الأسـطورة بـالمعنى الأنـثروبولوجى) للكلمة فى حالة تـداخل وتفاعل مسـتمرة من أجل توليد وجـوده الفـردى والجمـاعى والتـاريخى. وعندئذ نتخلى للمـرة الأولى عن الإطـار الثنـوى للمعرفة حيث كـان العقل يتضاد دائماً مع الخيال والتاريخ يضاد الأسطورة والصح يضاد الخطأ والخير يضـاد الشر والعقل يضاد الإيمان الخ ...

وعندئـــذٍ نـــدخل فى مرحلة العقلانية التعددية والمتضـــامنة مع كل العمليـــات النفسـية الـتى يموضـعها القـرآن فى القلب والـتى يحـاول علم الأنثروبولوجيا الحـالى إعادة الاعتبار لها وإدخالها تحت أسم "المخيال أو المتخيل"[(78)].

نقول إن كل كلام أركون عن الأسطورة وهى كما ذكرنا مفتاح فهمه للقرآن إنما هو تنظـير للفكر الأوربى الـذى قـام بعد اسـتبعاد فكـرة الله على الميثولوجيا اليونانية أولاً. وقد أصـاب القـرآن الكـريم المحز عنـدما نسب الأسـاطير للمشـركين لأنها هى إيمانهم الحقيقى ولأن تفرقة أركون تفرقه مفتعلة فالأصل اللغوى واحد والعلاقة بينهما عضوية. بل قد نـذهب إلى عكس ما ذهب إليه أركـون فالأسـطورة تبـدأ خرافة لتنتهى إلى عقيـدة ويحتمل أن يكـون إيمـان اليونـان أيـام سـقراط وأفلاطـون بالميثولوجيا اليونانية أقل مما رسـبته هـذه الميثولوجيا في الوجـدان الأوربي بل والمجتمع الأوربي بكل علومه وآدابه وفنونه التي استعار لها أسماء شخوص وآلهة الميثولوجيا .

---

[78] **(78) الدكتور محمد اركون: الفكر الإسـلامى نقد واجتهـاد ص 88 – ترجمة هاشم صالحج – دار الساقى – لندن.**

والخطأ في أركون أنه قبل أن يكون أوربيا كالأوربيين الذين مهما كانت أمجادهم الفكرية فإنهم – دائماً وأبداً – يفكـرون علي أسـاس أن أوربا هي الكـون وأنه لاشـيء سـوى الفكر الأوربي من اليونـان حـتى الآن يسـتوي في ذلك مـاركس وهيجيل وغـيره فهم جميعاً يبنون كل أفكارهم علي بنية أوربية خالصة. وقد قبل أركون أن يتنــازل عن ميزة أنه عربي ومسلم التي كانت يمكن أن تجعله شخصاً مختلفاً وتجعله يدخل مدخلاً مختلفاً ولما كان عليه – وليس علي المفكرين الأوربيين – أن يخاطب المســلمين فإنه حــاول أن يضـفي علي الفكر الأوربي مســحة إســلامية وهيهــات. فهنــاك خط فاصل رئيسي بين عـالم الله وعـالم الوثنيـة، بين الإسـلام وبين الأسـطورة. وقد كـان يمكن لأركون أن يقول إنه لابد لكل الشعوب من إيمان وهـذا الإيمـان قد يكـون زائفـاً فيأخذ شكل الأسطورة قبل أن يهدي الله الناس بالصورة السليمة عن طريق الوحي والأنبياء والكتب السماوية التي تسـتخدم التصـوير الفـني والمجـاز أو تبـدأ من مسـتوي القـوم الــذين أنــزلت لهم، ولكن مضـمونها يختلف تمامــاً عن الأســطورة، لأنه يــبرز الحقيقة العظمى الله .

بل إن أركـــون كـــان يســـتطيع أن يمضي إلي ما هو أبعد فيقـــول: إن الجـــذور الأسطورية للمعتقدات الدينية ظلت قوية ومؤثرة حـتى بعد إرسـال الله تعـالي للرسل وألقت بظلال وغشاوات علي نقاء العقائد السماوية .

كان أركون يستطيع أن يقول هذا لو تحرر من المنــاخ الأوربي وطريقة أوربا في دراسة الأديان التي تستبعد تماماً فكـرة الله وتأخذ بما وجدته لـدي القبائل البدائية في أفريقيا والأمزون واستراليا والهند الخ... أو في كتب السحر والتنجيم... وهذا عندها هو "الأنتربولوجى" العلمي المقبول .

ورغم كل ما يمكن أن يؤخذ علي أركـــون فقد اســـتطاع أن يصد بحكم مكانته الرفيعة وإيمانه الإسلامي غائلة كثير من المستشرقين وأن يعرض وجهة نظر إســلامية يتقبلها الفكر الغـربى، وأنه توصل إلي نتـائج سـليمة فى نقـده لبعض مسـالك الفقهـاء التقليديين .

علي كل حال فإننا نعتقد أن أركون كبقية الذين تـأثروا بالثقافة الأوربية وانبهـروا بها حينــاً من الــدهر يعيد بين الفينة والفينة النظر في أفكــاره وينتهي إلي إشــراقات تختلف عما ذهب إليه عنـــدما كـــان مـــأخوذاً بكليته بالثقافة الأوربية وأنه بعد رحلته الطويلة مع "فوكـــو" وأمثاله من أنصـــار التفكيك والحفر انتهى إلي أن "التأويـــل" هو مفتـاح المعالجة القرآنية «فـالقرآن كتـاب ينص علي التأويل ويقبل التأويل ولا يكتنه إلا بالتأويل فهو نص تأويلي أو لنقل نص التأويل بامتياز" .

(5)

الدكتور نصر حامد أبو زيد وكتابه : "مفهوم النص دراسة في علوم القرآن"

في صدد التدليل علي كساد النشاط الثقافي وخمـول الفكر المصـرى قـال أحد

النقـاد: إن كتـاب "مفهـوم النص" لم يـثر صـدي قي حين أنه أخطر بكثـير من كتـاب "أصول الحكم في الإسلام" للشيخ علي عبد الرازق الذي أقـام الـدنيا وأقعـدها عنـدما صدر في العشرينات. لأن هذا الأخير إنما تعـرض لإحـدى قضـايا الفكر الإسـلامي وهي الخلافة في حين أن كتاب "مفهوم النص" يتعرض لصميم القرآن الكريم نفسه .

كـان هــذا قبل أن يتنبه المجتمع المصــرى الخامل إلى الكتــاب وأن يجعله بل ويجعل شخصية مؤلفه، قضية كبرى تحكم فيها المحاكم بالتفريق ما بينه وبين زوجته – ربما لأول مرة فى مصر – بدعوى ارتداده .

ونعتقد أن الـــدكتور نصر حامد أبو زيد لم يتـــأثر فيما ذهب إليه بعـــالم ما بعد الحداثة كالدكتور أركون ولم يتغلغل في عالم فوكو وشنشنة نيتشه والتوسير وديدرو... الخ إنه يعود إلي ديكارت وفكرة الشك. وقد تأثر عميقاً وبصورة مباشـرة كأسـتاذ أدب عربي بالدكتور طه حسين الذي يعتبره دون مواربة مثله الأعلى. وقد قـال طه حسـين إن ذكر القرآن لبناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة لا يكفي لإثبات ذلـك. فجـاء نصر أبو زيد ليضع المنهج الذي ينتهي إلي مثل هذه النتائج، وهذا المنهج هو معالجة "النص" القرآنى باعتباره "منتجاً ثقافيـاً"، وإذا كـان له أسـاتذة من الأقـدمين فهم المعتزلة وشنشـنتهم حول خلق القرآن ..

ولعله ترفّق بالقـارئ فلم يصّـرح بمذهبه من البداية فأخذ يحـوم حـول الـتراث والدراسات الأدبية والنصوص ثم انتقل إلى الحديث النبـوى حـتى ذكر صـراحة القـرآن وأنه هو النص **"بألف ولام العهد" .**

ولا يثنيه عن هذه المعالجة أن يكون القرآن نصاً إلهياً صـادراً عن الله فكائنـاً ما كان فإنه قد ألتبس باللغة واللغة ليست وعاءً فارغـاً ولكنها أداة الثقافة والمعرفة ومن ثَّم فيمكن معالجته من هذا المدخل كمنتج ثقافى ..

ونقرأ له بكلماته ...

"إن البحث عن النص ليس فى حقيقته إلا بحثــــاً عن ماهية القـــــرآن وطبيعته بوصفه نصاً لغوياً" ص12.

"إن الدراسة الأدبية – ومحورها مفهـوم النص – هى الكفيلة بتحقيق وعى علمى يتجاوز به موقف التوجيه الأيديولوجى السائد فى ثقافتنا وفكرنا" ص13 .

"إن النص فى حقيقته وجـوهره منتج ثقـافى والمقصـود بـذلك أنه تشـكل فى الواقع والثقافة خلال فـترة تزيد على العشـرين عامـاً وإذا كـانت هـذه الحقيقة تبـدو بديهية ومتفقاً عليها(!!) فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقى سابق للنص يعـود لكى يطمس هـــذه الحقيقة البديهية ويعكر – من ثمّ – إمكانية الفهم العلمى لظـــاهرة النص. إن الإيمـان بالمصـدر الإلهى للنص ومن ثمّ لإمكانية أى وجـود سـابق لوجـوده العيـنى فى الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التى ينتمى إليهـا. ولنقل بعبارة أخرى إن الله سبحانه وتعالى حين أوحى للرسول بالقرآن أختـار النظـام اللغوى الخاص بالمستقبِل الأول وليس إختيار اللغة اختيار لوعاء فارغ. وإن كان هذا ما يؤكده الخطاب الـدينى المعاصـر. ذلك أن اللغة أهم أدوات الجماعة فى إدراك العـالم وتنظيمـه. وعلى ذلك لا يمكن أن نتحـدث عن لغة مفارقة للثقافة والواقع أيضـاً ما دام

أنه نص داخل إطـار النظـام اللغـوى للثقافـة. إن ألوهية مصـدر النص لا تنفى واقعية محتواه ولا تنفى من ثمّ انتماءه إلى ثقافة البشر" ص27.

إن القرآن يصف نفسه بأنه رسالة تمثل علاقة اتصال بين مرسل ومسـتقبلٍ من خلال شفرة. ولما كان المرسل فى حالة القـرآن لا يمكن أن يكـون موضـوعاً للـدرس العلمى. فمن الطبيعى أن يكون المـدخل العلمى لـدرس النص القـرآنى مـدخل الواقع والثقافة، الواقع الذى ينتظم حركة البشر المخـاطبين بـالنص وينتظم المسـتقِبل الأول للنص وهو الرسول والثقافة التى تتجسد فى اللغة. بهذا المعنى يكون البدء فى دراسة النص بالثقافة والواقع بمثابة بدء بالحقائق الإمبريقية .

ومن تحليل هـذه الحقـائق يمكن أن نصل إلى فهم علمى لظـاهرة النص. إن القـول بـأن النص منتج ثقـافى يكـون فى هـذه الحالة قضـية بديهية لا تحتاج لإثبات ومع ذلك فإن هذه القضـية تحتـاج فى ثقافتنا إلى تأكيد متواصل نأمل أن تقوم به هذه الدراسة .

لكن القـــول بـــأن النص منتج ثقـــافى يمثل بالنســـبة للقـــرآن مرحلة التكـــون والاكتمـــال. وهى مرحلة صـــار النص تقـــاس عليه النصـــوص الأخـــرى وتتحـــدد به ومشروعيتها. إن الفارق بين المرحلتين فى تاريخ النص هو الفـارق بين اسـتمداده من الثقافة وتعبيره عنها وبين إمداده للثقافة وتغييره لها" ص28 .

"ولعل الحـــديث عن دور الواقع والثقافة فى تشـــكيل هـــذه النصـــوص (القـــرآن والحـــديث) يمثل نقطة الانفصـــال وربما التـــدابر بين منهج هـــذه الدراسة وبين المنـــاهج الأخرى الـتى يتبناها الخطـاب الـدينى المعاصر عند مناقشة هـذه القضـايا حيث تعطى الأولوية عند مناقشة النصـــوص للحـــديث عن ((الله)) عز وجل قائل النص ثم يلى ذلك الحـــديث عن النـــبى (المســـتقبل الأول) للنص ثم يلى ذلك الحـــديث عن الواقع تحت عنـاوين "أسـباب الـنزول" و "المكى والمـدنى" و "الناسخ والمنسـوخ" إن مثل هـذا المنهج إن اكتملت له أدوات البحث المنهجى من الدقة والاستقصـــــاء بمثابة ديالكتيك هابط فى حين أن منهج هـذه الدراسة بمثابة ديالكتيك صـاعد. وعلى حين يبـدأ المنهج الأول من المطلق والمثالى فى حركة هابطة إلى الحسى والمتعين فإن المنهج الثـانى يبـدأ من الحسى والعيـنى صـعوداً. يبـدأ من الحقـائق والبـديهات ليصل إلى المجهـول ويكشف عما هو خفى" ص29 .

* * *

إن هـذه الفقـرات هى ما تهمنا بالدرجة الأولى من كتـاب "مفهـوم النص" لأنها تمثل المنهج والفكرة الرئيسية فيه وهى أن النص القرآنى مهما كانت قداسته فإنه بعد أن التبس باللغة وتجسد فيها أصبح نصاً لغوياً يخضع لكل ما تخضع له النصوص اللغوية من تفاعل ومؤثرات .

وعنـدما أراد أن يطبق هـذا المنهج على التفاصـيل قـال فى معالجته لمفهـوم الوحى: ((لقد كان ارتباط ظاهرتى الشعر والكهانة بالجن فى العقل العـربى وما ارتبط

بهما من اعتقــاد العــربى بإمكانية الاتصــال بين البشر والجن هو الأســاس الثقــافى لظـاهرة الـوحى الـدينى ذاتها ولو تصـورنا خلو الثقافة العربية قبل الإسـلام من هـذه التصورات لكان اسـتيعاب ظـاهرة الـوحى أمـراً مسـتحيلاً من الوجهة الثقافيـة. فكيف كـان يمكن للعـرب أن يتقبل نـزول ملك من السـماء على بشر مثله ما لم يكن لهـذا التصور جذور فى تكوينه العقلى والفكرى" .

وهذه الفقرة أقرب إلى شطحات المستشرقين الذين يغلب على معظمهم عدم الإحكام والشمول للموضوع الإسلامى وأنهم يبنـون النتـائج على مقـدمات وهنانة فمن قال إن العرب تقبلوا فكرة نزول ملك على بشر بوحى لسـبق تـأثرهم بـالجن والكهانة وقد كان هذا نفسه هو أكبر أسباب كفـرهم وآيـات القـرآن الـتى تسـجل دهشـتهم من إرسال بشر "يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق" ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَـاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَـةٌ يَمْشُـونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّـمَاءِ مَلَكـاً رَسُـولاً﴾. {95 الإسـراء}.. وقد وجد الشـعر والكهانة فى كل الأمم القديمة تقريباً. وقد وجد فى اليونـان أكـثر مما وجد فى العـرب ولم يوجد الأنبياء. فالفقرة كلها ساقطة سواءً طبقناها على العرب أو على غيرهم .

ولا يمكن لأحد أن يلــوم أو ينتقد الكتــاب المســلمين، إذا جعلــوا من حقيقة أنّ القرآن من عند الله. **نقطة البداية الحاكمة للموضوع وأخذوا** يهبطــون منها إلى الرســول عن طريق الــوحى وهى الطريقة الــتي وصــفها الــدكتور نصر أبو زيد بأنها "ديالكتيك هابــط" وليس من ذنب المســلمين إذا أخــذوا به لأن القــرآن **"نــزل" و "أنـزل"** من السـماء وهما صـيغتان للـنزول تكررتا في القـرآن. وليس أمـام الكـاتب المسلم إلا أن يعـترف بهـذه الحقيقة أو أن يعطى فكـرة الله "أجـازه" عنـدما يكتب أو يخلعها قبل أن يجلس على مكتبه .

وكـرر الـدكتور نصر أبو زيد هـذه الـدعاوى فى كتـاب نقد الخطـاب الـدينى فهو يقـول "النص منذ لحظة نزوله الأولى أى مع قـراءة النـبى له لحظة الـوحى تحـول من كونه نصاً إلهياً وصار فهمـاً إنسـانياً" أنه تحـول من التنزيل إلى التأويـل، إن فهم النص للنبى يمثل أولى مراحل حركة النص فى تفاعله بالعقل البشـرى، ولا التفـات لمـزاعم الخطاب الدينى بمطابقة فهم الرسول للدلالة الذاتية للنص 27 وفى ص "105" يقـول "وفى قضية ميراث البنـات بل فى المـرأة بصـفة عامة نجد الإسـلام قد أعطاها نصف نصيب الذكر بعد أن كانت مستبعدة استبعاداً تاماً وفى واقع اجتمـاعى اقتصـادى تكـاد تكون المرأة فيه كائنــاً لا أهلية له وراء التبعية الكاملة بل الملكية التامة للرجل أبــاً ثم زوجاً. اتجاه الوحى واضح تماماً وليس من المقبول أن يقف الاجتهاد "عند حدود المدى الذى وقف عنده الوحى وإلا انهارت دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان" .

ويقــول "الواقع هو الأصل ولا ســبيل لإهــداره ومن الواقع يكــون النص ومن لغته وثقافته صيغت مناهجه" .

فالواقع أولاً.. والواقع ثانياً.. والواقع أخيراً وإهـدار الواقع لحسـاب

نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة] انتهى .

فكيف يمكن أن يتحـول النص منذ لحظة نزوله الأولى أى مع قـراءة النـبى له لحظة الوحى من كونه نصاً إلهياً إلى فهم إنسانى من التنزيل إلى التأويل ..

إن القـرآن لم يتحـول أبـداً ولكن الـذى يتحـول ويتغـير هو فهم النـاس لـه، هو تفسيرهم له، هو تأويله .

وتفســيره وتأويله شــئ. والنص نفسه شئ آخــر، ويمكن دون حــرج أن ننقد التفاسير ما شئنا وأن نحكم عليها بقوانين الظواهر الاجتماعية ولكن هـذا لا يمس أبـداً النص نفسه الذى يحتفظ بكل قدسيته، لأنه لم يحدث له ما يمس هذه القدسـية ويظل دائماً هوهو، ويظل ملهماً خلاقاً ..

وفى قضـية مـيراث المـرأة فهل فـات الـدكتور نصر أن المعـول فى المـيراث الإسلامى هو وثاقه العلاقة بـالمتوفى وليس ما إذا كـان الـوريث ذكـراً أو أنـثى وهنـاك حالات عديدة ترث فيها الأنثى أضعاف ما يرث الذكر. هذا فضلاً عن أن الميراث قطعة من نظام إسـلامى يـوجب التزامـاً على الرجل نحو المـرأة، بل يمكن القـول إن الخط المقرر فى القرآن بالنسبة للمرآة كان حمايتها من عدوان الرجال وكان يمكن للمؤلف أن يقول إن علينا أن نعود إلى الحكمة فى النص فإذا انتفت الحكمة الـتى أرادها النص فيمكن – بناء على أن الحكمة ملحظ من ملاحظ النص – تجميد نص مـؤقت وفى هـذه الحالة بالذات، وهو ما فعله عمر بن الخطاب فى اجتهاداته المعروفة...

وكان يصل بهـذا إلى ما يريد دون الافتئـات على النص ويعـزز موقفه باستشـهاد موثق ومقبول. أما دعـوى أن الواقع هو الأصل ولا سـبيل لإهـداره... وأن إهـدار الواقع لحسـاب نص جامد ثـابت المعـنى والدلالة يحـول كليهما إلى أسـطورة... فهـذا محض ادعاء، لأن الأديان إنما جاءت لتسـمو بـالواقع لا أن تستسـلم لـه، وما فائـدتها إذا كـان عليها أن تسلم للواقع .

إن أزمة الــدكتور نصر وإضــرابه والــدكتور طه حســين من قبل تعــود إلى اسـتغراقهم فى فكر المستشـرقين الـذين يسـتبعدون بحكم منـاهجهم أى ذكر لله فى كتاباتهم وبالتالى يعاملون القرآن كأى كتاب وأى "منتج ثقافى"، وقد تخالطهم (الدكتور طه حسين ونصر أبو زيد وأمثـالهم) رغبة ما بين الزهو والشر فى اخـتراق المقدسـات وابتداع المناهج رغم أنهم فى هذا إنما يمثلون صورة من صور التقليد. والقارئ لكتـاب "فى الشعر الجاهلى" يلمس أن الفقرات المشـبوهة الـتى جلبت على مؤلفه العـار لم يكن لها ضــرورة على الإطلاق إلا التفـاخر بالشـجاعة وتجـاوز الحـدود والجـرأة على القرآن وقد أظهر هذا بجلاء الأستاذ محمد نور رئيس النيابة الـذى حقق مع طه حسـين وأثبت أن لديه معرفة وعلماً يفوق علم ومعرفة طه حسين نفسه وألجأه إلى الاعتــذار الــذى اســتند عليه فى اســتبعاد "القصد الجنــائى" وبالتــالى حفظ الموضــوع فحقق الحسنيين: أثبت خطأ طه حسين فى تهجمه دون مبرر على القرآن وفى الـوقت نفسه فإنه باستبعاد القصد الجنائى حفظ الموضوع وحال دون محاكمته

ولـولا هـذه الرغبة فى التظـاهر لما عجز طه حسـين ونصر أبو زيد عن أن يكونا أفضل من المستشرقين الذين هاموا بهم – لأنهما يؤمنان بالله وأن هـذا الإيمـان يمكن أن يهديهم إلى ما لم يهتد إليه المستشرقون. وهل الصواب أن نقبل ما يقول ديكــارت

أو دوركايم ونرفض ما يقول القرآن ؟؟ .

لقد أعـاد التـاريخ نفسه مع هـؤلاء السـادة الـذين نهجـوا نهج أسـلافهم المعتزلة الذين فتنوا بالفلسفة اليونانية فـابتغوا سـبيلاً للبرهنة على وحدانية الله وقداسـته غـير السبيل الذى رسمه القرآن فتوزعتهم الطرق أمشـاجاً وضـللتهم الـدعاوى الـتى تعـود إلى فلسفة وثنية أصلاً وفرعاً قلباً وقالباً... وليس هناك فرق بين كلمات الـدكتور نصر أبو زيد **"إذا كـان الكلام الإلهى فعلاً فإنه ظـاهرة تاريخية لأن كل الأفعـال الإلهية أفعال "فى العالم"** المخلوق المحدث إى التاريخى والقرآن الكـريم كـذلك ظـاهرة تاريخية من حيث أنه واحد من تجليـات الكلام الإلهى وإن يكن أشـمل هـذه التجليات لأنه آخرها". وبين المعتزلة الذين ذهبوا إلى "بشرية" القرآن وأن القـرآن من حيث هو كلمات وحروف وأصوات ومداد مكتوب فى صحف هو محدث مخلـوق. بل هو بهذه الصـفات فعل للإنسـان المتكلم به والقـارئ له والكـاتب لآياتـه. وقـال أغلبهم إن القرآن كما نحكيه نحن الآن ليس هو ذات "المحكى" عن الله سبحانه وأن الحكاية غير المحكى والـذى نحكيه نحن كلام وصـوت وحـرف ومـداد أما المحكى عن الله سـبحانه وتعالى فهو المعنى وقد عـبر الرسـول عليه الصـلاة والسـلام عن هـذا "المعـنى" بلغة العرب التى جاء بها القرآن الكريم[79].

وبناء على هذا فقد ذهب المعتزلة إلى أن القول بخلق القـرآن يعـنى فى مقدمة ما يعنى القول "ببشرية" هـذا الكتـاب من حيث اللغة والأصـوات والحـروف واللهجـات وبما أن هذه الأشياء هى ثمرة جهد بشـرى أثمر قواعد أتفق عليها النـاس "وتواضـعوا" عليها ووضـعوا لها القواعد والأصـول فـإن ذلك يجعل للعقل الإنسـانى مجـالاً أكـبر فى النظر إلى هذا الكتاب بالتفسير والتأويل[80] .

وقد تصور المعتزلة أن لا كلام إلا بجارحة (اللسان) وأنه لما كـان الله منزها عن الجوارح فإن القرآن ليس كلام الله. ولو عاشـوا العصر الحـديث ووجـدوا الراديو يتكلم بدون لسان لكان لهم مندوحة عن هذا الشطط، ولوجدوا أن عـدم التفكـير فى هـذا لا يخالف العقل فى شىء لأن العقل يعجز عن أن يدرك كنه الله تعالى .

والقضـــية فى حقيقتها بالنســـبة للمعنزلة المفتـــونين بمنهج الفلســـفة اليونانية وللمحدثين المفتونيين بمنهج الفلسفة الأوربية الحديثة هى محاولة للجمع بين عقيدتهم كمسلمين يؤمنون بالله وهذه الفلسفات – الفلسـفة الأوروبية الحديثة – الـتى تسـتبعد الله وهى محاولة شـيطانية تعسة محكـوم عليها بالفشـل. وما دام القـرآن كلام الله – كما يؤمن كل مسلم – فإن أى محاولة لتقضى كيفية حـدوث ذلك أو طبيعته تخـرج عن إطار العلم المادى والفلسفة الدنيوية والتجريبية وتصبح جزءاً لا يتجزأ من عـالم الغيب الذى استأثر به الله تعالى ولا داعى للافتيات عليه. وقد عالج القرآن نفسه هذه النقطة

---

79 **(79) المعتزلة والقرآن – الدكتور محمد عمارة – مجلة الهلال عدد ديســمبر 1970 نقلاً عن القاضى عبد الجبــار أأشيبلسيبلســيباى "المحيط بــالتكليف" ص 160-161.**

80 **(80) المرجع السابق ص160 – 161 .**

عنـدما تعـرض لشـكوك المـرجفين فى قوله تعـالى ﴿مَـاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً﴾. {26 البقرة}.. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ {31 المدثر}.. وفى مواجهة هـؤلاء المـرجفين، وفـان الراسـخين فى العلم ﴿يَقُولُـونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَا﴾. {7 آل عمران} ..

وقد كـــان يمكن للـــدكتور نصر أبو زيد وإضـــرابه أن يهتـــدوا إلى الحل فمع أن القــرآن كــان لابــدد أن يــنزل بلغــة، ولابد أن يحــدث نوعــاً من التفاعل ما بين النص المقــدس واللغة ومتواضـعاتها. **فـإن القضـية الجديـدة فى الموضـوع هى أن القرآن قد أنزله الله تعالى كمعجزة الإسلام وإعجازه أنه رغم نزوله بلغة معينة وفى وسط معين فإنه لم يخضع لما لابد وأن يخضع ســـواه له من ضـرورات.** ذلك أن ألوهية إعجـازه رفعته وحررته وجعلته يـأتى بما يخـالف ويناقض ثقافة العرب من توحيد بدلاً من شرك وخلود، بدلاً من فناء، وتحريم للخمر والقمــار – وكانا سلوة العرب – ثم جـاء فى صـياغته بعربية جديـدة تختلف مفرداتها عن مفـردات الشعر الجاهلى. فلم يكن فى موضوعه ومادته وصـياغته "منتجـاً ثقافيـاً" على الإطلاق كما لم يكن ظـاهرة اجتماعية كبقية الظـواهر الاجتماعية المألوفـة. وحـدث هـذا كله عملياً وواقعياً بحيث لا يمكن المراء فيه وكان الحل الوحيد لهذه الظاهرة الفريدة التى ناقضت المـألوف هو أن القـرآن من الله ولم يكن هـذا ليعجز الله تعـالى، ولكن الله لا يجوز الزج به فى البحث العلمى! ولهذا ظلت القضية مفتوحة فقواعد المنهج والمنطق أن يتــأثر كل نص بزمنه وبيئته وثقافته وحــتى العبــاقرة لا يمكن أن يفلتــوا من أسر الزمان والمكان والقصور البشرى. ومن ناحية أخرى وفى مقابل هذا نجد كتاباً يخـالف كل المخالفة هذا المنهج والمنطق فيتجاوز زمانه ومكانه ويأتى بما هو مخـالف للعهـود والمقـرر بصـيغة معجـزة حـار فى تحديـدها البلغـاء، وسـيظل هـؤلاء البلغـاء يضـربون أخماساً فى أسداس حتى يؤمنوا أنه من الله.والغـريب المؤسف فى أمر الـدكتور نصر أبو زيد أنه جمع بين أسوأ ما يقدمه المستشرقون، وأسوأ ما يقدمه الأسـلاف!! أسـوأ ما يقدمه المستشرقون لأنهم يعالجون القرآن بعد استبعاد الله! باعتباره منتجاً ثقافيـاً، وأسوأ ما قدمه الأسـلاف لأنه تقبل ما وضـعوه من أفـانين علـوم القـرآن وأقر النسـخ، وأسباب النزول لأنها فيما رأى تدعم وجهة نظره عن نسبية الأحكام القرآنيـة. فى حين أن الكلام على أسـباب الـنزول والنسخ من سـقط المتـاع، ومـالا يقف أمـام أى نقد أو تمحيص وقد عالجنا هذا بإسهاب فيما سبق من هذا الكتاب .

إننا نقول لهؤلاء الكتاب ألا تعقلون ألا تتفكرون ما هذا الغباء الـذى تتمسـكون به وتحرصون عليه عنـدما لا تفرقـون بين قصـيدة شـاعر أو مسـرحية مسـرحى أو تـاريخ مؤرخ وبين كتاب أثر أثراً بعيداً فى حياة العالم بأسره على امتداد ألف وأربعمائة عــام ودمر الإمبراطوريـات الطبقية رومانية وفارسـية وأحيا أممـاً وأوجد حضـارات وتضـمن الروائع فى التشريع والسياسة والاقتصاد وهو الأصل للضمير لـدى الملايين من مختلف الأجناس ومختلف العصـور هل تعـدون ألفاظه المقدسة الـتى يتعبد بها كالألفـاظ الـتى وضعها زيد أو عبيد من الكتاب والمؤلفين .

إن هذه الصفة الفريدة للقـرآن والـتى لا يشـترك فيها مع القـرآن أى كتـاب آخر تجعل من الحق أن يعالج معالجة خاصة وأن تعد معالجته كأى نص آخر ظلماً للحقيقة .

إن المفكر الأمين هو الـذى يعـترف بـالحق أما الـذى ينكر حقيقة لاشك فيها أو يدعى حقيقة لا أصل لها فإنه لا يكون مفكراً وإنما دجّالاً[(81)] .

(6)

كتاب تثوير القرآن

اقتراب مختلف ..

يختلف كتـاب تثـوير القـرآن – الـذى أصـدرناه فى سـنة 2000 عن كل الكتب السابقة عن القرآن بما فى ذلك اختلاف المنهج والهدف ..

فالمفسـرون جميعـاً من الطـبرى حـتى سـيد قطب وشـحرور اسـتعدوا قبل اقترابهم من القرآن كما يستعد المحارب قبل الدخول إلى معركة فالأسلاف اشـترطوا ضرورة إحكام علـوم اللغة وما فيها من نحو وصـرف وبيـان الخ... والناسخ والمنسـوخ وأسباب الـنزول الخ... والمحـدثون تسـلحوا بكل ما قـدمتهم لهم ثقافة "الحداثـة" من لسانيات وعلوم فى الدلالة والحروف والأسلوب، فضلاً عن فلسفاتهم ومـذهبياتهم وما وضعتها من أصول للبحث والدراسة.. وقد كان آخر هؤلاء المحـدثين هو الـدكتور محمد شحرور الـذى طبق منهج أبى على الفارسى للتعـرف على معـانى الكلمـات وجـذورها واشتقاقاتها كما استخدم الرياضيات الحديثة للتعرف على الحدود ..

وبدت هذه الطريقة طبيعية لأنها جعلت مهمتها "دراسـة" القـرآن. فأصـبح هنـاك دارس ومــدروس كل واحد منهما مسـتقل عن الآخر ومنعــزل عن الآخــر، وأعمل كل دارس مبــادئ درسه ومعداته ومفاهيمه وقواعــده الخ... بما فى ذلك ســكين النســخ، وتخصـيص العمـوم وتحديد أسـباب الـنزول الخ... ولكنهم لم يقـدموا لنا القـرآن ولكن

---

81 **(81) إن هذا النقد لآراء الدكتور نصر أبو زيد لا يعنى أننا نؤيد محاكمته أو اعتباره مرتداً فنحن أبعد الناس عن ذلك، أولاً: لأننا لا نرى فيما قاله ارتداداً وإنما اجتهاداً خاطئاً حمله عليه أخذه بالمفاهيم الأوروبية التى تـأثر بها معظم مثقفينـا، وعـبر عنه بأسلوب فج – كان له عنه مندوحة لو رزق الكياسة التى هى من عدة الكـاتب، وثانياً: لأننا حتى لو افترضنا ارتداده، فنحن لا نرتب على الردة حكمـاً من أى نـوع وكما قلنا فى كتابنـاً أأشيبلسيبلسـيباى "كلا ثم كلا. كلا لفقهـاء التقليـد. وكلا لأدعياء التنوير" ليس هناك بالنسبة للردة حد أو استتابة أو تعزير وإنما يكون الـرد بالكلمة: كلمة فكلمه، وبرهاناً ببرهـان. كما فعلنا هنـا. ونحن لا نقر أبـداً مصـادرة أى كتــاب لأنه قتل لحرية الفكر والمفــروض أن حرية الفكر إنما يعــنى بها حرية الفكر المخـالف، كما نسـتبعد تمامـاً دعـوى التكفـير حـتى بالنسـبة لمن يقر على نفسه بالكفر، لعدم الاختصاص. لأن الله تعـالى هو الـذى يفصل فى هـذه الأمـور يوم القيامة .**

قدموا أنفسهم وما لديهم من مقدرة ومهارة فى استخدام وسائلهم للتعامل مع القرآن ..

وكـأنى بـالقرآن يقـول لهم ويلكم أتعلمـون الله بـدينكم؟ أتشـنون معركة فى القـرآن تسـتخدمون أسـلحتكم الصـدأة اعرفـوا أقـداركم، وألقـوا أسـلحتكم "وأسـجد وأقترب" .

هـذا بالنسـبة للمنهج. أما الهـدف فقد كـان هـدف بعضـهم التوصل إلى الإعجـاز اللغوى أو العـددى أو العلمى فى القـرآن أو تعريف مبهماته وأسـباب نزولـه.. بما عمد كتاب آخرون من المستشرقين باستخدام وسائلهم الخاصة للتنديد بـالقرآن وإظهـار ما يدعون من تفككه وتناقضه !! ..

وقد توصل هؤلاء وأولئك بالفعل وبقدر سلامة هذه الوسائل أو نقصها إلى نتـائج. ولكنهم لم يصلوا إلى ما أراده القرآن لأنهم لم يسـألوه. ولكن فرضـوا عليه منـاهجهم، فأعطاهم ما يريدون وليس ما أراد القرآن ..

الأمر بالنسبة لتثوير القرآن مختلف ..

لم يرد كتاب "تثوير القرآن" دراسة القرآن كبقية الكتب، ولهذا فلم يسـتعد بـأى عدة. إنه أراد الاقتراب من القرآن شيئاً فشيئاً حتى يتحقق نوع من المعايشة، لهـذا لم يستعد إلا بما أعده الله للناس جميعا عندما أوحى لهم بالعقل

دخل "تثـوير القـرآن" عـالم القـرآن وقد غسل نفسه وروحه من كل ما وضـعوه فيها من منهجيات، أسلم قياده للقرآن. دخله كما يـدخل الحـاج مكة محرمـاً، متجـرداً.. ليس على شفتيه إلا التلبية "لبيك اللهم لبيك" .

وكانت الوسيلة العملية لهذه المعايشة قراءة القرآن مثـنى وثلاث مع تـدبر عقل وإسـلام قلب وتعـرف على ما خفى من ألفـاظ بما يوضـحه القـرآن من اسـتخداماته المتعددة لها بحيث يكون لها معان لا معـنى واحـد، ولا يتوقف عنـدما لم يهتد إلى بعض هذه المعانى وقنع بما وقر فى قلبه منها، لأن فى القـرآن من الأسـرار والأعمـاق ما لا يبلغها جيل معين وإنما يدركها جيل لاحق ..

ولم يكن لهذه المعايشة هدف معين، لقد بدت الأهداف الـتى أفـنى المفسـرون أعمارهم لها صغيرة جزئية فضلاً عن أن فـرض ثقافـاتهم على القـرآن غـيرت وبـدلت، ووصـلت إلى النقيض. لقد آمن تثـوير القـرآن أن معايشة القـرآن سـتقوده فى النهاية إلى سر القرآن نفسه، إلى الاسم الأعظم منه إلى الإكسير الذى يحول الضعف قوة... وإذا كـان هنـاك شـىء استصـحبه فهو فكـرة اسـتلهمها من حـديث للرسـول "أثـيروا القرآن" أو "ثوروا القرآن" وهو حديث وإن لم يكن قوى الإسناد. فإنه رائع المعنى وقد كان شفيع الكتاب أنه تقرب إلى القرآن بكلمة من رسول القرآن. فلم يبـدع شـيئاً من عنده ..

وانتهت هذه المعايشة الوثيقة، بـأن الاسم الأعظم للقـرآن وإكسـيره المعجز هو أن القــرآن ثــورة لها من القــوة والفعالية ما تغــير الأوضــاع، فتقضى على عهد من الانغلاق، والظلم، والأنانية والجهالة لتبــدأ عهــداً من النــور والانفتــاح والعدالة والحب والحرية... ويتم هذا بعيداً الطريقة الدموية الوحشية الـتى نهجتها الثـورات الأوروبيـة.. أنه "ثورة" بمعنى قوة تغير الأوضـاع. فتبعد وضـعاً بقـوم على الظلم والجهل والانغلاق والأنانية لنبدأ عهد يقوم على العدل والحرية والعلم والنـور.. إنه ببسـاطة وبلاغة يخـرج الناس من الظلمات إلى النور .

كيف توصل القرآن إلى هذا ..

لقد توصل إلى هذا لأنه عرض فكـرة الله تعـالى عرضـاً منطقيا تتقبله العقـول وتتشـربه القلـوب وأثبت قوته القـاهرة وحكمته المطلقة وإرادته للشـىء كن فيكـون، وشرح القيم النبيلة من حب وحرية واتفاق وكرم وشجاعة وصدق فى القول ووفاء فى الوعد وإحسان فى العمل، وربطهما فى حلقه أسمائه الحسنى. وندد بأسـلوب له زخم العواصف والشلالات بالطغاة والطغيان وأن مصـيرهم الهزيمة فى الـدنيا والجحيم فى الآخرة وأن العافية هى للمؤمنين الذين لا يريدون علـواً فى الأرض وكـان فى أسـلوب القرآن من الوعد والوعيد، الترغيب والترهيب ما فى كل درجات السلم الموسيقى من رقة تتسلل إلى القلوب ومن صخب يثقب الآذان .

استنفر القـرآن كل ما فى الإنسـان من عقل ومنطـق. وكل ما فيه من عواطف الخير والعطاء. كما أسترهبه من كل طغيان أو فساد ووعده الانتصار فى الحيـاة الـدنيا والجنة فى الآخرة. وأوكل القيام على هذا وتطبيقه لنبى كـريم أمين فيه كل مقومـات القيادة. فتحققت ثورة الإسلام ..

أن ثورية القــرآن.. تختلف عما عهــده النــاس من ثــورات آدمين يمليها الغضب والثأر وحب الانتقام. فتسفك الدماء وتبيح الحقوق بحجة "الشـرعية الثوريـة" إن ثورية الإسلام هى ثورية الكلمة لا السيف.. الإيمان لا القهر ..

الأديان ثورات جماهيرية ..

من هذا المنطلق وضع كتاب "تثوير القـرآن" نظرية عن أن الأديـان فى حقيقتها هى الثـورات الحقيقيـة، والمباشـرة للشـعوب والجمـاهير فمن كـان يفكر فى العهـود الموغلة فى القـدم فى الجمـاهير الكادحة من فلاحين وحرفـيين. هل هم الملـوك؟ ما أبعد هذا، هل هم النبلاء الذين يسـترقون الجمـاهير؟ هل هم الفلاسـفة الـذين يعكفـون فلسـفة عسـيرة الفهم لا يفهمها إلا القلة فى عهد لم تكن الجمــاهير تمـيز بين الألف وكوز الذرة! لا أحد كان يمكن أن ينهض فى العهد القديم بالجماهير، والجماهير نفسـها كانت عاجزة، فقدت أغلبيتها الوعى وتقبلت الاستسـلام بينما عجـزت القلة الـتى وعت ما هى فيه من ظلم عن الثورة، وعندما حاولت سحقت ومثل بقادتها.

الأديان وحـدها هى الـتى تـدخلت: موسى يـدعو لليهودية وإطلاق بـنى إسـرائيل ويقودهم من مصر "بيت العبودية" إلى أرض الحريـة. من كـان يسـتطيع أن يفعل هـذا

أمام الفرعون دفاعاً عن مجموعة ضعيفة مستذلة، وبأى قوة استطاع موسى أن يقف أمام فرعون ويتحداه؟ بقوة الدين... وتدور القـرون وتجد الشعوب والجمـاهير نفسـها وهى فى قبضة الجـبروت الرومـانى الـذى هيمن بالسـيف والتنظيم على العـالم أجمع وجعله تبعـاً لرومـا، ومكن روما من أن تسـتعبد شـعوباً بأسـرها.. هل كـان يتصـور أن يستطيع نـبى مغمـور ولد فى إحـدى قـرى الإمبراطورية وتبعه بعض صـيادى الأسـماك والحرفـيين هل يتصـور أن يجابه هـذا الرجل الجـبروت الرومـانى بشـرعة الحب.. إن الصراع بين المسيحيين والرومـان يمثل أقسى معركة للصـراع ما بين الوثنية والـدين. الوثنية التى تسترق الناس والدين الذى يحررهم وانتصرت المسيحية .

وأخـيراً تظهر ثـورة الإسـلام فى بادية العـرب ووسط القبائل الوثنية المتنـاحرة والتى كان قصارى فخرها سبق جواد وإنشاد قصيدة أو كسب رهان.. وكـانت الغـارات بعضهم على بعض وسيلة مقـررة لمقاومة الجـدب. ظهر محمد رسـول الإسـلام فوحد هــذه القبائــل، وجعلها تنبذ إلهتها الحجرية وشــرابها المســكر.. ورهانهــا.. وغاراتهــا.. فوجـدها.. ووضع فى يـدها الكتـاب والمـيزان.. لتصـلح أوضـاع العـالم الطبقى ما بين فارس وبيزنطة ..

أليست هى ثورات بالمعنى الدقيق للثورة.. ألم يكن لها فكر نظرى مميز يتبلـور فى عقيـدة.. ألم تشـترك فيها الجمـاهير بل ألم تكن الجمـاهير هى مادتها ألم تحقق تغييرات شاملة كاسحة فى كل ميادين الحياة..

إن أوروبا تحـدثنا عن التـاريخ السياسى وتـاريخ الملـوك والأسر المتوجه والنبلاء والأمراء، وما استجد بينهم من حروب أو تذكر لنا التاريخ الاقتصادى الذى يجعل التاريخ يسير تبعا للاقتصاد ولما تمليه علاقات ووسائل.. ولكنها لا تحـدثنا عن التـاريخ الـدينى.. لأنه لم تنبعث منها الديانات الكبرى ولا ظهر فيها الرسل من أولى العزم ..

إن ثورات الأديان تختلف عن الثـورات الـتى قـامت بها الـدول الأوروبية وأجـرت الـدماء أنهـاراً وانتهكت كل أصـول الشـرعية. أن الـدماء فى ثـورات الأنبيـاء هى دمـاء الذين قاموا بها والذين استشهدوا فى سبيل الـدفاع عنهـا. وليست دمـاء الـذين قتلتهم هذه الثورات لأن ثورات الأديان ثورات كلمة لا ثورات سـيف.. ثـورات إيمـان.. وليست ثورات سنان .

بالإضافة، فإن ثـورات الأديـان قـدمت أسـمى مثـال للقـادة. فهم من الشـعب يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق. ولم يصـلوا إلى زعـامتهم بالحسب أو النسب أو الجاه ولكن بالخلق والصبر والإيمان ومواصلة الدعوة حـتى اكتسـبوا إيمـان الجمـاهير. وهم فى قيادتهم للثورات لا يبغون علواً ولا يحسون زهواً ولا يكسبون مالاً أو يتمولون ثروة. ولا يرهبون اتباعهم ولا يفرضون إرادتهم بحكم السـلاح إنهم ابعد ما يكونـون عما تقدمه لنا دراسة التاريخ للقادة السياسيين والعسكريين والملوك الذين إذا دخلـوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ..

إذا كـانت الأديـان قد قـدمت أعظم الثـورات شـأنا فى التـاريخ وأقربها وأمسـها بالجماهير والشعوب وإذا كانت قد قـدمت النمـاذج المثلى للقيـادة وما يجب أن تتصف به من بعد عن الذاتية وإذا كانت هذه الثورات الـتى حققت أعظم تغيـير فى العـالم قد حـدثت دون سـفك دمـاء أو بـدماء قليلة معظمها من أصـحابها الـذين استشـهدوا فى سبيلها ...

إذا كـان الأمر كـذلك فكيف يجـوز أن تغفل هـذه الصـفحات المـؤثرة فى تـاريخ الإنسانية؟ كيف جاز أن يتجاهل هذا الجانب التـاريخى للجمـاهير الـتى اشـتركت فيهـا.. كيف جــاز الإدعــاء أن الأديــان "أفيــون الشــعوب" وأنها "تضــحية بالــدنيا فى ســبيل الآخرة" ..

كلاً أيها السادة لقد أقـامت الأديـان الـدنيا على أحسن تقـويم فـأحلت من ناحية "حكم القانون" ممثلاً فى قيم لا يجوز حـتى للإنسـان أن ينتهكها كما أقـامت من ناحية أخرى "حكم الإنسان" بحيث لا تستبد المبادئ بالإنسان فتضـحى به فى سـبيلها، وبهـذا خلصت من مشكلة الحكم.. والتعارض المظنون ما بين إرادة الفرد ومصلحة المجتمـع. وكان سبيلها للقضـاء على التنـاقض هو الإيمـان وأن التناقضـات إنما جـاءت للخطأ فى تحديد المواقف وتعيين الحقوق والواجبات كالظن أنه ما دامت "الأغلبية" تريــد، فيجب تحقيق إرادتها صوابا أو خطأ.. إن الدين يتدخل هنا ليوضح أن الأغلبية قد لا تكــون على هدى دائما، ويغلب أن تكون مضللة وليس لها أن تنتهك الحقوق الأساسـية الـتى أقرها القــانون الإلهى للإنســان بحيث يكــون الصــواب الالــتزام بالمبدأية ولكن المبدأية إذا أصيبت بالتعصب الأعمى وفقدت حاسة الاعتدال والنقد ومنـاخ الحرية (والأديـان تقـوم على حرية الفكر، لأنها إيمـان، ولا إيمـان إلا بفكـر، ولا فكر إلا فى حريـة) فإنها تسـىء ويجب على الشعب أن يقفهـا، وهـذا كله ما قدمته الأديـان لإدارة المجتمـع.. وللحيلولة دون تغول السلطة من ناحية أو التعصب من ناحية أخرى .

* * *

بعد أن انتهى "تثوير القــرآن" من عــرض نظريته عن الأديـان كثـورات جماهيرية تستهدف التحرير.. عرض التطبيق العملى لها بثورة الإسـلام فى شـبة جزيـرة العـرب وكيف حولها الإسـلام من قاعـدة قرشـية لكسب المزيد من الأربـاح لتجارية واسـتتباع الجمـاهير بإلهتها الوثنية إلى أمة لها قيم ولها حضـارة أثبتت جـديتها واصـالتها وقـدمت إضافتها إلى تاريخ البشرية وأشهدتها على فترات من أجمل الفترات فى تاريخ البشرية حتى وإن كانت قصيرة ومعدودة ..

تفريغ القرآن من مضامينه الثورية ..

كيف إذن حدث التحول.. ولماذا لم تستمر ثورة الإسلام إلا أمداً قصيراً .

لقد تقصى الكتاب هذه القضية بكل اهتمام لأنها تصور مأساة المجتمع الإسلامى فأشار إلى أن أعظم عامل أسهم فى التدهور السريع كان تفريغ القرآن من مضــامينه الثورية. وأخذ هنا التفريغ الصور الآتى :

1. تفسير القرآن تفسيراً تقليدياً أبعد روحه عن القارئ وشغله بقضايا جزئية لا قيمة لها .

2. إيثار المنهج النقلى التقليدى "السُنى" على المنهج التحررى القرآنى

3. إقحام مضامين لاهوتية أفسدت عقيدة الله وشقت وحدة الأمة وأدت فما أدت إليه إلى ظهور التصوف وغيره من الاتجاهات البعيدة عن روح القرآن .

وتناول الكتاب كل عنصر من هذه العناصر بالدراسة فتحدث عن جريرة التفاسير التقليدية، مستشهداً بما جاء فى كتابنا الأصلان العظيمان الكتاب والسُنة وغيره من الدراسات، وهذا القسم قد أدرج تقريباً فى فصول هذا الكتاب عن "تفسير القرآن" قدامى المفسرين ..

ورأى الكتاب أن الانتقال من الفقه القرآنى إلى الفقه السُنى نقطة انتقال من الفكر التحررى العقلانى إلى الفكر التقليدى النقلى. ومع أن الرسول أمر أن لا تكتب أحاديثه فإن الذى حدث كان التهافت على الأحاديث وركوب الصعبة والذلول بحثا عن حديث حتى تراكمت "بالأطنان" أحاديث عرقلت، وعوقت، بل وأوقفت عمل القرآن ولم تنجح كل المحاولات التى بذلت لتنقية السُنة فقد اتسع الخرق على الراتق .

وضرب الكتاب المثل بثلاثة أحاديث لا ترقى لمرتبة الصحيح المؤكد، ومع ذلك هيمنت على المجتمع الإسلامى وعلى الفكر الإسلامى طوال ألف عام ..

أولها حديث الأئمة من قريش الذى جعل كل المفكرين الإسلاميين (باستثناء الخوارج) يلتزمون ذلك وعزز هذا الطريق غير مباشر دعوى الشيعة فى الإمامة، وهو ما يخالف مبدأ المساواة الذى قرره الإسلام، وأن الناس لا يتفاضلون إلا بالتقوى. وان المناصب لا يشغلها إلا الأكفاء .

والحديث الثانى "المرأة عورة" وما دامت المرأة عورة فيجب سترها فى البيوت. وكان هذا الحديث هو أساس الفصل بين الجنسين والحيلولة دون اختلاط النساء بالرجال.. وجعل المجتمع الإسلامى مجتمعا "ذكورياً" وما يعنيه هذا من حرمان المرأة من حقها فى العمل وفى "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" الذى أوجبه القرآن عليهن .

والحديث الثالث "من بدل دينه فاقتلوه" وهو من أحاديث الأحاديث وراويه عكرمة الذى استبعده الإمام مسلم من صحيحه. ومع هذا فكل المذاهب الإسلامية أخذت بهذا المبدأ مما أصلت سيف الإرهاب على كل فكر حر لأن الفقهاء بنوا عليه أن من جحد معلوما من الدين بالضرورة فهو مرتد. ويتعين قتله ! .

وعمدت قوى التحول إلى إقحام مضامين لاهوتية وصوفية فى القرآن الكريم، كانت الأولى تتعلق بآيات الصفات التى مزقت الأمة وتمت بسببها أكبر حركة اضطهاد كادت أن تؤدى بحياة الإمام أحمد بن حنبل – دون أن يكون لها أى معنى. فلم يثر انتباه المسلمين طوال أيام النبوة والخلافة الراشدة آيات الصفات أو يرون فيها ما

يمكن أن يكـون محـور خلاف... ولكنهم شـغلوا الأمة بهـذه القضـية اللاهوتيـة. بل إنها تمثل كيف شغلت "أحرار الفكر" فبدلاً من تطبيق حرية الفكر للجميع حضـوا أنفسـهم بها دون الآخـرين. وبـدلاً من أن يطـالبوا بتطـبيق العـدل على الخلفـاء الظلمة فـإنهم طالبوا بتطبيقه على الله!!، وبهذا تبددت دعـوة أحـرار الفكر هـذه، بل وجهت ضد الله بـدلاً من أن توجه ضد الخلفـاء!! وكـان التصـوف ملاذاً لفريق كبـير من النـاس ضـاق بجفاف الفقهاء والتفافهم حول السلطان أو بانحرافات المعتزلة ودعـاويهم على اللـه.. فانعزلوا عن المجتمع وأقاموا لأنفسهم عالماً خيالياً يحكمه الأقطـاب والأوتـاد وتـرأس ديوانه السيدة زينب... ويحفل بالكرامات والخوارق الخ ...

واسـتقطبت الفـرق الصـوفية جمـاهير عديـدة وكـانت هى التنظيم الجمـاهيرى الإسـلامى الـذى كـان يمكن أن يحقق خـيراً كبـيراً للأمـة، ولكنه حقق ذلك لشـيوخه وأقطابه وترك الناس يصطلون مشاكل الواقع بينما يتخلل حياتهم أحلام يقظة.. تعللهم دون أن تقدم شيئاً ...

* * *

أدت كل هذه العوامل إلى تفريغ القـرآن عن مضـامينه الثورية بحيث لم يعد كما كان محور الثورة ..

والمطلـوب اليـوم إعادته إلى طبيعته الثورية التحررية الأولى والخطـوة الأولى هى إزالة هـذه الغشـاوات كل الغشـاوات الـتى أضـيفت عليـه، بالتفاسـير والمفـاهيم اللاهوتية بحيث يعود القرآن كما أنزل على محمد .

إن القـراءة المتـدبرة للقـرآن.. ككل سـتوحى باسـتخلاص منظومة القيم الـتى تحكم ثورة القرآن والتى تقـوم على مفاهيمه بالنسـبة للقـوى العظمى الـتى عـنى بها القرآن وهى :

1) الإيمان بالله تعالى، كما عرضه القرآن دون زيادة أو نقصان، باعتباره القـوة الخالقة لهذا الكون، المدبرة له – والواضعة للقـوانين والنـواميس الـتى يسر عليها الكون والمجتمع. وباعتباره أصل القيم الـتى هى جـوهر الهداية من حب أو خـير أو حرية أو علم أو عدالة أو مسـاواة الخ... والتعـرف على الفـرق بين قيم تنبثق عن الله تعالى فسيكون لها الكمـال والشـمول وقيم أخـرى تضـعها النظم فتتجـرد من الموضوعية والكمال .

2) الإيمان باليوم الآخر باعتباره الإجراء الذى يحقق كمال العدالة الـتى انتقصت فى الحياة الدنيا. فظلم الشرفاء المجهولون حقهم فى الاسـتمتاع بطيبـات الحيـاة وظفر بها من دونهم، كما أنها المناسبة التى نطبق العدالة على الـذين أفلتـوا منها أو تغلبوا عليها فى الحياة الدنيا .

أن اليوم الآخر هو يوم الحساب، هو يوم العدالـة، وسـواء كـان حسـابه أو عقابه حسياً أو معنويا أو غير ذلك. فنحن نؤمن به لأنه كمال العدالة .

3) الإيمـــان بالرســـول وابـــرز عنصر هو ما يقدمه الرســـول كقائد يمثل أفضل صفات القائد ويسمو فوق إغراء المادة والمنصب والجاه .

4) الإنسان الذى جعله الله خليفته فى الأرض وخصه بالمعرفة وأسبغ عليه نغمه ظاهرة وباطنة وما ينبغى أن يكون لهذا الإنسان من تكريم جسمه فلا ينتهك بإيـذاء أو تعذيب، وتكريم روحه بأن لا تفرض القيود على حرية الـرأى وتقيد المسـاواة ما بين الرجال والنساء لأنهم جميعاً من نفس واحدة. ولأنهم أولياء بعض ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنْ الْمُنكَـرِ وَيُقِيمُـونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُوْلَئِكَ سَـيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾. {71 التوبة} ..

هـ) القيم التى أبرز القرآن أنها هى التى تلهم الهداية لأنها ليست إلا شعاعاً من أشعة الذات الإلهية ينير للبشر الطريق، فالإيمـان بها تعبـيراً عن الأيمـان باللـه، وهـذه القيم الـتى قد تكـون خاصة بـالنفس والضـمير كـالتقوى والأمانة والصـدق وقد تكـون خاصة بالمجتمع كالعدل الذى يجب أن يكون محور وقاعدة كل العلاقـات الاجتماعية ما بين الحكم والمحكـوم الرأســمالى والعامل الرجل والمــرأة الخ... أو تكــون بالنســبة للروح كالحرية والمعرفة .

أن هذه القيم هى الغرض الذى من أجله أنزل الله تعالى القــرآن وقـال : ﴿لِتُخْـرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَــــــاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وهى ما تجمله الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِي﴾. لأن العبادة هى رمز لكل الأعمال الصالحة .

* * *

ودعا تثـوير القـرآن إلى دراسة القـرآن طبقـاً للموضـوعات الـتى سـبقت إليها الإشارة بحيث يوضع فى كل منها ما جاء به القرآن عنها، وبهذا تنكشف المعانى وترزق الشمول، ويتعمق الإيمان بها ..

بهذا يحقق القرآن ثورتـه، وهى كما قـال الكتـاب ثـورة الكلمة والإيمـان وليست ثورة السيف والسـنان، ويتم تغيـير المجتمع دون حاجة إلى سـفك دمـاء أو انتهـاك لأى شرعية لأن ثورة الإسلام هى ثورة الشرعية فكيف تنتهك الشرعية؟ ..